الدكتور عبد الرحمن الشهبندر

الأعمال الكاملة



القضايا الاجتماعية الكبرى في العالم العربي ١٩٣٦

تحقيق وتقديم

محمد كامل الخطيب

الطبعة الثانية

١٩٩٣

الدكتور عبد الرحمن الشهبندر
الأعمال الكاملة

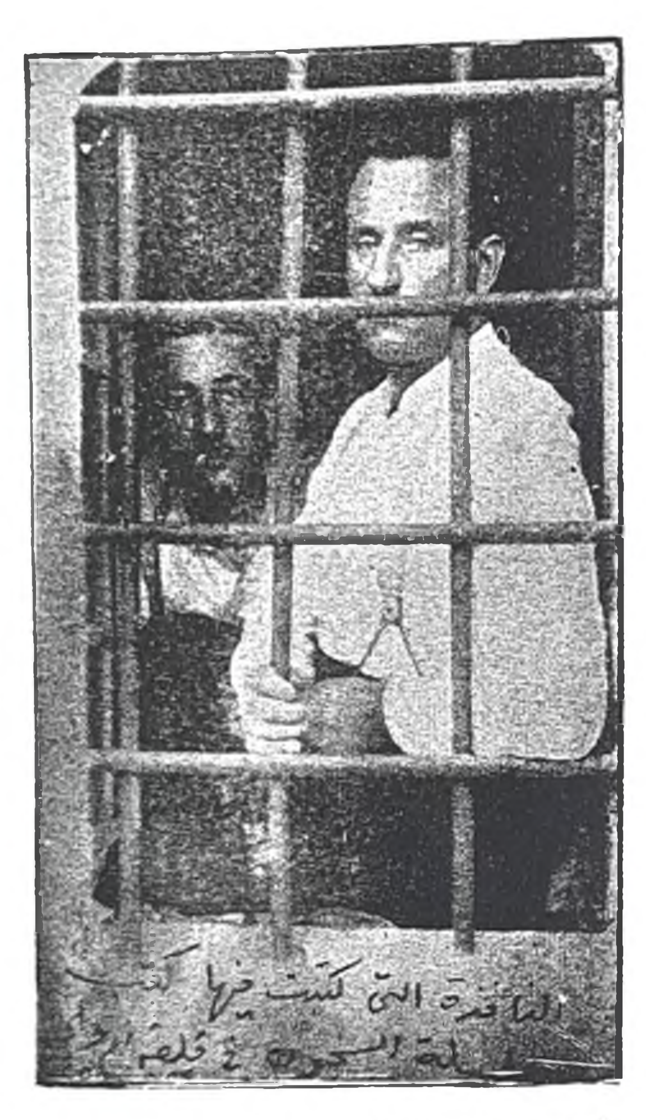
القضايا الاجتماعية الكبرى
في العالم العربي

١٩٣٦

الطبعة الثانية
١٩٩٣

تحقيق وتقديم:
محمد كامل الخطيب


منشورات وزارة الثقافة
في الجمهورية العربية السورية
دمشق ١٩٩٣



الدكتور عبد الرحمن الشهبندر

القضايا الاجتماعية الكبرى في العالم العربي / عبد الرحمن الشهبندر ؛
تحقيق وتقديم محمد كامل الخطيب . ـ ط ٢ . ـ دمشق : وزارة الثقافة،
١٩٩٣ . ـ ١٧١ ص ؛ ٢٤ سم . ـ
(قضايا وحوارات النهضة العربية ؛ ١٠) .

من الاعمال الكاملة .

١ ـ ٣٠٧٫٩٥٦ ش هـ ب ق ٢ ـ ٣٢٠٫٠١...ش هـ ب ق
٣ ـ العنوان ٤ ـ الشهبندر ٥ ـ الخطيب ٦ ـ السلسلة

مكتبة الأسد

الايداع القانوني : ع ـ ٥٠٧ /٥/١٩٩٣

تقديم

« القضايا الاجتماعية الكبرى في العالم العربي» هو كتاب برنامجي وضعه سياسي مفكر ليقدم من خلاله تصوره للمجتمع الذي يناضل في سبيله أو يدعو إليه ، وربما كانت هي المرة الأولى ، والوحيدة ، التي يتقدم فيها سياسي عربي ببرنامج أو تصور فكري لإطار وغاية عمله ، أو نضاله السياسي ، ولا نستثني قادة الاحزاب العقائدية أو التقدمية العربية من ذلك .

يبدأ الشهبندر كتابه بدراسة فكرة « المدنية » أو الحضارة كمااستقر المصطلح اليوم ، والمدنية قوامها الإنسان، لكن الانسان ليس مجرداً ، فهو يتألف ابتداء من رجل وامرأة ، وهذان – المرأة والرجل – يبنيان اسرة ، والأسر اذا ماتعددت وكثرت صارت مجتمعا بشريا ، والمجتمع البشري يحتاج منظما هو الدولة ، واذا كان هناك مجتمع ودولة فلا بد من دين اوعقيدة ...

هكذا يسلسل الشهبندر الوجود او الاجتماع البشري ، وهكذا يتسلسل تفكيره وكتابه بدءا من النواة الاولى ، علاقة الرجل والمرأة ، وصولا الى التنظيمات الاجتماعية السياسية والقانونية والعقائدية التي تؤسس المدنية انطلاقا من هذه النواة الاولى .

بعد هذه الدراسة التكوينية للوجود البشري المدني ، يدرس الشهبندر الوجود البشري في بنائه الأعقد ، وفي

الستينات:العالم الثالث ، والحقيقة ان الكمالية ، كانت تجربة مبكرة لمصدق في ايران ، وعبد الناصر في العالم العربي ، وكاسترو في كوبا ، ونكروما وسيكوتوري في افريقيا ، ولكل التجارب الوطنية فيما بعد ، لقد مثلت الكمالية اول تجربة في الاستقلال الوطني لشعوب « المستعمرات » اوللشعوب غير الاوروبية ، فقد كان للكمالية صدى واسع في العالم العربي خلال عقد الثلاثينات ، ربما نجحت فيما اخفق فيه العرب آنذاك .

بعد ذلك يدرس الشهبندر اسس العمل السياسي او « تقنياته » فيدرس الزعامة وصفات الزعيم والوطنية والثورة ، ثم يدرس وضع الدين في المجتمع ، ليصل الى رأي مستنير خلاصته ان للدين مجاله الخاص الذي يجب ان يقتصر عليه .

يستعرض الشهبندر جميع اشكال الحكم التي وجدت قديما وحديثا ، باحثا عما يسميه « أصلح اشكال الحكم في العالم العربي » معتمدا على ثقافته الواسعة من ناحية ، وتجربته الشخصية في العملين السياسي والثوري من ناحية ثانية ، ناظرا الى العالم العربي على انه وحدة حضارية - ثقافية متفاوتة في درجات التطور ، مثلما هي مختلفة في المميزات المحلية ، لكنها مجتمعة على قاعدة واحدة ، او في اطار واحد هو اطار اللغة والتاريخ والعقيدة والمصلحة ، فما يجمع العالم العربي اكثر مما يفرقه ، ثمة اذن وحدة تحتوي التعدد، وتعدد لايضع الوحدة ، ولهذا لم يكن مشروع الوحدة العربية لدى الشهبندر مشروعا خطابيا او ماضويا ، او حلما مستحيلا ، بل هو مشروع سياسي واقعي ، ممكن وضروري ، ممكن لان عناصره في الواقع ، وضروري لانه لامكان للعرب في العالم المعاصر الا بتحقيقه ، فهو السبيل لنهضة العرب في عالم يقوم على الكيانات الكبيرة، وربما كانت نظرة الشهبندر للوحدة ماتزال صالحة الى

الستينات:العالم الثالث ، والحقيقة ان الكمالية ، كانت تجربة مبكرة لمصدق في ايران ، وعبد الناصر في العالم العربي ، وكاسترو في كوبا ، ونكروما وسيكوتوري في افريقيا ، ولكل التجارب الوطنية فيما بعد ، لقد مثلت الكمالية اول تجربة في الاستقلال الوطني لشعوب « المستعمرات » اوللشعوب غير الاوروبية ، فقد كان للكمالية صدى واسع في العالم العربي خلال عقد الثلاثينات ، ربما نجحت فيما اخفق فيه العرب آنذاك .

بعد ذلك يدرس الشهبندر اسس العمل السياسي او « تقنياته » فيدرس الزعامة وصفات الزعيم والوطنية والثورة ، ثم يدرس وضع الدين في المجتمع ، ليصل الى رأي مستنير خلاصته ان للدين مجاله الخاص الذي يجب ان يقتصر عليه .

يستعرض الشهبندر جميع اشكال الحكم التي وجدت قديما وحديثا ، باحثا عما يسميه « أصلح اشكال الحكم في العالم العربي » معتمدا على ثقافته الواسعة من ناحية ، وتجربته الشخصية في العملين السياسي والثوري من ناحية ثانية ، ناظرا الى العالم العربي على انه وحدة حضارية - ثقافية متفاوتة في درجات التطور ، مثلما هي مختلفة في المميزات المحلية ، لكنها مجتمعة على قاعدة واحدة ، او في اطار واحد هو اطار اللغة والتاريخ والعقيدة والمصلحة ، فما يجمع العالم العربي اكثر مما يفرقه ، ثمة اذن وحدة تحتوي التعدد، وتعدد لايضع الوحدة ، ولهذا لم يكن مشروع الوحدة العربية لدى الشهبندر مشروعا خطابيا او ماضويا ، او حلما مستحيلا ، بل هو مشروع سياسي واقعي ، ممكن وضروري ، ممكن لان عناصره في الواقع ، وضروري لانه لامكان للعرب في العالم المعاصر الا بتحقيقه ، فهو السبيل لنهضة العرب في عالم يقوم على الكيانات الكبيرة، وربما كانت نظرة الشهبندر للوحدة ماتزال صالحة الى

الاصلاح ، على قاعدة المدنية الحديثة ، بدءا من علاقة الرجل بالمرأة ، ووصولا الى مفهوم الدولة وشكل نظام الحكم المرتجي ، مرورا بشكل التنظيمات السياسية والفكرية والعقائدية ، وكتاب « القضايا الاجتماعية الكبرى في العالم العربي » هو - اذن - تصور الشهبندر وبرنامجه السياسي والفكري لهذه العملية الاجتماعية - السياسية .

بقي ان نقول : نشر عبد الرحمن الشهبندر مقالات هذا الكتاب على شكل مقالات في مجلة المقتطف خلال الثلاثينات ثم جمعها في كتاب صدر عن مجلة المقتطف عام ١٩٣٦ ، وهذه هي الطبعة الثانية لهذا الكتاب .

ملاحظة ثانية ، وهي ان الشهبندر كتب مقالاته في وقت مبكر ، ولم تكن كثير من المصطلحات السياسية والاجتماعية قد استقرت بعد ، فاستخدم معجما قد يبدو غريبا بالنسبة لقارىء اليوم ، ولهذا قدمنا معجما مفسرا بمصطلحات الشهبندر ، كما شرحنا في الهامش بعض الالفاظ التي بطل استعمالها وميزناها باشارة : م . خ

الاشتراكية المتطرفة	الشيوعية
البسطة	الاستعمار والسيطرة
التدرج	التطور
التعليل المادي	التفسير المادي
التملك الجمهوري	القطاع العام - قطاع الدولة
الجمعية البشرية	المجتمع
دستور السبب	قانون السببية او العلية
الدهماء	عامة الشعب
الرجعى	الرجعية
الصعاليك	العمال
الزواج الضري	تعدد الزوجات
العصامي	الفردي
العظامي	الاقطاع والنبالة

اليوم، مثلما الحاجة لهذه الوحدة ماتزال قائمة حتى اليوم كذلك .

لانريد ان نعتذر للشهبندر عن اعجابه بنماذج الثلاثينات، في حكم الدولة ، اي النماذج الشيوعية والكمالية ، أو النازية والفاشية ، لكن كي نكون منصفين للرجل ، علينا ان نضع اعجابه في اطاره الزمني والتاريخي، بل وربما النفسي وان ننظر الى الدافع الكامن خلف هذا الاعجاب ، فتجارب الثلاثينات كانت تبدو «ثورية» في مستهل صعودها ، وتتجاوب مع المشروع ، او الحلم السياسي ، مثلث الاضلاع ، للشهبندر ، الا وهو حلم الاستقلال والعدالة والوحدة ، وقد كانت هذه التجارب في مستهلها على الاقل ، ترفع هذه الرايات ، اي كانت نموذجية ومبشرة بما نذر الشهبندر حياته وفكره ونضاله في سبيله : استقلال العرب ووحدتهم وعدالة الحياة لمواطنيهم ، ونضيف ان الشهبندر ربما كان زعيما من زعماء الاشتراكية الوطنية على الطريقة الالمانية ، مع العلم انه كان يريد دائما أخذ الواقع العربي المتخلف بعين الاعتبار ، وربما لهذا وجه سهام نقده لكل من الاشتراكية المتطرفة ، والديموقراطية الليبرالية ، لكن اشكالية الشهبندر انه ربما يكون جنح الى نموذج « المستبد العادل » او المستنير ، وهو نموذج لاتقل عيوبه عن نموذجي الاشتراكية المتطرفة ، او الديموقراطية الغربية ، كما علمتنا تجارب الحكم وفق هذا النموذج .

على كل حال يبدو الشهبندر ، وكأنه مشروع سياسي مضمر ومجهض لنوع من : عبد الناصر بثياب مدنية ، فهذه كانت ، فيما يرى الشهبندر ، الطريقة والغاية اللتين كتب لاجلهما كتابه البرنامجي هذا ، فقد كانت غايته في نضاله ، مثلما هي في كتابته هذ الكتاب :

« أهم الغايات التي ننشدها في معالجة هذه القضايا هي الاصلاح في العالم العربي » .

العملة	النقود
القاهر	المتسلط . الديكتاتور
المتحدات التجارية	الشركات الكبيرة
المعلمة البريطانية	الموسوعة البريطانية
المقاولة الاجتماعية	العقد الاجتماعي
الانقلاب	الثورة
النشوء	التطور

يشكل هذا الكتاب « القضايا الاجتماعية الكبرى في العالم العربي » المجلد الاول . من سلسلة الاعمال الكاملة للدكتور عبد الرحمن الشهبندر ، ونأمل ان يصدر المجلد الثاني قريبا، وهو يحتوي على مجموعة من مقالات الشهبندر في المجلات المختلفة .

محمد كامل الخطيب
١٩٩٣

الاهداء

لذكرى الشهداء الذين سقطوا في ميادين الشرف
في العالم العربي دفاعاً عن الحرية والاستقلال
منذ سنة ١٩١٥ الى سنة ١٩٣٥

المقدمة

ليس من قصدنا ان تتناول هذه المقالات التي نشرناها تباعاً في مجلة المقتطف جميع القضايا الاجتماعية الكبرى في العالم العربي ، فهذه اكثر من ان تتناولها مجلة مهما اتسع صدرها ، بل حسبنا ان نخص بالذكر منها هذه الموضوعات الرئيسية التي عالجناها بشيء من الايضاح ربما لم نكن لنحتاج اليه لو اقتصرنا على الكتابة لمصر او لسورية او للعراق مثلاً . اما والعالم العربي متسع فسيح يمتد من المحيط الى الخليج ويحوي انواعاً من التربية المتفاوتة في الدرجات فلا بدَّ من ملاحظة هذا التفاوت بتقديم الشروح والايضاحات الضرورية ، مع الاشارة الى مثل هذه القضايا عند الامم الاخرى . وفي الحق ان سهولة الاتصال بين شعوب الارض وتقريب المسافات بين القارات وشدة الامتزاج بين الثقافات وارتباط المصالح بين الممالك كل ذلك سينهنه من غرب الذين يزعمون انهم خلقوا خلقاً خاصًّا كذب من بعده النسابون ، وسيجعل القضايا الاجتماعية في المجتمع البشري متشابهة وطرق معالجتها متقاربة ،لان الانسان بالغاً ما بلغ من التأثر ببيئته الخاصّة تابع في تدرجه لقواعد اجتماعية عامّة مستقاة من تجارب واختبارات متماثلة في جميع الافراد والجماعات

ولم نهمل شأن المرأة عند ما عرضنا لقضيتها مع الرجل لاعتقادنا ان مسألتها من امهات مسائلنا التي تتطلب العناية الخاصّة ، وذلك لان نصف المجتمع قائم على المرأة سواء عند العرب ام عند غيرهم ، وربما كان النصف الاهم بالنظر الى اتصاله المباشر بالاطفال رجال المستقبل ، ومن العبث ان نحاول النهوض ونصفنا مشلول او ان نطلب تنظيم بيتنا والمرأة — وهي على رأسه — في جهالة عمياء لا تكاد تختلف عن المرأة في القرون الوسطى الا بهذه البهرجة الخارجية وهذا التأنق في المظاهر

وارجو ان يلاحظ القارىء ان الرأي الذي ننتهي اليه ، من بعد ما ندعمه برأي المدققين ممن تروقنا مواقفهم ، هو في الغالب رأي آمنا بصحته من جرّاء اختبارات ما فتئت تمر علينا منذ نحو جيل كامل ، فاذا قدّر لنا ان نخدم قضيتنا المشتركة بما نستخلصه من هذه الاختبارات من الآراء العملية النافعة نكون قد قمنا بشيء من الواجب

ان في كل يوم قضيةً اجتماعيةً جديدةً لطارىء اجتماعيٍّ جديد، ويتادر الفرد مكانه فيحل محله فرد آخر، لكن المجتمع مستقر كالدوحة الباسقة أصلها في الارض ثابت وفروعها تتنازعها أهوية السماء

القاهرة في ٢٥ فبراير سنة ١٩٣٦ — عبد الرحمن شهبندر

المدنية

المدنية هي حالة من الثقافة الاجتماعية تمتاز بارتقاء نسبي في الفنون والعلوم وتدبير الممالك. وتكفي كلمة «نسبي» الواردة في هذا التعريف للدلالة على ان التدرج الذي تم ليس تدرجاً مقطع الاوصال بل متصل الحلقات تبتدىء الدرجة اللاحقة منهُ حيث تنتهي السابقة. واذا كانت المدنية في التحليل النهائي هي عبارة عن حاصل الاعمال التي انجزها الانسان فلا جناح علينا ان نصف بعض المنجزات التي تمت في عالم الحيوان بانها مدنية ايضاً وندونها في سجل الحضارة. فالذئاب مثلاً تؤلف العصابات للصيد، والنمل يخوض غمار الحرب، والنحل يزاول الصناعة، والوعل يقيم الحرس عند ما يرعى، والتنظيم «العائلي» بشكليه من ضرٍ ومتعدد الزوجات موجود في بعض الحيوانات العليا وقد تربي هذه الحيوانات صغارها بما يُلقى عليها من دروس عملية وأمثلة حسية، وتكون علاقة الكلب بسيده في بعض الاحيان علاقة اخلاقية سداها الاخلاص ولحمتها المحبة. ولبعض القردة من الاعمال المستغربة والحيل المستنبطة ما يدعو الى العجب العجاب، وقد صار ذكاء الفيلة مثلاً من الامثال. وقد تتعذر كثيراً رؤية الحد الفاصل في هذا الموضوع بين الحيوانات العليا وأحط المتوحشين وربما ادت المقارنة في ذلك كما يقول احد العلماء الى تفضيل الحيوان على الانسان

بيد ان هنالك فرقاً واضحاً بين عمل الانسان وعمل الحيوان. فما يعمله هذا هو بالاجمال غريزة عمياء لا تدل على غاية ذهنية ولا احاطة بالوسائل المتخذة في حين ان ما يعمله الانسان ولو قام في بعض الاحوال على الغريزة هو عمل متصل بالادراك وله غاية موضوعة نصب العين

وجرت عادة الكتاب المتأخرين انهم اذا اطلقوا كلمة «المدنية» ارادوا بها المدنية الحاضرة في مقابل الهمجية التي كان عليها البشر في الازمنة الخالية او التي لا تزال بعض الاقوام المنحطة تعيش في كنفها. والانسان لم يبلغ مدنيته هذه الا بعد ما جاز ادواراً خطيرة اندثرت معالمها

وغابت معظم اخبارها عن اعين التاريخ . وقد قسمها الاستاذ (جدنجز)[1] الى ثلاثة ادوار فالدور الأول منها او دور التأسيس تمثله المدنيات القديمة على عهد الفراعنة والبابليين وهو يتصف بضعف التوادد ودقة اواصر الصفاء بين المجتمع الواحد وما يماثله من المجتمعات الاخرى او بفقد هذا الاتصال بتاتاً. ويكون اصحاب هذا المجتمع مجبرين على الدفاع عن انفسهم بصورة مستديمة في وجه ما يحيط بهم من العالم المتوحش او في وجه مجتمع آخر يزاحمهم ويهددهم، يعني ان قوى الشعب تنصرف اولاً الى التضامن السياسي بين الافراد وتأسيس النظم العسكرية لدفع العوادي ولضمان السلامة

ثم متى تحققت هذه الاهداف يبتدىء الدور الثاني وهو يمتاز بالتغلب على سياسة الحصر والتضييق التي اقامتها النظم العسكرية فيتحرر الشعب عقليًّا وشخصيًّا . ويتجه الانتقاد من رجاله شطرَ التنظيم الاجتماعي وما فيه من مواطن الضعف . وتمثل هذا الدور المدنية اليونانية والمدنية الرومانية على عهدي اثينا ورومية . بيد ان هاتين المدنيتين .وقفتا دون الوصول الى الدور الثالث لأنهما لم تكونا ثابتتين مستقرتين وكانت ثروتهما الخارقة مطمح الانظار ومثار الاطماع في الاقوام المتوحشة الى ان تغلبوا عليهما كلتيهما وسحقوا حضارتهما

اما الدور الثالث وهو ما وصلت اليهِ الدول الغربية الحاضرة فهو اقتصادي واخلاقي يعني ان هذه الدول منهمكة اليوم في الشؤون الصناعية وفي جمع الثروة واستكشاف طرق استخدامها وفي التربية العامة ونشر الثقافة

وغني عن البيان ان الدول الاوربية ما بلغت الدور الثالث هذا الاَّ بعد ان مرّت في اختبارات الدور الثاني وانصهرت في بوتقة الانقلابات الادبية والثورات الاجتماعية منذ «النهضة» الادبية في القرن الخامس عشر الى الثورة الفرنسوية وما تبعها من ثورات ، وان الضجة القائمة في اطراف العالم اليوم حول الرأسمالية والاشتراكية والشيوعية ان هي الاَّ ضجة من لوازم النهضة الاقتصادية والاخلاقية الخاصة بالتطور الحاضر

وقد فضلنا هذا التقسيم الذي قال بهِ الاستاذ (جدنجز) على غيره لما اشتمل عليهِ من ذكر التغيير الذهني في الشعوب من جهة والتبدل البنائي في المجتمع من جهة اخرى فهو معنوي حسي في آن واحد

هذا هو تقسيم المدنيات ففي اي دور نحن يا ترى من هذه الادوار الثلاثة ؟ سؤال يختلف الجواب عنهُ باختلاف القطر العربي المقصود فسورية مثلاً تصرف الجهود الغالية في سبيل تكاملها السياسي واستقلالها وقد دخلت في دور من ادوار النشوء الصناعي الاقتصادي بعدَ فاتحة خير وعنايتها بالتربية والتثقيف تسير سيراً مطرداً في حين ان بعض القبائل في الجزيرة

(١) The Principles of Sociology IV. p. 299

العربية هي في حالة حرب مستمرة مع القبائل الاخرى او مع المحيط الطبيعي فكأنها لا تزال في الدور الاول . وهنالك اقطار اخرى في هذا العالم العربي تعيش من بعض الوجوه تحت السلطة الاكليركية التي كانت منتشرة في القرون الوسطى

والواجب على قادة الفكر في هذه الاقطار المترامية الاطراف ان يحفزوا من لا يزالون يلخون في الادوار المدنية الابتدائية من ابناء العرب ويدفعوهم الى الامام توطئة لتكاملهم السياسي واستقرارهم الدولي وتنظيم شؤونهم الاقتصادية والمعنوية

ويحسن بنا تنويراً للاذهان ان نشير هنا الى ما ذهب اليهِ (اوغست كونت) الحكيم الفرنسوي المتوفي سنة ١٨٥٧ في فلسفته الحسية من ان الدستور الذي يسير بمقتضاه التاريخ البشري هو تدرج الانسانية في دورين استعداديين سابقين توطئة للدخول في الدور النهائي الثالث[1] . فالدور الاول عنده هو الدور «اللاهوتي» يوم كان العقل البشري يفسر الاسباب ومسبباتها بتدخل مباشر من الآلهة بطريق الخلق او العناية . وما دام الانسان على هذه الذهنية في فهم العالم فلا سبيل الى ادراك العلم الصحيح لان العلم انما هو معرفة العلاقة بين الاسباب ومسبباتها ، ولا الى الارتقاء المادي او المعنوي لان الشرط الجوهري في هذا الارتقاء انما هو الحصول على العلم الصحيح . وقد كان الانسان خرافيـًا في هذا الدور ذا عقلية صبيانية ومنهمكاً في عبادة الابطال . اما الدور الثاني فهو دور البحث في ما وراء الطبيعة اي ان الانسان لما لم يعد موقناً بأن الخوارق هي سبب الحوادث المحيطة بهِ فاخذ يفسر الدنيا بالقواعد والنظريات المجردة فأضاع نفسه في تيه من نظرٍ عقيم . وغير نكير ان العقل تحرر في هذا الدور من عبودية الخوارق الا انهُ اضاع قواه في السؤال عما هو مجهول في كنههِ ومحجوب في جوهره. واما الدور الثالث فهو الدور الحسي او العلمي يوم زالت النظريات خلّت محلها الملاحظة والتجربة والاستقراء والقواعد الكلية الشاملة . وقد وجد الناس ان عالم الحقيقة التي يمكن الوصول اليها هو عالم متسع الى درجة تكفي لاشغال جميع اوقاتهم واستنزاف جميع قواهم . وباتخاذهم الحقائق اساساً مكيناً للبناء اتيح لهم ان يعرفوا من الطبيعة اسراراً مكنتهم من التغلب على الاحوال المادية وعلى شطر كبير من الاحوال المعنوية للحياة الانسانية فسار العالم في سبيل التقدم والارتقاء

وقصارى القول ان لدينا بعض العلامات الوثيقة لتعيين درجة المدنية التي عليها الشعوب فحيثما يكون الفرد خالياً من فكرة الاسباب ومسبباتها قانعاً بانهُ خيال الظل تسيّره الارواح بيدها كما تشاء كانهُ ريشة في مهب الريح طائرة لا حول له ولا طول — حيثما يكون الفرد على هذه الذهنية عبداً لاوهامهِ الباطلة وعقائده السخيفة واحلامه الطليقة فالمدنية ابتدائية. وحيثما

(١) Cours de philosophie positive vol. IV. p. 653

يكون الفرد قانعاً بان ما يصيبهُ هو من نفسه او من عمل الناس حواليهِ — الاَّ في الكوارث الطبيعية الكبرى كالزلازل وتفجر الحمم من البراكين — وحينما يعلم انهُ لا يتغير مالم يغير ما بنفسهِ فالمدنية مدنية العصر الحاضر. قال الاستاذ (بايندر) « والفرق بين المدنية والهمجية هو في امر جوهري واحد وهو ان الانسان المتمدن لا يكل حماية روحه الى احدٍ في حين ان الهمجي لا يكاد يعدّها ملكاً له »[1] وضرب على ذلك مثلين من اليونانيين القدماء ومن اليهود العبريين فقال عن هؤلاءِ ان مدوّناتهم تدل على فقدهم الحرية . فان (يهْوَه) قد ادار دفة حياة اليهود وسيّرها من الاصحاح الاول في سفر التكوين وهو اول التوراة الى الاصحاح الاخير من سفر ملاخي وهو آخرها . وهو معبود قاهر متغلب حكم بعصاً من حديد وسحق على عجل جميع من عصوا امره ، حتى ان (قورش) ملك الفرس العظيم لم يكن سوى آلة بيده يسخرها لغاياته الذاتية كما يسخر الخزّافُ الصلصالَ . وكان النصر بيده يعطيه شعبه اذاهم اطاعوا وسلموا . وايضاحاً لهذا الامر بصورة جلية امر نبيّهُ (جِدْعُون) ان يصرف اثنين وعشرين الفاً من رجاله (لئلاَّ يفتخر اسرائيل على الرب قائلاً ان يدي خلصتني) . لكن الآلاف العشرة الباقية معهُ لا تزال كثيرة لذلك امره ان ينتقي ثلاثمائة رجل فقط ففعل ، والى يد هذه الشرذمة الضئيلة سلّم (يهوه) المدْينيين جميعاً

«وبيد (يهوه) كل شيءٍ الحصاد والصحة والحياة والموت ، فاذاما اصاب الشعبَ خيرٌ فمن (يهوه) واذا ما اصابهم شر فما اقترفوه من المعصية والوثنية ، ولم يكن في طاقة الرجل العبري ان يتحركَ حركة ما لم ترشده يد (يهوه) ، فهو الذي كان يمن عليهِ حتى بالنوم اللذيذ . وقد دام هذا الرأي الخالي الى عصرنا هذا في الفرقة البروتستنتية المتشددة المعروفة بطائفة «البيورتان» . وتدل القائمة الطويلة باسماء الشرور المذكورة في الاوراد الكنسية مع المعروض المرفوع الى السماء وهو « انقذنا ايها المولى الرحيم » على ان هذا الموقف الابتدائي لا يزال حيّاً في اوساط اخرى ايضاً »« وبديهي ان مثل هذا الاتجاه التوكلي المطلق والاستسلام للعوامل الخارجية ولو كانت طافحة بالخير لا ينشيء الرجل المنشود — الرجل الحرّ المستقل المعتمد على النفس والشاعر بالحرمة الذاتية والذي يتحمل التبعة على عمله ويصيبه اللوم على فشله كما يصيبه السرور على نجاحه . وما هدف الجمعية الاَّ انشاء مثل هذا النوع من الرجال . وحينما لا يوضع هذا الهدف الاسمى نصب العيون بصورة دائمة فهناك فشل مسجل . ولم يخلق المجتمع في الاصل لجعلنا اكثر ثروة او ليوفر علينا الجهد والكدّ او ليزودنا بالبهجة والحبور بل هو حادث لانشاء الرجل المستعد لان ينتصب على قدميهِ الاثنتين والعالِم بانهُ محاسب على عمله والشاعر بالسرور من هذه المسؤولية » وقوة المرء على تعيين مصيره بيده هي قوة يعجب بها الرجل الحرُّ ويبالغ في قيمتها اكثر من

(١) "Major Social Problems". Chap I.

كل شيء آخر . هذه هي القوة التي تميزه عن الآلة الميكانيكية وتفرقه عن خشبة طافية على وجه النهر ، فتلك تنفذ ارادة غيرها واما هذه فلعبة بيد القوى الطبيعية الجامدة ، وكلتاهما يستولى عليها محيطها في حين يستولى الانسان على محيطه ، بل ان الحيوان نفسه قليل التأثير في بيئته وما انقراض الانواع بقضها وقضيضها الا شاهد عدل على ذلك » اه

هذا هو الدليل الناطق الذي اتخذه الاستاذ (بايندر) فيصلاً للتفرقة بين الهمجية والمدنية. ومن العجيب ان تحدث الازمات المعقدة المتنوعة في اوربا في ايامنا هذه ردّ فعل يكاد يعود ببعض الجماعات الى هذه الحالة الابتدائية . فقد زار مصر في صيف السنة الماضية بعثة من خريجي جامعتي اكسفورد وكامبردج في بلاد الانكليز وقد عرفت ان اعضاءها ينتمون الى تنظيم حديث ينتشر في انكلترا انتشاراً سريعاً واساسهُ ان يستسلم المرء للسماء استسلاماً مطلقاً من كل قيد بحيث لا يفكر في غده وان يطهر قلبه من ادران الشرور . وعند اصحاب هذا التنظيم الروحي ان عملهم هو العلاج الشافي من الارتباكات التي تسود العالم اليوم سياسية كانت ام اقتصادية. وقد قلت في نفسي ان الشرق الذي ينفض غبار الهرم عن مساعيهِ الجديدة طافح بعقائد الاستسلام على هذا النمط مما كان هدفاً لحملات رجال الاصلاح الديني في العالم الاسلامي منذ ايام السيد جمال الدين الافغاني الى اليوم ، وكلهم مجمعون على ايقاظ المسلمين وتحذيرهم من الوقوع في براثن التوكل الاعمى . والظاهر ان تعقد هذه الازمات الحاضرة والاخطار التي قد تنشأ عنها والانقلابات الاجتماعية التي قد تتصل بها كل ذلك ادّى بهذه الجماعات الى شيء من الكلل والانهيار العصبي حتى اصبحوا يرون السلامة في عدم المقاومة والفلاح في ترك الكفاح . ويزيد في غرابة هذا الموقف ان يكون مهدُه جامعتي اكسفورد وكامبردج حيث التقاليد الانكليزية التوسعية على اتمها. ولو نصحنا الناهين في الشرق بترك الكفاح وبالاستسلام للقضاء والقدر لاتهمونا بالرجعى وبتسهيل الانتحار

ويحسن بنا الا نمرّ على كلام الاستاذ (بايندر) من غير تعليق وابداء ملاحظة ، فالاستسلام الى الارواح المسيطرة يكون علامة على الهمجية متى كان المستسلم كلاًّ لا يسعى الى شيء وخرافيًّا يعلل الطوارىء والظواهر بفعل هذه الارواح المباشر — فالبرق والرعد والمطر والبركان والموت والحياة والهواء والنور والحرارة كل ذلك في نظره ارواح مستقلة . فمثل هذه النظرة الهمجية تحول دون كل تفكير وارتقاء ، ولكن متى تعددت المسالك وتعقدت الامور وتعذرت الاحكام ووصلت العقول الى منتهى ما تصل اليهِ من السعي والاستقراء والاستنتاج ثم وقف المرء حائراً لا يدري ماذا يعمل — متى بلغت الحال بالساعي المجد هذا المبلغ فلا اخاله همجيًّا اذا هو سار في الطريق التي وقع اختياره عليها اخيراً متوكلاً ومستسلماً . ومثل هذا التوكل والاستسلام الصوفي هو الموقف النهائي الذي لا مفر لنا منهُ في كثير من المدلهمات

لكن الويل ثم الويل للامم التي اذا رأت الخطر المداهم وقفت مكتوفة الايدي كلها غنم تساق الى المسلخ ، فالرضاء هنا هو الموت والقبول هو المذلة

وفي الحق ان الارتقاء يكون في اكثر الاحيان محاطاً بالمغامرات محفوفاً بالاخطار لا يتم من غير اقتحام جزيء للمناطق المجهولة . ومن ظن ان الطريق معبدة الى الذروة فهو جاهل بتسلق الجبال ، ولا يقدم على المخاطرة التي لا مفر منها الا من كان قوياً في عزيمته صادقاً في ارادته . قال (بايندر) «والمستقبل اقتراع صائب وخائب فالجبان لا يغامر فيه . بل هو ينظر اليه بعين بعيدة مرقبية ، وقد يرى هناك نعماً سابغة لكنها سحيقة يحتاج في الوصول اليها الى عناء واما القريبة فقد تكون اقل منها ولكنها قريبة التناول يستطيع ان يضمها الى صدره ضماً محكماً . واستبدال الاشياء الحسنة بالآمال التي هي احسن منها عمل يحتاج الى الرجل القدير كما ان تحويل هذه الآمال الى اشياء حسنة يحتاج الى الرجل المدبر » اه

والمرة — او صفة الاستمرار على الحالة التي وجد عليها الشيء — هي الاصل في الجوامد وعليها يبني الطبيعيون كثيراً من التعليلات المتعلقة بحركة الاجرام وسكونها يعني يفرضون ان الجسم اذا بدأ متحركاً يبقى متحركاً الى الابد واذا بدأ بالعكس ساكناً يبقى كذلك الى الابد على شرط الا تعتوره العوامل المعاكسة . وهنالك مرة حيوية اجتماعية في بعض الاقوام تشبه هذه المرة الجامدة يعنى ان بعض هذه الاقوام قد تبقى على وضعها التقليدية الجامدة التي وجدت عليها لا تنزاح عنها قيد أنملة في وجه التطورات العالمية الكبرى كأنها عائشة على سطح غير هذه السيارة في حين ان غيرها لا يزال في حركة وانقلاب لا يثبت على شكل من الاشكال ولو كان في اشد حاجة الى الراحة واستجماع القوى . وكلا الموقفين من تفريط وافراط يضر بالجماعة ضرراً بالغاً فالجمود من الوجهة الحيوية الاجتماعية معناه الموت والتقلب معناه عدم الاستقرار لتثبيت الصفات المكتسبة — تلك وضعة هرمة اخنى عليها الدهر وهذه وضعة طائشة لا تأتي بخير

واذا اردنا ان نصف الموقف في العالم العربي اجمالاً فهو موقف تفريط وجمود وصفته البارزة هي التمسك بالقديم لقدمه وانقياد الى سنن الآباء والجدود انقياداً اعمى حتى كادت بعض اقطاره تعد من عالم القرون الوسطى . ولا يتهم صقع من اصقاعه بالثورة الاجتماعية كما يفهمها العلم ، وان كان هناك اضطراب سياسي لا شك فيه ، والنفخ في ابواق المحافظة في مثل هذه الحال ليس الا تشجيعاً على اطفاء جذوة الحياة وروح التقدم والقضاء المبرم على فكرة الاصلاح . وما ينفع في روسيا المندفعة قد يكون ضاراً في الحجاز الجامد وما ينفع في الحجاز قد يكون ضاراً في روسيا لان طعام زيد كما يقول الافرنج في امثالهم قد يكون سماً لعمرو . والعلاج الذي ينفعنا في طورنا الحاضر هو من حيث الاساس التجديد لاننا لا نشكو عدم

الاستقرار بل نشكو المرّة الساكنة وليس احد منا مصاباً بالسرعة بل كلنا بطيء . ولا نرى خطأً منطقيًّا مثل الجدل النظري في ايهما اصلح التجديد ام المحافظة من غير التفات الى احوال البلاد التي يتناولها الجدل . وقد نجا الاطباء من هذه السفسطة منذ صار الطب علماً فهم لا يبحثون في فائدة العلاج من غير نظر الى المرض اولاً والى المريض ثانياً والى درجة المرض ثالثاً ، واعطاء المنبهات عند هجوم الحميات مثلاً هو بالاجمال خطأ فادح مثل اعطاء المسكنات في ختامها «فلكل مرض ولكل مريض ولكل درجة مرضية علاج خاص ، وهكذا شأن الامم فانني ناصح امين اذا ما قلت للصين ان تتناول المنبهات وللروسيا ان تجرع المسكنات»

وقد وصف الاستاذ (بايندر) الامم الخالية بقلة الحيلة وفقد الشجاعة الادبية اللازمة وفي نظره أن تدخل مطرقة الارباب في شؤون البشر المادية تدخلاً مستمرًّا جعل الانسان جباناً لا يجرؤ على شيء ومع ذلك فقد حصل الارتقاء وان كان في أول الامر بطيئاً جدًّا . وقال ان الدواعي التي ادت الى هذا الارتقاء ثلاثة ، (الاول) منها ان الانسان كشف مواطن الضعف في هذه الارباب من تناقضها بعضها مع بعض ومن فشل الاخيار الطائعين ونجاح الاشرار العاصين في كثير من الاحوال حتى كاد يتمثل بقول الشاعر العربي

كم عالم عامل اعيت مذاهبهُ وجاهل غافل في الارض مرزوقا
هذا الذي ترك الافهام حائرة وصيرَّ العالم النحرير زنديقا

(الثاني) ان الدين اصبح اكثر رحمة بالناس واقل ضغطاً عليهم . (الثالث) ان الانسان تعلم الاعتماد على النفس في تدبير اموره وعرف صحة مثلنا العربي

ما حكَّ جلدك مثل ظفرك فتولَّ انت جميع امرك

اسباب الاضطراب السياسي في العالم العربي : كان اهل العالم العربي اسياداً في بلادهم ولهم تاريخ حافل بسير الابطال وما فعلوه في ابّان الفتوحات الاولى ، وقد نشأوا وهم لا يعرفون من الدنيا الاّ بيئتهم الخاصة وقد اصيبوا بالشيء الكثير من الغرور فلم يتنزلوا الى الالتفات الى غيرهم من اهل المدنيات التي تحيط بهم، وقد استعزوا بقوتهم حتى ظنوا الآخرين كمية مهملة لا يؤبه لها لذلك لم يماشوا الانقلابات الخطيرة التي استجدت في العالم حولهم ولم يتسلحوا بالسلاح المستكشف على انواعه ماديًّا كان ام معنويًّا لانهم اكتفوا بالتأييد الازلي الذي حسبوه ملازماً لهم كما لازم آباءهم واجدادهم فما عتموا ان صاروا فريسة بيد الاطماع الاستعمارية وهدفاً للبسطة الاجنبية . الاّ ان المدنية التي ازدانت بها بلدانهم في القرون الوسطى تركت في ذاكرتهم أثراً جليًّا من عزة النفس حال حتى الآن دون اندثارهم ، والسلطان الذي تمتع بهِ جدودهم احقاباً متعاقبة جعل الحرية هدفاً اسمى نصب عيونهم ، وولدت اعمال الابطال العرب فيهم فخراً كما يفخر الفرنسوي بنابوليونه ، لكن هذه الانطباعات النفسانية لم تظهر على اتمها الاّ في النشء الحديث ممن تربى

على الطريقة الغربية ونال قسطاً من الانتباه القومي الحاضر ، فلما صاح صيحته العالية وجد في سواد الناس مستمعين متحفزين فدبت في المجتمع العربي روح جديدة . ولا نكون قد وفينا هذا الموضوع حقه اذا نحن لم نشر الى الاثر البليغ الذي تركته مدارس الاستانة في شباب العرب لأن الترك كانوا قد سبقونا الى تفهم النهضة السياسية الحاضرة والاحاطة بمعنى الجامعة القومية فاحتكاك شبابنا بهم ولد في نفوسهم غيرة على القومية العربية وحرمة للتقاليد المتوارثة . لا جرم ان خريجي جامعة الاستانة من ابناء العرب كانوا السابقين في هذا المضمار. فكانوا يعودون من العاصمة العثمانية وفي نفوسهم ما فيها من الحماسة المشتعلة للنهضة العربية

وقصارى القول ان سبب الاضطراب السياسي الحاضر في العالم العربي هو العلم — والأصح هو العلم بالشؤون العامة الحاضرة ، فلو لبثنا على الخمول والاكتفاء بمجد الآباء والجدود التاريخي وحافظنا على طريقة الكتاتيب التي كانت منهل التعليم عندنا وتجنبنا الاختلاط والسياحة والاطلاع على مدنيات الامم الاخرى لبقينا راضين بما قسم لنا . اما وقد انجلت منا الاذهان وتنبهت المشاعر وتمثلت امامنا عظمة تاريخنا فلا بدع ان نبدأ حياتنا من جديد — ان نبدأ حيث ابتدأت الامم الحية اي بقلة القناعة وعدم الرضا ، ومن كان هذا حاله كان طلبه للعلاج امراً طبيعيًا . كان المتأخرون من أسلافنا يجهلون ما في طاقتهم من القوة على العمل لانقاذ موقفهم وما في ارادتهم من العزم لتذليل الصعاب واما نحن فاقل ما يقال فينا أننا خلصنا من هذا الجهل المطبق اذ أخذنا نشعر بما في مجتمعنا من القوة الكامنة المادية والمعنوية وعرفنا ان فكرة الجبر التي كانت مستولية على هذا السلف هي فكرة بالية تليق بالاقوام الابتدائية وان مصيرنا مربوط بعزمنا ، بيد اننا ويا للأسف عند ما جربنا مساعينا رأيناها تذهب سدى لوجود اليد الغاصبة فوق رؤوسنا واستيلائها على مرافق حياتنا ، وما فتئت هذه اليد تحوّل هذه المساعي لمصلحتها المادية حتى انها تحمّل مدننا وقرانا الغرامات الباهظة كلما حاولنا ان نزيح كابوسها عن صدورنا فكأننا والحالة هذه عالقون بمصيدة فاذا ما حاولنا الخلاص ازددنا وقوعاً في التهلكة

واذا حللنا عللنا تحليلاً دقيقاً وأرجعناها الى علة كبرى شاملة وجدنا هذه العلة تنطبق على العلة الكبرى التي يشكوها المجتمع الاوربي ايضاً . فسواد الشعب هناك امسى على عقلية تختلف كل الاختلاف عن عقلية المتأخرين من سلفه وايقن ان الواجب ان تكون لمساعيه علاقة وثيقة بالحالة التي يتطلبها ولكنه هو مثل سواد الشعب عندنا خاضع لاوضاع بالية قد نشأت عن احوال تغيرت فلم تعد تلك الاوضاع مناسبة للظروف التي هو عليها. لاجرم ان مساعيه ايضاً اما ان تذهب سدى كصيحة في واد أو ان تظهر بشكل انقلابات سياسية واضطرابات اقتصادية خطيرة. وما لم تكن الاوضاع على تناسب مع الذهنية العامة وعلى ائتلاف

مع المساعي المشتركة فالسلام المنشود بعيد الاحتمال . وعلى كل حال فالتغيير العظيم الذي رسخ في ذهنية الاقطار العربية النابهة هو ان اصلاح نفسها بيدها وان الارتقاء الغائي المتحرك القائم على ارادة الشعب هو الارتقاء الذي ينقذها من محنتها العارضة لا الارتقاء الخلقي الجامد المبني على التجربة الطبيعية العمياء البطيئة

ولا جدال في ان قضايا الغرب هي غير قضايا الشرق اجمالاً وما يشكوه الغربيون من الشكوى قد لايكون له الا أثر ضئيل بيننا . فقضية الاشتراكية والشيوعية في اوربا هي قضية كبرى تنازع الرأسمالية وتصادمها صداماً عنيفاً وتهدد كيان النظم الاقتصادية والنظم الاجتماعية وهي لا تتولد عادة الا في الاوساط الصناعية الحافلة بالعمال . اما صناعتنا فلا تزال في بدء تكونها والعمال فينا لا يؤلفون تلك الطبقة المريعة الموجودة في وسط اوربا مثلاً . لذلك لم تجد الشيوعية في الشرق اجمالاً ارضاً خصبة مع كل تلك الجهود العظيمة التي صرفتها ولا تزال تصرفها حكومة السوفيت الروسية

وأولى قضايانا — وهي اهمها على التحقيق — قضية تحرير بلادنا من ايدي الاجنبي حتى لاتذهب مساعينا سدى وحتى لاتتنافر ذهنيتنا مع الاوضاع التي نحن عليها ، فنظرة سطحية الى الخريطة تدل على ان جل الاقطار العربية تحت النير الاجنبي اما بالحماية او بالاحتلال او بالالحاق المباشر . ومن حسن الحظ — وقد يكون في بعض الاحوال من سوئه — ان الخطر الناتج عن زوال الاستقلال هو خطر بديهي الى حد انهُ طغى على سائر الاخطار حتى اصبحت البلدان العربية لا تفكر إلاّ في حريتها ولا تهدس إلاّ في استقلالها مما صرف نظرها إلى درجة بعيدة عن حاجاتها الاجتماعية الاخرى وجعل فكرة الاستقلال فيها شبيهة بما يسمى في علم النفس بالفكرة الثابتة او بالهوى . على ان ارتقاء الفكر من ناحية واحدة وطلب الاصلاح من جهة واحدة مع اغفال الجهات الاخرى هو عمل في نظر العلم اعرج لا يؤدي الى نتيجة ثابتة. فنحن مع حاجتنا القصوى الى الحرية نحتاج كذلك الى اصلاحات اجتماعية من الطراز الاول ، لاننا نعتقد ان الحرية من غير هذه الاصلاحات مهددة بالخطر . وليس التنازع بين الشعوب مقتصراً على ناحية واحدة من نواحي الحياة بل هو صراع عام شامل يتناول المجتمع من جميع نواحيه المادية والمعنوية . فلا غرو اننا في جهادنا مضطرون الى اصلاحات جمة تتعلق بالاسرة والدين والاخلاق والوطنية والحكومة والعلم والاقتصاد وغير ذلك من الشؤون الحيوية مما يتطلب بحوثاً خاصة سنعرض لها في هذه الفصول . وكنا نود ان يكون تأثير انتباهنا السياسي الوطني في هذه الموضوعات الاجتماعية الخطيرة اكثر عملاً واشد نفوذاً ، ولكن جهودنا السياسية ويا للأسف تستنزف معظم قوانا .

المرأة والرجل

اطلق الغربيون كلمة « سكس » — Sex — على الخصائص التي تميز كلاً من الذكر والانثى في الاعضاء والوظائف والوجهات النفسية ، وهذه كلمة مشتقة من فعل (سكار) اللاتيني ومعناه « قطع » اشارة الى ان المرأة مقطوعة من ضلع الرجل . وهم يعالجون قضايا الرجل والمرأة تحت عنوانها وقد احسنوا في ذلك لانها تشير الى الجنسين في آن واحد. وخير كلمة تترجم بها الى العربية كلمة « شق » ومعناها في معاجم اللغة « الجانب الواحد من الانسان » ومنها الشقيق بمعنى الاخ كأنهُ شق نسبه أو جسمه من اخيهِ . وذهب بعض الفضلاء الى أن الكلمة الافرنجية مأخوذة من العربية لفظاً ومعنىً . وفي وسعنا ان نفسر « الشق » أو الخصائص التي تميز الذكورة والانوثة من وجهة علم الحياة بقولنا ان التلقيح — أي اتحاد بيضتي فردين مختلفين ذكر وأنثى — هو عمل كبير الشأن في تخليد معظم الاحياء لا جرم ان يكون تمسك الطبيعة بهِ هو السبب الذي أدى الى التفريق بين الذكر والانثى والاحتفاظ بميزات كل منهما وفقاً لما تتطلبهُ الحياة من البقاء او الاستمرار . والتلقيح هو الطريقة التي يتم بها التوالد في الحيوانات اجمالاً فتكون اعضاء التناسل اما في حيوان واحد كما هو الحال في بعض الديدان او تكون في حيوانين مختلفين من ذكر وانثى كما هو الحال في معظم الحيوانات العليا، وطريقة التلقيح هذه تدعى في كتب الحياة « الطريقة الشقية » في حين تتوالد معظم الحيوانات الدنيا كذات الخلية الواحدة بطريقة غير شقية ليس فيها ذكر ولا أنثى بل بمجرد انقسام الحيوان الواحد الى نصفين مثلاً بحيث يصبح كلٌ منهما فرداً مستقلاً

ولم ينل موضوع الشق في البشر حقه من العناية الاّ في ابحاث المتأخرين لان المتقدمين وجّهوا جل عنايتهم للرجل وجعلوا المرأة ذيلاً له ، وقد تساوى في هذا الاهمال اهل الشرق والغرب معاً وربما كان الشرقيون (على خلاف الشائع) اقرب الى الانصاف، الاّ ان هذا الافراط في شأن الرجل اخذ يعقبه تفريط الى درجة بعيدة ، حتى ان بعض علماء الحياة ممن

عالجوا قضية التلقيح الاصطناعي في كثير من الحيوانات قال ان الذكر من الوجهة الفنية يكاد يكون فضلة يجوز الاستغناء عنها . بيد اننا اذا تركنا التطرف جانباً فلم نقع في اهمال المتقدمين ولا حفلنا بسفسطة الحيويين المتأخرين ونظرنا الى الذكر والانثى جزئين يتم الواحد منهما الآخر — وهذا هو المعنى المقصود من كلمة الشق — كانت معالجتنا لهذا الموضوع الاجتماعي الخطير متمشية مع العلم الصحيح وبعيدةً عن الاغراض والانفعالات. وتزداد حاجتنا الى الاسترشاد بنور العلم بسبب ما ابتلينا بهِ من طغمات المتعصبين ممن استمرأوا الحملة على الشرق وعاداته في الزواج فأدخلوا في الاذهان بعض الآراء العتيقة العنيفة التي تحول دون تفهم الحقيقة مع أن هذا الشرق النابه هو أحوج البلدان في نهضتهِ الحاضرة الى بناء اصلاحه على الاسس الثابتة التي لا دخل للاوهام فيها

تعقد الموضوع وصعوبة الحل

ولا ادل على خطإٍ المتسرعين في وضع القواعد العامة من النظر الى الموقف الحاضر في امر الزواج وبناء الاسرة وتشعب الآراء والتطبيقات فيها. فقد اخذت ورقاً وقلماً وجهزت قوائم متعددة بعضها بأسماء اهلي وأصحابي وجيراني وهم ممن عرفتهم من المسلمين وبعضها الآخر بأمثالهم من المسيحيين واليهود وغيرهم من اهل الاديان الاخرى . ووضعت بجانب كل اسم ما يدل على سعادة زواج صاحبه او شقائهِ وهل الطلاق يحل الاشكال أو يزيد في الارتباك وغير ذلك من الملاحظات ومنها ما يتعلق بالضر والتسري والمتعة واتخاذ الخلائل على الطريقة الاوربية فلم تكن النتيجة بجانب قائمة من تلك القوائم اجمالاً ، حتى ان الاستشهاد ببعض الاساتذة من المبشرين ممن ملأوا الدنيا تشهيراً بوضع الزواج في الشرق لا يغير النتيجة كثيراً

والى القارىء بعض الامثلة التي اخذتها لانني عرفتها بنفسي أو سعيت في اصلاحها :

فقد حدث ان كاتباً في محلٍ تجاري معروفٍ في البرازيل استولى على قلب ابنة صاحب هذا المحل وهي فتاة اديبة سليمة في نحو العشرين من العمر فمازال يستهويها بالزخارف ويستميلها بالتزويق حتى قبلته بعلاً لها فكان الزفاف وكان شهر العسل ثم كانت العودة بالعروس الى الوطن ومعها البائنة التي تزوج بها من اجلها فلما صار في بلده وبين اهله قلب لها ظهر المجن وحولَ الزخارف الى مكاره والتزويق الى منغصات مما انتهى بفرار العروس الى خارج القطر السوري وهي من زينتها وحليها بجلدها فقط وها هي اليوم تحرق الارم على ما فرط منها وتطلب الخلاص ولا خلاص

اما الحوادث التي تكون فيها المرأة هي المزخرفة والمزوقة على عكس المثال المتقدم الى ان يتم العرس وينتهي شهر العسل قبل ان تكشر عن نابها فاكثر من ان تحصى. واحصاء سطحي

في الحيّ وبين الاهل والعشيرة فيه المقنع الكافي. ولاشك في ان مثل هذا الزواج المتنافر حمل طائفة كبيرة من الدول المسيحية حتى العريقة في البروتستنتية منها كالدولة الاميركية على اباحة الطلاق والخروج عن قاعدة « فالذي جمعه الله لا يفرقه انسان »

اما المثال الآتي فيتطلب خطة غير الخطة المتقدمة . فقد حدث ان سيدة تزوّجت برجل طاعن في السن فأقام معها على اتم وفاق عشرين سنة كاملة كانت له في خلالها حارساً اميناً وقريناً صادقاً الى ان اقعدته الشيخوخة واضعفت مداركه الايام فطمع اهله في اقصائها عنه ليستقلوا بثروته دونها فما كان من بناته من زوجته السابقة واولادهن الا ان تألبوا عليه فعقدوا حوله مجلساً مصطنعاً من موظفين شرعيين وعلى رأسهم مفتي الديار الشامية وهنالك بشيء من الاستفزاز والاغواء حملوه على طلاقها ، فلا الزوج المقعد المسكين كان راضياً بهذا الفراق وهو في شيخوخته ولا الزوجة التي كانت في زيارة اهلها حيث فوجئت في مساء العيد بهذا النبأ المجرم . وغني عن البيان انه لولا سهولة الطلاق ما حدث مثل هذا الفعل المنكر

واعرف رجلاً من بيت مشهور في مدينة سورية كبيرة وهو الآن في نحو العقد السادس من العمر قد تزوج باكثر من خمسين امرأة ثيبات وابكاراً فكانت عادته ان يبث العيون والارصاد لاستكشاف زوجة من البيوت المتوسطة او الفقيرة ليصرف معها ردحاً من الزمن فاذا قضى منها لبانته طلقها ونقدها متأخرها بعد ما نقدها الصداق المقدم المتفق عليه. وقد قصّ عليّ كيف كان يحصل على التقارير التي تهمه في هذا الشأن فانهُ كان يستأجر نساء اخصائيات في فحص الابدان كما يفحص القصّاب الغنم السمينة فينتشرن في الاحياء ويدخلن البيوت خاطبات حتى اذا رأين من اعجبتهن بهيئتها وطولها وعرضها قمن اليها فكشفن عن عنقها وصدرها وساقها الى اخمص قدمها ثم رفعن اليه التقرير عنها شفهيّاً فاذا صادفت هذه الصورة هوى من نفسه عقد وبنى ثم طلق ليعقد من جديد من غير توان كأنه آلة ميكانيكية

ومما هو جدير بالالتفات ان تلك المدينة وقد اظهرت عناية كبيرة بالشؤون الدينية واقامت الارض واقعدتها لكل حادثة لم تطمئن اليها نفسها لم نسمع لها صوتاً واحداً بالاحتجاج على هذا الانحراف مما يدل على ان الذين يعنون بالشؤون الشرعية في تلك الاصقاع لم يجدوا شيئاً من الشذوذ في عمل هذا الرجل المطلاق « المزواج » الذي سخر بنات الناس لارادته واستثمر ماله فيهن ربا فاحش جداً

ان مثل هذه الحوادث التي تتكرر بين سمعنا وبصرنا كل يوم تتطلب من المصلح الاجتماعي ان يعالج هذا الموضوع الخطير بالروح العلمية النزيهة خصوصاً من بعد ما انتشرت الآراء الشيوعية المتطرفة واصبحت بعض البلدان كبلدان الاتحاد السوفيتي الروسية شبيهة بالاباحية لولا بقية عادات دينية وتقاليد متوارثة لا تزال تجاهد جهاد الجبابرة في الدفاع عن الاسرة المهدّدة

الروابط الاجتماعية الاولى في الاعصر الخالية

نريد بالاعصر الخالية تلك الايام السحيقة التي سبقت عصر التاريخ اذ كان الانسان على حالة من الهمجية هي اقرب الى حالة القردة منها الى حالة البشر . وقد اختلفت انظار الباحثين على البواعث التي ادّت بالافراد الى اجتماعهم عُصَباً كطوائف القردة تجوب الغابات وكيف تحولت هذه العصب بالتدريج حتى صارت جماهير منظمة . ولكن هناك شبه اتفاق على ان من اوائل هذه البواعث واهمها الباعث الشقي الطبيعي بين الذكر والانثى ولذة المصاحبة الناشئة عنهُ ثم مايحدث بسبب الاقتران فالحمل فالولادة من التآلف بين الام واولادها وما يتخلل ذلك من حنان وعطف وتعاون . لا جرم ان تكون الاسس « العائلية » والحالة هذه سبب الاجتماع الابتدائي الذي تحول فصار اجتماعاً عترياً — نسبة الى عترة الرجل وهي ولد الرجل وذريته — ثم قبلياً وانتهى بشكله المدني الحاضر وحمل كثيراً من الكتاب المتقدمين امثال ابن خلدون على القول ان الانسان مدني بالطبع

الاسرة الاولى باعتبارها وحدة اجتماعية

مهما تغير التنظيم الاجتماعي وتبدل بناؤه فالاسرة لا تزال وحدة ثابتة حتى في البلاد المهددة بالبلشفة ، وهي اصغر انضمام اجتماعي واقواه وقد بقيت الى اجل قريب مصدر الثروة في المجتمع واداة توزيعها واستهلاكها . ونحن في الاسرة كما قال « الموجز في علم الاجتماع » نتعلم ابلغ الدروس الاجتماعية العملية فنمارس فيها حقوقنا الشخصية وننشأ على قاعدة التملك التي تحاربها الاشتراكية المتطرفة ونتعلم كبح جماح النفس وحسن السلوك والانقياد والخدمة والمعروف والواجبات المتبادلة . وفي الاسرة نرى بوادر الدين والاخلاق والتهذيب وكل منا مطبوع بطابعها الدائم

ولئن كان من المستحيل تعيين شكل الاسرة الاولى بالنص وذلك لان التنظيم «العائلي» امر سابق للتاريخ فليس من المستحيل الوصول الى هذا الشكل بالظن والتخمين والقياس . وعلينا بادىء ذي بدء ان نذكر في تعليل وظيفة الاسرة الاساس الآتي دائماً وهو ان تعاون الوالدين على تربية الاولاد أمرٌ ذو قيمة حيوية كبرى في بقاء الجنس . وهذا وحده كاف من الوجهة الطبيعية للاحتفاظ بهذا التعاون وعض النواجذ عليهِ لان الطبيعة حريصة على كل ما من شأنهِ بقاء الاحياء.

اماطة اللثام عن الاسرة الاولى

يرجع الفضل الاكبر الى مباحث العلاّمة (جي . جي اتكنسن) في اماطة اللثام عن حالة

الاسرة الاولى وذلك فيما كتبه بعنوان «الاصول الاجتماعية والسنة الاولى»[1] وتعد آراؤه في المقام الاول وان دخل عليها شيء من التعديل لم يغير جوهرها

وقد بدأ (اتكنسن) اساس نظريته بما هو معروف في المجتمع الانساني عامة من تحريم الزواج بين المحارم كالاخ والاخت اولاً ثم بما هو منتشر من عادة خطف النساء ثانياً وهي عادة لا تزال آثارها ماثلة في كثير من المجتمعات البشرية . فقال ان العصبة الاجتماعية الاولى كانت شبيهة بالسرب الاجتماعي عند القردة في الوقت الحاضر — يعني ان تلك العصبة كانت كناية عن عترة يقودها ذكر كبير . وكان هذا القائد يطارد جميع الذكور ممن يبلغون سن الادراك في العترة لما يشعر به من مزاحمتهم له ولكنه كان يحتفظ بمعظم الاناث ويستولدهن . ولا يمنع هذا الحال اثنين او ثلاثة ممن طردوا ان يجوبوا الاصقاع متحدين بل ان يصيدوا امرأة قد شردت من عترتها . ومثل هذه الشرذمة المطرودة التي لا قائد لها كثيرة الوقوع في اصناف القردة ولكنها نادرة في العترة البشرية.وتكون الغيرة الملتهبة في الذكر على اناثه والمكان الذي يعيش فيه سبباً كفيلاً بتثبيت الشكل الذي تبنى عليه هذه العصبة الاجتماعية الابتدائية وان شئت هذه الاسرة الاولى وباعادة تنظيمها كلما طرأ عليها خلل ، وهذا النوع من التجمع والانضمام عمل يصلح للمعيشة في الغابات حيث الطعام مبعثر ولا يكفي غير القليل من الافراد. ولا عجب ان يستمر هذا النوع من الانضمام الاجتماعي الشكل النموذجي لقردة الغابات وان انتظم البغام وهو الشمبانزي في بعض الاحيان بشكل اجواق اوسع من ذلك

ولما كان الانسان الاول في تركيبه اقل صلاحاً للمعيشة في الغابات واكثر ميلاً للاطعمة اللحمية واكثر تكيفاً للمعيشة في الاصقاع الصخرية التي تنبت فيها الحشائش والاعشاب وحيث تكون الفواكه والجذور اقل من الفريسة تصطادها الجماعة بالتعاون فهو يستفيد من كل تكيف عقلي او مزاجي يأذن للاسر الاولى بالنمو والانضمام بشكل وحدات اجتماعية اكبر . وقد صار هذا التكيف ممكناً بسبب التفاعل المتولد من بعض الميول الطبيعية الموجودة بين النساء والاحداث من الذكور

وقصارى القول ان الامهات مثل معظم ذوات الثدي تميل الى حضانة الذكر من نسلها ومراعاته كما تميل الى حضانة الانثى ومراعاتها . الا ان الذكر البالغ يكون في فصل الولادة — وجميع فصول السنة هي فصول الولادة في الحيوانات الصدور — قليل التسامح مع من يزاحمه من الذكور وميالاً الى الشدة.ولكي يحفظ الامهات ابناءهن عندهن فهن مضطرات الى ادخال الرهبة في قلب الصغير منهم من الكبير خصوصاً من الشيخ الزعيم في العترة والى تحذير هذا الصغير من التجاوز عن حقوقه واثارة الغيرة في نفسه ، وبالامثلة الحسية والاوامر والنواهي

(١) Social-Origins & Primal Law.

الابتدائية اتخذت الرهبة الطبيعية في قلب الصغير من قوة والده والخوف من غضبهِ شكلاً محدّداً واتجاهاً معيناً، فقد نشأ الصغار على اعتبار ما يمتلكه هذا الشيخ ولاسيما النساء في العترة من المحرمات عليهم وانهم لا يجوز لهم مباشرة بعض الاعمال في حضرته او بالقرب منه. وكان الخوف من الشيخ الكبير «رأس الحكمة». واستمرت هذه الميول الصبيانية الطبيعية في كثير منهم الى سن المراهقة وما بعده فكان الاحداث من الرجال يذعنون للشيوخ وهكذا تعلم الرجال مبادئ كبح جماح النفس وتولدت في المجتمع الخالي فكرة الخطايا ولاسيما خطيئة التزوج بالمحارم. ومن هنا نشأت تلك المشاعر المخنوقة والمستورة بالضغط التي اتخذها علماء النفس اخيراً بارشاد البحاثة النمسوي (سيجموند فرويد) اساساً لنظرية التحليل النفسي[1]

وخلاصتها ان الامراض العصبية المبنية على الخلل في الوظيفة تنشأ عن صدمةٍ شقية في الجهاز التناسلي في غضون الطفولة، ويستطيع الاخصائي بواسطة ماكشفتهُ هذه النظرية من الحقائق ان يحلّل البواعث الخفية والمشاعر المخنوقة التي تسيّر الناس وتتحكم في مجموعتهم العصبية من غير ان يشعروا بها وهذا هو « الوعي المستتر » او « العقل الباطن »

والمجتمع مدين في وجوده الى هذا الكبح لجماح النفس الذي ذكرنا منشأه ومن المتعذر ان نرى امكان حدوثه بطريق آخر. ونحن لانعرف حيواناً من الحيوانات يبدي اقل تردد او اعتراض على الاقتران بالمحارم. واما كون هذا الاعتراض عملاً تقليديًّا متوارثاً لا عملاً غريزيًّا فظاهر كما قال اصحاب كتاب «علم الحياة»[2] الذين اعتمدنا عليهم في نقل هذه الخلاصة من سجلات اية محكمة جنائية في الارياف. وثمت بعض الاجتماعيين المشهورين امثال الدكتور (هوبهوس) ممن يخالفون هذا الرأي ويذهبون الى ان الامتناع عن المحارم هو امتناع غريزي ولكن جميع الدلائل المستقاة من الحقائق الثابتة تدل على ان العادة الموضوعة هي السبب المانع من هذا الاتصال

وهنا نبلغ الخطوة الثانية من تاريخ الاوضاع الانسانية الاساسية. فالشاب وقد نمت قوته ونشطت رغبته يرود حدود المنطقة التي تعيش فيها اسرته أو عترته وهو متململ ساخط فيرى ان هنالك نساء اخرى في العالم غير نساء الشيخ الزعيم وهن لا ينالهن التحريم المذكور فيجري في أثر واحدة منهن ويدركها كلما سنحت له الفرصة

ولنا ان تقول عن هذه المرأة انها لو كانت شاردةً أو فضلةً زائدة في سرب « عائلي » آخر او كانت امرأة في عترةٍ زعيمها ذبح أو اقعده المرض لكان خروجها ايضاً من باب البحث عن الشاب الشارد. ثم اذا فرضنا ان من عادة الشيوخ المتقدمين في السن ان يفتكوا

(١) Freud's Theory of Psychoanalysis.

(٢) The Science of Life, p. 948.

بالاحداث من الذكور لازدادت ارجحية هذه الفضلة الزائدة من النساء . وقد لاحظ (وتز) واخوانه ان (اتكنسن) كتب هذه الآراء الاستنتاجية منذ نحو ربع قرن فلا غرو انهُ مثّل الذكر في حالة الهجوم القاهر على المرأة الشاردة دائماً والعمل على اختطافها لان ستاراً من الحياء كان يومئذ مسدولاً عند الكتاب على رغائب المرأة الغريزية ومشروعاتها الطبيعية. لذلك قد لا تكون ثمة حاجة الى الهجوم اذ يأتي الشاب بالمرأة الغريبة الى بيته في العشيرة أو في اطرافها أو ربما جاءت هي معه امرأةٌ له باختيارها من غير ارغام . وقد تضله في بعض الاحيان الطريق فلا تزال تلهيه حتى توصله الى منازل اهلها — الى حي الرجل الشيخ الذي كانت في حوزته . فلو كانت هي الغريبة وقد قدمت معه الى اهله فن الطبيعي ان تعلق عليه املها وتجعله معتمدها فتكون والحالة هذه قد اختارته برضاها فلا تسلم نفسها للشيخ الزعيم. اما النساء الاخرى في العترة فلا يردنها ضرةً لهن ولا مزاحمة بل يلتزمن جانب الشاب في مقاومة كل تدخل من قبل هذا الشيخ في شأن هذا الكسب اللطيف الذي انضم الى العشيرة. وكنَّ حريصات على اقامة حدّ من التحريم بينها وبينهُ . اما اذا انتقل الشاب الى اهل الشاردة فاقامة حدود من التحريم مقابلة لهذه الحدود تصبح ضرورية

***

هذه خلاصة النظرية التي قال بها (اتكنسن) عن الزواج الخالي وهي نتيجة تفكير عميق من جهة وتطابق للوقائع في الحيوانات العليا وللعادات الانسانية المتعلقة بالمحارم من جهة أخرى . وهي عادات لا توجد نظرية تفسرها خير من هذه النظرية . وفي وسعنا ان نتصور تكرار هذا الشكل من الزواج كما قال اصحاب « علم الحياة » ملايين ملايين المرات في غضون عشرات الالوف من السنين الى ان استقرت عادة « الزواج الخارجي » (exogamy) على مهل وتولدت معها فكرة المحارم في الزواج بين الحماة وصهرها وبين الكنة وحميها — وهذا التحريم فذ في علم الحياة خاص بالانسان وعام في مجتمعه لان سائر الحيوانات تتزاوج من غير ان تقيم حداً من حدود المحارم

لكن هذا الاطلاق عن منع زواج المحرم يحتاج الى شيء من الايضاح لان الناس في القرون الاولى لم يكونوا يأنفون من التزوج بالمحارم من الاقارب اللحّ كما نأنف نحن وخصوصاً ملوكهم فاننا نرى في تاريخ البطالسة في مصر مثلاً ان الواحد منهم كان يتزوج اخته وفي تاريخ الفراعنة ان رعمسيس الثاني فعل ما فعله قورش ملك الفرس فتزوج اثنتين من بناته واما ساماتيخوس الاول فتزوج ابنة واحدة فقط وذكر (وسترمارك)[1] عن بعض السياح ان ملوك

(١) The History of Human Marriage, Vol. II. p. 5

(الانكا) في بلاد (البيرو) في اميركا الجنوبية استنوا سنة واجبة الاتباع وهي ان ولي العهد في المملكة مرغم على التزوج بشقيقته الكبرى . والظاهر ان هذا العمل كان خاصاً بالملوك . وجاء في التوراة ان ابرهيم تزوج ساره اخته لابيهِ [١] وفي الاصحاح الثالث عشر من صموئيل الثاني ان (أمنون) راود اخته (تامار) عن نفسها فقالت له « لا يا اخي لا تذلني » ومما يدل على ان الملوك كانوا يبيحون هذا الطلب قولها فيما بعد « والآن كلّم الملك لانهُ لا يمنعني منك »

وذكر (مالو) في كتابه « آثار جزيرة هاواي» في المحيط الهادي ان خير خليلة لاكبر امير هي لخته الشقيقة . وكان مثل هـذا الزواج يدعى (بيو) اي قوساً للدلالة على الانحناء والتقاء الطرفين فاذا ما اثمر ثمرة من الابناء الصالحين دعي الولد « نيناوبيو » اي اميراً من الطبقة الاولى ويبلغ من التقديس ان كل من دخل عليهِ سجد له تعظيماً واجلالاً

وأباحت الشريعة لليهودي ان يتزوج ابنة اخته وابنة اخيه ولـكنها لم تبح للعمة ان تتزوج ابن اخيها ولا للخالة ابن اختها على ان الشريعة في جرمانيا وفي ولاية نيويورك اباحتهما كليهما . وفيما عدا زواج الخال بابنة اخته والعم بابنة اخيه عند اليهود (وهم يتشاءمون منهُ في الشرق)ومسألة الرضاع عند المسلمين فالاختلاف بينهما بسيط . وهذا نص المحارم في الاسلام:
« ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلاّ ما قد سلف انه كان فاحشةً ومقتاً وساء سبيلا . حرّمت عليكم امهاتكم وبناتكم واخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الاخ وبنات الاخت وامهاتكم اللاتي ارضعنكم واخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهنّ فان لم تكونوا دخلتم بهنّ فلا جناح عليكم وحلائل ابنائكم الذين من اصلابكم وان تجمعوا بين الاختين الاّ ما قد سلف ان الله كان غفوراً رحيما [٢] »

ويدل القسم الاول من هذا النص على تلك العادة المنكرة التي كانت منتشرة في الجاهلية من اباحة تزوج الرجل بامرأة ابيه لانها حسبت من جملة مخلفاته الى ان ابطلها الاسلام ودعاها بحق فحشاً ومقتاً . ومن اغرب ما ذكر عن الحلائل وزواجهن قول (وسترمارك) عن الفلاحين الروسيين ان الوالد منهم وهو حريص جداً على تزويج ابنه صغيراً كي يستعين بامرأة اخرى تساعده في زراعتهِ يضطجع معها اي مع الـكنة الى ان يبلغ ابنه وهو زوجها الشرعي سن الرشد ، وان هذا النوع من الزواج المشترك الى حين بين الوالد وولده لا يزال معمولاً بهِ في سيبيريا [٣]

(١) الاصحاح العشرون من سفر التكوين في التوراة
(٢) سورة النساء الآية الثانية والعشرون
(٣) The History of Human Marriage Vol. III. p. 131

ذكرنا المحارم في الاسلام وهي بالاجمال محارم العرب في الجاهلية إلاّ مسألة امرأة الاب التي اشار اليها الكتاب العزيز، ولاحاجة بنا بعد الاختبارات المستقاة من علم الحياة الى القول ان الاقتصار في الزواج على الحلقات الاهلية القريبة يؤول بالنسل الى الانحلال وهذا هو تعليل قضية المحارم من الوجهة الحيوية اجمالاً فمثل هذه الاختبارات القيمة عرفها الزراع ايضاً اذ لاحظوا الاضرار البليغة التي تصيب بيادرهم من الاقتصار في انتخاب التقاوي على المحصولات الموضعية

هذه هي خلاصة الرأي الشائع عندعلماء الحياة والاجتماع في أصل الاسرة الاولى ونظريتهم في المحارم وخطف النساء فاذا ما تذكرناها ونزعنا من انفسنا الاوهام العالقة بها عن الزواج في سن الصغر ومن روايات العجائز وعنعنات المقلدين وخصوصاً بعض الغربيين الذين جعلوا دأبهم الطعن في الشرق وأوضاعه كان في طاقتنا ان نعالج في المقال الآتي الطلاق والزواج وحرمة الاسرة والدواعي التي تهدد روابطها بالانحلال وغير ذلك بالروح العلمية اللائقة

على ان تسرب الاخبار الكاذبة بواسطة السياح المصدقين والملفقين إلى أوربا لم يخلُ من تأثير قبيح الطبع حتى في ابعد العلماء عن التعصب الديني كما حدث لرودلف بايندر مثلاً وهو أستاذ الاجتماع في أكبر معهد علمي في نيويورك فقد ذكر في كتابه «القضايا الاجتماعية الكبرى» ان العرب والبربر في شمال افريقيا « يقرون الضيف بتقديمهم نساءهم وبناتهم للاضطجاع معه وان من عادة (عرب الحسنية) ان يزوجوا المرأة من نسائهم لمدة اربعة أيام في الاسبوع وان يتركوا لها الحبل على الغارب في الايام الثلاثة الباقية» Major Social Problems, p. 48. ولايجوز لمثل هذه السخافات ان تبقى في كتب العلم والتحقيق في امرها لا يحتاج الى اكثر من زيارة لمضارب البدو على بعد كيلومترات من حواضر الشام والعراق يزورها الكاتب فيرى بعينيه قيمة العِرض في نظر العرب والفرق في ذلك بينهم وبين الافرنج

انواع الزواج.(اولاً) الاقتران الموقت :لقد تكلمنا عن العصبة الاجتماعية الاولى بشكل عترة مؤلفة من الشيخ الزعيم الذي يقودها ومن اهله وذويه من النساء والرجال واوضحنا سلطته على النساء واستقلاله بهن دون هؤلاء الرجال الذين كانوا خاضعين لهُ خضوعاً اعمى نظراً للرهبة المزروعة في قلوبهم منهُ منذ الصغر . بيد اننا نعتقد ان هنالك وحدة اجتماعية اسبق من هذه العترة غالباً وهي اساسها وهذه الوحدة هي نوع من الزواج الابتدائي يدعى «الاقتران الموقت» وهو كما يلوح لنا اقدم وحدة اجتماعية وخلاصته كما هو مطبق الى يومنا هذا عند (المنكوبيين) من سكان جزائر (اندامن) في المحيط الهندي ان الرجل يعلق بالمرأة فيقترن بها لكن مدة اقامته معها لا تتجاوز سن فطام المولود الذي تلده ومن ثم يتركها وشأنها ليقترن بغيرها .وقد

لاحظ السياح شيئاً شبيهاً بهذا الازدواج ولكن الى اجل اطول عند الاستراليين الاصليين وعند الهنود البرازيليين وفي شمال (جريِنلند)

وبديهي ان هذا النوع من الاقتران هو اقرب شيء الى ازدواج الحيوانات المفترسة الكبرى كالاسد مثلاً فالذكر منهُ يصحب اللبوة في فصل النزاء فلا تكون لغيره ويقيم معها الى ان يستطيع الشبل او الاشبال الاعتماد على النفس

وليس من الصعب ان نتخيل سهولة التدرج من هذا الاقتران الموقت عند البشر الى العترة التي اشار اليها (اتكنسن) فالوالد الموقت يصبح بسبب ما ينمو فيهِ من العاطفة الزوجية والابوية وينطبع في نفسه من اعتياد الحياة الاجتماعية المؤتلفة اباً دائماً ثم شيخاً زعيماً في عترة كثيرة الاعضاء . ومتى تمت لهُ هذه الزعامة فمعناها انهُ صار (مُضِراً) اي متعدد الزوجات وذلك لما له من حرية التصرف في نساء العترة

(ثانياً) الزواج الجمهوري : هو زواج وصفه الكابتن (كوك) كما وجده في جزائر (هاواي) لما اكتشفها في سنة ١٧٧٨ وصفاً دقيقاً خلاصته ان يتزوج جوق من الاخوة جوقاً من الاخوات بحيث تكون كل اخت زوجة لكل اخ وكل اخ زوجاً لكل اخت . واسم هذا النوع من الزواج في اصطلاح هاتيك البلاد (بونالوان) وله مثيل يطبق حتى اليوم بين القبائل (التودية) النازلة على آكام (نلجيري) في بلاد الهند . وذكر (احمد شاه) في رحلته الى بلاد (التبت) عن بعض الاهلين هناك ان الرجل الواحد منهم واخويه الاثنين اذا كان لهم زوجات ثلاث بالاشتراك الشيوعي ولم يكن لهم جميعاً ولد يفرحون بهِ فلا يجوز لهم ان يتزوجوا امرأة رابعة للحصول عليهِ ولكنهم يجوز لهم ان يضيفوا الى مجموعهم زوجاً رابعاً للاسعاف فاذا فشل هذا المشروع الاستيلادي فزوج خامس[1] . واشار المستر (هوايت) المندوب البريطاني في (سِكِّمْ) من بلاد التبت ايضاً الى هذا الزواج وطريقة انتساب الاولاد فيهِ الى آبائهم فقال « وفي مثل هذه الحال ينتسب اولاد اكبر الاخوات الزوجات سناً الى اكبر الاخوة الازواج واولاد التي تليها الى الذي يليهِ واولاد الثالثة الى الثالث ، هذا اذا كانت كل واحدة منهن تحمل وتلد ، واما اذا كان منهن من هي عاقر فالاولاد حينئذٍ يوزعون بالاتفاق »

هذا هو الزواج « البونالواني » او الجمهوري ، ويظن بعض الباحثين انهُ بقية الزواج الشيوعي المختلط في ازمان ما قبل التاريخ . ولوحظ ان الاوساط التي يطبق فيها لا يتحلى رجالها بالشجاعة ولا بالكفاءة الحربية . على ان هنالك بعض الحدود للعيلولة دون ما يتبادر الى الذهن انهُ اختلاط طليق كاختلاط الهررة والكلاب فالاباحة فيهِ لا تتجاوز الطائفة التي تمارسهُ الى غيرها من الطوائف الاخرى المجاورة بل تكون محصورة فيها

(1) Four Years in Thibet, by Ahmed Shah, p. 54.

مذهب النشوء وشكل الاسرة : ثم ان اظهار العلاقة النشوئية التدرجية بين العصبة العترية والزواج الجمهوري ليس متعذراً ولكنهُ ليس ضرورياً ويستطيع الباحث ان ينتحل الاسباب التي ادت اليهِ بالطريقة التي تروقهُ ، ولكن ما لنا ولانتحال الاسباب ما دمنا نعلم ان شكل الاسرة متوقف في الاكثر على مقدار التكيف المطلوب منها بمقتضى سنة البقاء . وقد يكون هذا الشكل قائماً من اساسهِ على الحاجة الاقتصادية باوسع معانيها خصوصاً في المجتمع الخالي اذ كان الطعام عزيزاً ووقاية الابدان من صبارّة البرد وحمارّة القيظ بواسطة المسكن والملبس ضئيلة . ولم يكن الانسان قد اهتدى بعد كما قال « الموجز في علم الاجتماع » الى استخدام الآلات واستثمار قوة الطبيعة . وكان التنظيم السياسي لا يزال ابتدائياً ، بل لو كانت بوادر التنظيم الاجتماعي ظاهرة يومئذٍ فالسياسة والدولة بالمعنى المتعارف اليوم لم تكن موجودة ، وكان الدين في معظم الاحيان مجموعة خرافات مبعثرة ليس فيها اثر من الاخلاق . لا جرم ان شكل الاسرة في مثل هاتيك الاحوال كان متوقفاً على تكيفها بحسب المقتضيات التي تقتضيها سنة البقاء ومتعلقاً بالاحوال الاقتصادية وبالعادات والتقاليد المتوارثة . وهذا كله يعني ان هذا الشكل كان نتيجة القوى الطبيعية العمياء[1]. وعلاوة على ذلك فلا يعني النشوء ارتقاء مضطرداً بل كما يحدث في السيول والانهار تراجع المياه على الجوانب الى الوراء في حين يكون التيار في الوسط مندفعاً الى الامام كذلك النشوء قد يصاحبه تراجع موضعي وان كان التيار العام مندفعاً الى الامام . فلا حاجة بنا والحالة هذه الى التقيد بالتسلسل وجعل التفاضل في اشكال الزواج قائماً على ان الشكل اللاحق هو بالضرورة الشكل الارقى

(ثالثاً) الضَمْد[2] او الزواج المتعدد الازواج: وهو تنظيم اجتماعي تبنى فيهِ الاسرة على اساس زوجة واحدة لازواج متعددين. ويظن انهُ تدرج من الاختلاط الشيوعي الطليق حدث من تناقص النساء بسبب السبي في الحروب وبقلة الطعام. ولاحظه السياح في كثير من انحاءِ الارض بين القبائل التي انتقلت من الهمجية الى البربرية خصوصاً من كان منها خائر العزيمة او مصاباً بالفقر المدقع . وقد وصفه الذين امّوا بلاد التبت والهند احسن وصف ، وهو على نوعين النوع الهندي ويدعى « ناير » نسبة الى جماعة بهذا الاسم يقيمون على شطوط (مالابار) في جنوب الهند حيث تكون المرأة حرة طليقة لها ان تعقد اواصر الزواج باي رجل كفء لها خارج القبيلة التي تعيش فيها او البطن الذي تنتسب اليه ، يعني انهُ يسوغ لها ان تقترن بازواج عديدين

(1) Outline of Sociology, p. 123

(٢) في كتاب المخصص لابن سيدة ان الضمد هو ان يكون لامرأة خليلان ومنه قول الشاعر

يريدين كيما تضمديني وخالداً وهل يجمع السيفان ويحك في غمد ؟

وقد استعملنا الضمد هنا بمعنى الزواج المتعدد الازواج

في وقت واحد من غيران يكونوا اخوة ، اما الاولاد فيتبعون اخوالهم او البطن الذي تنتسب اليهِ امهم وينتقل الارث بطريق المرأة فقط . وأما النوع الثاني فهوالنبتي والواجب أن يكون الازواج فيهِ اخوة . وذكر الاستاذ (جدنجز) ان هذا النوع من الزواج معروف عند السابوروجيين من القوزاق في روسيا، وانهُ كان منتشراً بين الارلنديين والبكتيين على التحقيق. ونقل عن البحاثة (مكلنان) ان هذا الزواج كان شائعاً كذلك بين جميع الاقوام السامية والحامية وذكر (سترابو) في جغرافيته في الفصل السادس عشر انّ سُنَّة تعدد الازواج كانت منتشرة في زمانه في بلاد « العربية السعيدة » وهي بلاد اليمن « فكان جميع الاهل من ذوي القربى مشتركين في املاكهم اشتراكاً شيوعيًّا ، واكبرهم سنًّا ارفعهم مقاماً ، وهم جميعاً يتمتعون بزوجة واحدة فمن جاء منهم اولاً حظي اولاً ، والرجل الذي يدخل عليها يترك على الباب العصا التي يحملها كل واحد منهم عادة ، الاّ انها تقضي الليلة مع الرجل الاسن » . ويظن (جلازر) و (ونكلر) انهما عثرا في الخطوط السبأية على ما يؤيد ذلك

وفي صحيح البخاري انه كان من عادة العرب في الجاهلية ان ينكح عدد من الرجال زوجة واحدة وان هذه الزوجة تعين للولد الذي تلده اباه . وذكر البخاري ايضاً نوعاً من الزواج اطلق عليهِ اسم « نكاح الاستبضاع » يعني ان يعرض الرجل زوجته على شخص شريف ليستولد من صلبه ولداً شريفاً . لكن (ثيودور نولدكه) المستشرق الالماني المشهور يشك في صحة الاحكام التي يصدرها الفقهاء على عادات الجاهلية ويرى في عادة تعدد الازواج في وسط الجزيرة العربية نوعاً من البغاء لازواجاً مشروعاً[١]

(رابعاً) الزواج المتعدد الزوجات او « الضِرْ » — الضر في معاجم اللغة هو تزوج المرأة على ضَرَّةٍ ، وقد اطلقناه هنا على الزواج المتعدد الزوجات في مقابل الضمد او الزواج المتعدد الازواج ، واذا كانت ضَرَّةُ المرأة بالتأنيث هي امرأة زوجها فلم لا يطلق علماء الاجتماع عندنا « ضَرْ » الرجل بالتذكير على الزميل الآخر في الزواج المتعدد الازواج ؟

ومن عادة الضِرّ ان تكون الضرائر فيه اما على مرتبة واحدة او تكون ثمة زوجة كبرى واحدة لها المقام الاول ويتبعها ضرائر اقل منها مقاماً وربما كنَّ من نوع السراري والاماء . ويظن بعض الباحثين ان هذا النوع من الزواج نشأ هو وتعدد الازواج في آن واحد، لان النساء التي كانت تسرق او تؤسر من القبيلة الواحدة فتنقص عدد الاناث فيها تصبح ضرائر في القبيلة الغالبة بما تحدثه من الزيادة في اناثها . ويدل الضرْ على تغير في الاوضاع الاجتماعية الاولى والانتقال من الشيوعية الهمجية الخالية الى عصر التملك الخاص ونظام التخصص والطبقات الاجتماعية ، فالزوجات كانت تحسب في القديم كما تحسب اليوم في كثير من الاوساط الابتدائية

(١) The History of Human Marriage, vol III p. 154

متاعاً وكسباً . لا جرم انها تباع بيع السلع فيشتريها ويكثر من اقتنائها اما الاقوياء بأموالهم او الاقوياء بأبدانهم او بسلاحهم وهم الطبقة الجندية

والأمة التي تباع اليوم في اسواق النخاسة هي من بقايا هذه النظرية الخالية . والضر منتشر في انحاء الارض وهو مباح عند المسلمين الاّ في تركيا الحديثة ومطبق من غير ان يكون مشروعاً كما يقول (وسترمارك) في اوربا واميركا وقد بقي في اليابان باعتباره نوعاً من الزواج الموقت حتى السنين الاخيرة

ومع ان فكرة الزواج في الشرق ولا سيما في العالم الاسلامي قد تغيرت تغيراً كلياً عما كانت عليه في القرون الوسطى فان حال المرأة في بعض الاوساط العربية تدعو الى الانتباه والتفكير العميق وتتطلب تعاون الرجال المسؤولين جميعاً . فقد اجمع الرواة على ان الجارية — ولو كانت بيضاء من لب بلاد القفقاس — تباع في اسواق اقدس بقعة بيع السلع فينزل الطالب الى السوق ليشتري مقعداً وحلة وخزانة وامرأة ! ولا يكون في تقليبه جاريته اقل عناية منه في تقليبه حلته فيفحص هذه المرأة فحصاً مادياً دقيقاً بوسائط الحواس الخمس وقد يعرض عليه النخاس ان يجرب الجارية بضعة ايام ! كما يعرض عليه النجار ان يجرب المقعد والخزانة ، فاذا وجدها صالحة فبها ونعمت والاّ اعادها ليجربها رجل آخر، ولا يشعر احد من المسؤولين وغير المسؤولين بمس كرامة احد في هذا العمل الذي يليق بعصر الانسان النيندرثالي

ومع ان الاسرة في الطبقة المختارة في بعض هذا العالم العربي الشاسع قد تكون اهلاً للاحتذاء والايتام حتى في ارقى الاوساط المدنية الغربية فما لا ريب فيه ايضاً انها قد تكون — في غير ذلك من الطبقات — على غرار العترة الخالية التي جعلها (اتكنسن) اساس نظريته في الزواج وتأليف الاسرة . حدثنا الرواة الصادقون ان كبيراً من كبراء العرب افتخر امامهم بثلاث خصال يتحلى بها (الاولى) انه اعرف الناس بطبائع البدو (الثانية) انهُ اشغف الناس بالطيب اذ يصرف عليه مسانهة ما لا يقال عن اثني عشر الف جنيه (الثالثة) انهُ اكثر الناس زواجاً فقد بنى على مائة وست وثلاثين عذراء بكراً ودخل على الف ثيّب !

وبديهي ان مثل هذه الطلاقة في الزواج تفسح المجال لكتاب الفرنجة وللمطاعن التي يصوبونها الى صميم الاسرة الاسلامية . وانني لأخشى كثيراً ان تسرب مثل هذه الاخبار الوثيقة الى الاوساط العلمية حمل بحاثة مثل (هربرت سبنسر) واستاذاً مثل (رودلف بايندر) على اتخاذ حرية الزواج عند البدو شاهداً على ما يدعى « استرخاء في العلائق الشقية » كما هو الحال عند قوم يدعون (المونتريين) « فهم يتزوجون على غير معرفة ، ويطلقون لاسباب تافهة ، وقد يتزوج الرجل منهم اربعين او خمسين مرة »(١)

(١) H. Spencer, Principles of Sociology, vol. I pp. 641 & 680

ومع ان موضوعاً علمياً مثل هذا الموضوع لا شأن له في المجادلات الدينية الا ان كاتبه لايحجم عن التعرض للتهم الشنعاء التي يلصقها بالاسلام جيش من ادعياء الدين الذين اتخذوا التعصب سلماً لتحقيق مصالحهم المادية الحقيرة بطريق الطعن، وشأن هؤلاء شأن السفهاء في الاحزاب السياسية ممن دنسوا سمعة احزابهم بما استعملوه من هجر الكلام والتهجم على عظماء الرجال وقادة الافكار

واذا صح ان الاصلاح الحقيقي في المجتمع البشري لا يتم الا تدريجاً وان الحكم على المصلح العظيم انما يبنى على مقدار الحدث الذي يحدثه في المحيط الذي يعيش فيه فلا مفر حتى لألد الخصوم من الاعتراف بأن صاحب الشريعة الاسلامية رفع مستوى المرأة عما كانت عليه. واليك حجته التي يدلي بها في محكمة التاريخ :

لقد كانت البنت في العصر الذي نشأ فيه توأد او تدفن في التراب حية للخلاص من عارها والفرار من اعالتها فنزلت في القرآن آية قطعت دابر هذه العادة الهمجية ومسحتها مسحاً وهذا نصها (واذا بشر احدهم بالانثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم، يتوارى من القوم من سوء ما بشر به ايمسكه على هون ام يدسه في التراب، ألا ساء ما يحكمون، للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ، ولله المثل الاعلى وهو العزيز الحكيم » [١]

وكانت المرأة في العصر الذي عاش فيه تعد متاعاً يورثه الميت لابنائه كما يورثهم الابسطة والقدور وسائر انواع الماعون بحيث كان يحق للابن ان يتزوج امرأة ابيه من بعده فنزلت الآية « ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء الا ما قد سلف انه كان فاحشة ومقتاً وساء سبيلا» [٢]. وكان انبياء الكتاب المقدس ممن سبقوه يتمتعون بزواج لا حد له ويباح لهم من التسري ما شاءوا ، والذي يزيد في المنكر ان الرجل منهم اذا تسرى كان يحق له — بخلاف الاسلام واعتداده بعصمة الاطفال وبراءتهم — ان ينكر الاولاد الذين يولدون من هذا السبيل وان يعامل الزوجة معاملة العبدة الرقيقة (راجع سفر التكوين الاصحاحين الحادي والعشرين والخامس والعشرين وفيهما كيف صرف ابراهيم هاجر المصرية وابنه منها وكيف ابعد عن اسحق ابناء السراري التي كانت له) . وقد نص الكتاب المقدس على ان نبياً عظيماً وهو مضرب الامثال في الحكمة — سليمان الحكيم — كان له سبعمائة زوجة وثلاثمائة سرية» فأين هذا من تعدد الزوجات في الاسلام والحد الموضوع له والشروط المطلوبة فيه . فقد نزلت آية تعدد الزوجات في مناسبات خاصة لا تفسر الا بها لان المغازي كانت قد افنت الرجال وتركت النساء ايامى والاطفال يتامى مما أدى الى ضيق المعيشة وشعور الزعماء بالتبعة الناشئة عن تلك المغازي فنزل النص في الآية الثالثة من سورة النساء «وان خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فان خفتم ألا تعدلوا فواحدة او ما ملكت ايمانكم ذلك ادنى ألا تعولوا »

(١) القرآن ، سورة النحل الآية ٥٨ وما بعدها (٢) سورة النساء الآية ٢٢

ولم يكن للمرأة في الجاهلية من الحقوق مايذكر بل انها لم يكن لها الحق في ميراث ابيها وزوجها وقد اعطاها القرآن من الحقوق ما لم تحصل على مثله المرأة في اوربا الا في الاجيال الاخيرة . وكتب الفقه طافحة بحقها في الميراث ، وادارة المال ، والنظر والوصاية وغير ذلك من الشؤون المهمة ، واحسن رد على من زعم من نافخي ابواق التعصب ان الاسلام ينكر على المرأة روحها الآية السابعة والستون من سورة النحل وهي «من عمل صالحاً من ذكر او انثى وهو مؤمن فلنحيينّهُ حياة طيبة ولنجزينّهم اجرهم بأحسن ما كانوا يعملون» . وحسب الاسلام ان يعتبر الزواج عقداً مدنيًّا بين متعاقدين اثنين يحق للمرأة فيه ان تكون عصمتها بيدها

ومتى تذكر القارىء ان من اهم الغايات التي ننشدها في معالجة هذه القضايا الاجتماعية الكبرى هي الاصلاح الاجتماعي في العالم العربي فهو ولا شك يعذرنا على الافاضة في بيان الروح الاسلامية في هذا الموضوع الخطير وتمشيها مع الحاجة الزمنية ، وهذا ما يحدو بنا الى الاستشهاد هنا بكاتب غربي معروف لم يكن صديقاً خاصًّا للنبي الذي اسس مجد العرب وهذا الكاتب هو (روبرت روبرتس) فقد جاء في اطروحته ما يأتي « انه ليعجز القلم عن بيان الشرور الخطيرة المتنوعة التي تنشأ عن الضر بما يجلبهُ على الشقين الذكر والانثى من العواقب الوخيمة . على اننا بمعالجتنا مسألة الضر بين المسلمين علينا ان نذكر دائماً ان هنالك فرقاً عظيماً بين اباحة الشيء وبين احداثه واستنانه لاول مرة . وواجب العدل يقضي بان نقول ان النبي قد وضع لهذه العادة حدًّا بدلاً من أن نقول انه ادخلها بين العرب. فقد كان الضر السنّة المنتشرة بين الشعوب الشرقية قبل ظهوره وكان هذا حال العرب ايضاً وقد وجدها مطبقة تطبيقاً طليقاً من كل قيد منذ الاجيال السحيقة . ولم يكن هو وحده متمتعاً بزوجات عديدة بل جميع اصحابه واتباعه ايضاً . وبناء عليه فاباحته للضر انما كانت اتباعاً للعادة العربية العامة ، وكذلك وجد النبي لهذه العادة سابقة في اليهودية ففي « العهد القديم » امثلة كثيرة عليها موجودة في تاريخ الانبياء والملوك وغيرهم من دون ان تقابل بشيء من غضب الله . وعلاوة على ذلك فنحن نشك هل كان في طاقته ان يمنعها منعاً باتًّا لو اراد ، ونذكر بهذه المناسبة كلمات (صولون) اذ قال للاغريقيين ليست شرائعي خير ما استطيع ان اضع لكم ولكنها خير ما يمكن ان تتقبلوا لانفسكم . ومع كل ما كان يتمتع به النبي من النفوذ العظيم فعيقدتنا انه كان يستحيل عليه ان يبطل شرعة الضر بين قومه . وقد عمل المستطاع فلئن لم يبطل فقد تمكن من التحديد . وفي نص الآية الثالثة من السورة الرابعة انهُ لايجوز للرجل ان يتزوج من النساء اكثر مما في طاقته ان يعول، وقد روعيت هذه السنة اجمالاً لان الزوجة الواحدة هي القاعدة في الطبقات الفقيرة بل ليس ذلك محصوراً فيها ابداً»[1] . وسيل الانقلاب الاجتماعي الاقتصادي العرم الذي طغى على المجتمع لم يقف

(١) The Social Laws of The Quoran, p. 8.

دون الامم الاسلامية بل قد شملها ايضاً واكتسحها فيما اكتسح ،وقد احس العرب كما احس الافرنج من قبلهم بضرورة تخفيف الاسرة وضبط المواليد ووضع حد لها ،وهذا كله من تأثير الحاجة الاقتصادية فهي تعمل عملها من غير التفات الى العنعنات والتقاليد . وكنت اقرأ للكتاب وانا تلميذ في المدرسة انواعاً من الدفاع الضافي عن عادة الضر مبناها كلها حاجتنا الى اكثار النسل . اما اليوم فالدفاع صار قاصراً على تبرير ما حدث في الماضي بناء على قلة الناس يومئذ وعوز الآباء الى الابناء ، والمثل الاعلى الذي ينشده المجتمع الحاضر في استيلاد الاولاد يتعلق بنوعهم لا بمقدارهم لان الارقام صارت عبئاً على المدنية .على ان هذه الضرورة الاقتصادية الملموسة لم تمنع الكثيرين من الاغنياء في العالم العربي ان يستفيدوا — او ان يخسروا — من اباحة الضر فيمارسونهُ بصورة علنية محللة كما يمارسه زملاؤهم من الاوربيين والاميركيين بصورة سرية محرمة

الزواج الموحد

(خامساً) الزواج الموحد وهو الزواج المقصور على زوجة واحدة وزوج واحد ولا تعرف قيمته الاّ بمقارنة النتائج المتولدة عنهُ بالنتائج المتولدة عن انواع الزواج الاخرى. ويعتبر الزواج من حيث الاساس اشتراكاً حيويًّا وتنظيماً اجتماعيًّا فهو والحالة هذه وحدة مستجدة ذات كيان منفرد تخضع لدستور تنازع البقاء وبقاء الانسب مثل سائر الوحدات المشتركة . وقد استعرضنا فيما تقدم انواع الزواج فما هو النوع الذي سيصمد للحوادث وتكتب له الغلبة في هذا الصراع المستفحل ؟ سؤال نجيب عنهُ بقواعد عامة لا سبيل الى جحدها . فكل اقتران او اتحاد تكون من ورائه قوة جديدة للداخلين فيهِ من حيث نوع الانتاج ومقداره ومن حيث البناء وصلابته وتماسكه في المادة والمعنى ومن حيث القواعد الاقتصادية التي يبنى عليها هو الاقتران الذي يكتب له البقاء . ففي العترة الاولى لا سبيل للذكور — ما عدا الشيخ الزعيم — ان يقوموا بوظيفتهم الحيوية واشتراكهم الجوهري وذلك للطريقة الاستبدادية الحيوانية التي يخضعون لها . وفي الاقتران الموقت على طريقة السباع لا توجد الروابط « العائلية » وان وجدت فهي ابتدائية والى زمن الفطام ، وفي الزواج المتعدد الازواج يكون الرجل « الضرّ » مثل المرأة الضرّة على تنازع دائم مع زملائه ناهيك ان الولد لا يعرف اباه الاّ تخميناً او اصطلاحاً مما يجعل الروابط بينهما ضعيفة. وفي الزواج المتعدد الزوجات تكيد الضرائر بعضهن لبعض ولو على حساب البيت وخراب الزوج وهدم الاسرة ، وتحول غيرتهن دون التضافر المطلوب بين الاب وزوجاته وبينهم وبين الاولاد بل بين الاولاد انفسهم لأن ابن الضرة هو ايضاً «ضرة» الى درجة بعيدة .وعرفنا الايم من الرجال الذي يراعي شعور اولاده انهُ لا يتزوج من بعد وفاة والدتهم حتى لا يعرضهم لشيء من المنغصات . ولا يقدر مصائب تعدد الزوجات مثل اهل الشرق لانهم عرفوا بالاختبار المؤلم ان البيت الذي تدخل فيهِ الضرة تخرج منهُ السعادة

ولا حاجة بنا بعد هذه التوطئة الى القول ان التوحد هو الشكل الذي سيحافظ عليه المجتمع، وذلك للمزايا التي يكتسبها الداخلون فيه فالمرأة تعرف ان البيت الذي تبنيه بحسن سلوكها وتوفير مصروفها وترفع عماده بما تبث من الاخلاق في نشئه هو بيتها وبيت زوجها واولادها من غير منازع وكذلك التوحد هو اقرب لان تكون الاسرة المؤلفة منه صغيرة تتمشى مع مطالب الزمن، وهو الشكل الفذ بين انواع الزواج من حيث انه نظام مباح عند الشعوب كافة وحيثما وجدنا الضر أو الضمد أو الزواج الجمهوري أو الاقتران الموقت وجدنا الى جانبه الزواج الموحد. وقد يكون هذا الزواج في بعض الاوساط الشكل الوحيد الذي تسمح به العادة أو الشريعة

واذا قسنا قيمة الزواج بمقدار العناية التي تصرف على الاولاد وجدنا الزواج الموحد اثمن انواع الزواج وذلك لان العناية بالنسل تبلغ فيه اوجها فنرى الابوين في عهده يشتركان بلهفة واحدة وعناية متشابهة في خدمة الابناء « وربما امتدت هذه العناية الى ان يبلغ الولد الخامسة والعشرين من عمره فيكون صاحب شهادة عالية بفن من الفنون قبل ان يحرم من مساعدة ابويه في حين ان الطفل في الاسرة الاولى كان يترك وشأنه من بعد الفطام »

وقد زالت اسباب كثيرة كانت من العوامل في تثبيت الضر وانتشاره في الازمنة الماضية منها العقائد الخرافية التي كانت تمنع الرجل من امرأته في إبان الحمل والى اجل بعيد بعد الولادة وهي عقائد قائمة على اعتبار المرأة ممسوسة بالشياطين متى كانت حاملاً ، ومنها ان ثروة الرجل ومكانته أو قوته لم تعد تحسب بعدد زوجاته واولاده واخوالهم ، خصوصاً لان المرأة « بطلت ان تكون عاملاً من العمال فقط ، وقد زال العمل اليدوي الى درجة بعيدة لحل محله عمل الحيوانات الداجنة والادوات والآلات . وقد تلطف شعور الحب وارتقى فاصبح اطول امداً . ولم يعد الصبا والجمال في نظر الرجل المثقف العامل الجذاب الوحيد . ثم ان المدنية نفخت في الجمال النسائي روحاً جديدة . واصبح الرجل أكثر احتراماً لشعور المرأة »

وغني عن البيان اننا التزمنا في هذا المقال جانب التوحد وقلنا انه هو الزواج الذي سيصمد للحوادث وانه هو الشكل النهائي وكل تغيرات نتوقعها في هذا الباب انما تكون كما قال هربرت سبنسر من حيث اكماله وتوسيع نطاقه [1] لكن هذا الكلام يجب الاّ يغمض اعيننا عن التطورات الخطيرة التي جلبتها على الاسرة المدنية الصناعية الحاضرة مما سنعرض له في المقال التالي ولا عن آراء بعض الاعلام ممن قالوا بالضر فقد ظن الدكتور (جستاف له بون) في كتابه « مدنية العرب » ان الشرائع الاوربية ستبيح الضر في المستقبل [2] وقال (لتورنو) « ليس لنا ان نعتبر الزواج الموحد غاية الغايات في نشوء وضع الزواج وارتقائه » وان كنا نراه مفضلاً على سائر انواع الزواج المعروفة حتى اليوم [3] وذهب الاستاذ (فون اهرنفلس)

---

(١) H. Spencer, Principles of Sociology, Vol. I. p. 7?5

(٢) La Civilization des Arabes p. 424 (٣) Letourneau, Sociologie, p. 378

الالماني المعروف الى ان ادخال سنة تعدد الزوجات ضرورية لحفظ السلالة الآرية

ولا يكون هذا الفصل من قضية الشق كاملاً من الوجهة التاريخية اذا نحن لم نختمه بالقطعة الآتية التي ننقلها عن الاستاذ (وسترمارك) تنويراً للاذهان وهي: « وبالنظر الى ان الزواج الموحد كان الزواج المشروع الوحيد المنتشر عند الاغريق والرومان فلا يجوز ان يقال ان النصرانية ادخلت هذا الشكل الاجباري من الزواج الى العالم الغربي . وانهُ وان كان «العهد الجديد» يفرض ان التوحد هو الزواج الطبيعي او الكمالي الاَّ انهُ لا ينص على تحريم تعدد الزوجات الاَّ عند الاسقف والشماس (راجع رسالة يوحنا الاولى الى تيموثاوس ، الآية الثانية والآية الثانية عشرة من الاصحاح الثالث، وهذا التخصيص بهما حري بالالتفات). . . . . ونحن لا نعرف مجلساً كنسيًّا في القرون الاولى قاوم الضر ، ولم توضع اية عقبة دون ممارسته لدى ملوك البلدان التي كان منتشراً فيها على عهد الوثنية . ففي منتصف القرن السادس كان (لديارميت) ملك (ارلنده) ملكتان اثنتان وسريتان . وكثيراً ما مارس الضر الملوك المروفنجيون . وكان لشارلمان زوجتان اثنتان وعدد عديد من السراري . وتدل احدى شرائعه على ان الضر لم يكن مجهولاً حتى عند القسيسين . ثم ان (فيليب الهسّي) و (فردريك ويليم) البروسي الثاني كل منهما عقد على زوجتين اثنتين بمعرفة رجال الاكليروس اللوثريين . وقد استصوب (لوثر) نفسه هذا الزواج المثنى . . . . وتكلم عن الضر في احوال متنوعة بالتسامح الكثير ، فقد ذهب الى ان الزواج لم يكن محرماً عند الله ، حتى ان ابراهيم وهو مسيحي كامل كانت له زوجتان . ولا ينكر ان الله اباح مثل هذا الزواج لبعض رجال العهد القديم في احوال خاصة فقط . واذا اراد مسيحي ان يحذو حذوهم فما عليه الاّ ان يظهر ان هذه الاحوال تنطبق عليهِ . ولكن الضر كان ولا شك مفضلاً على الطلاق (راجع تاريخ حياة مارتن لوثر لمؤلفه كوستلين، الجزء الاول والجزء الثاني) وفي سنة ١٦٥٠ وذلك عقيب معاهدة (وستفاليا) لما نقص عدد الاهلين كثيراً من جراء حرب الثلاثين سنة اصدر مجلس (الكريستاج) في مدينة (نورمبرج) قراراً قال فيه انهُ من ذلك الحين فصاعداً يسمح لكل رجل ان يتزوج امرأتين . بل ان بعض المذاهب النصرانية ايدت شرعة تعدد الزوجات بحماسة شديدة وصرح جماعة (زوينجلي) المصلح الديني السويسري المشهور المعروفون باسم (انا بابتست) في سنة ١٥٣١ في مدينة (منصتر) بأن الرجل الذي يرغب في ان يكون مسيحيًّا حقيقيًّا يجب ان يكون له زوجات متعددة . اما طائفة (المورمون) في ولاية (يوتا) من الولايات المتحدة — وهم اتباع السيد المسيح على طريقة القديسين المتأخرين — فقد عدوا الضر وضماً الهيًّا»[١]

(١) The History of Human Marriage, vol III, p. 50

مصير الاسرة الشرقية

﴿ الاسرة ﴾ : يطلق الغربيون كلمة (فاميليا) على الاسرة وهي كلمة رومانية انتقلت الى اللغات الاوربية الحاضرة بلفظها ، واصل اشتقاقها من كلمة (فامل) بمعنى الرقيق او المتملك الذليل الذي يمتلكه السيد ، ويدل هذا الاشتقاق الوضيع على معناها في الازمنة الخالية ، ثم شملت فيما بعد غير ذلك من الممتلكات المنزلية في الاشياء والاشخاص ، ففي الشريعة الخامسة من شرائع الالواح الاثنى عشر الرومانية التي وضعت في القرن الخامس قبل المسيح ان الرجل اذا مات من غير وصية يوصي بها ولم يكن له وارث شرعي فان اقرب المتصلين به باواصر القرابة العصبية — من جهة الذكور فقط — يرث (الفاميليا) التي يخلفها من بعده وهي الثروة «العائلية» بانواعها في الاشخاص والاشياء

وقد لا تختلف هذه النظرة كثيراً عن نظرة العرب في الجاهلية اذ كان الميت يورّث من بعده الاشياء والاشخاص معاً حتى امرأته فيحل لابنائه من غيرها ان يتزوجوها كما اسلفنا

وان لهذه النظرة الابتدائية الى المرأة بانها سلعة اقتصادية اشباهاً ونظائر في الاقوام المتوحشة ، وعندنا ان المساومة على المهور في الشعوب التي قطعت شوطاً في المدنية بعيداً هي من بقايا هذه النظرة الابتدائية الحقيرة . ويمكننا ان نضع قاعدة عامة فحواها ان الوسط الذي يبنى فيه الزواج من الاساس على مقياس الفائدة الاقتصادية هو وسط ابتدائي في الروح المخيمة عليه ولو كان في حواضر البلدان الغربية في اوربا واميركا

ومما نورده في هذا الباب عن القبائل المتوحشة ونظرتها الى المرأة والزواج نظرةً اقتصادية بحتاً ما حدثنا به صديقنا الفاضل الدكتور راجي خباز عن قبيلة (الدنكا) — وهي قبيلة منتشرة في الاصقاع من اعالي النيل الى بحر الغزال — فقد قال ان الزواج بين افرادها يجري من غير شيء من الشعائر سوى الرقص والغناء ويتم باتفاق اهل المخطوبة مع الخاطب على المهر وهو من البقر دائماً ، لان البقرة هي مقياس النقد عندهم . والاساس في الزواج هو استيلاد الاولاد لاستخدامهم في مصالح الزوج الاقتصادية . وكثيراً ما استولد الرجل العاقر امرأتهُ من رجل آخر على طريقة زواج الاستبضاع في الجاهلية فان لم تلد بهذه العارية حق له ان يعيدها

الى اهلها ويستردّ مهرها من البقر ولو بعد عشرين سنة . والبقرة المؤداة مهراً تبقى في مثل هذه الحال وقفاً على الزوج ينتفع بها فما ولدته يكون لهُ وما مات يكون عليهِ . لكن هذا الحق الموقوف يسقط حالما تلد الزوجة ولداً ، كأن المولود الجديد يعادل البقرة في الاعتبار الاقتصادي

ومن عادة (الدنكا) ان الزوجة اذا ماتت في اثناء الولادة وهي بكرية تعد زانية زنى بها احد اهلها ، وتذكر وهي تلد جميع من اتصلوا بها فمن صادف اسمه نزول المولود يكون اباه حتماً ، ولكن مع ذلك لا يحق له ان يدعيه بل يبقى للزوج صاحب البقر فكأن الزوج والحالة هذه قد ادّى قيمة البضاعة — (على بوليصة الشحن) — فصارت ملكه ولا عبرة بالذي صنعها. واذا كان لرجل ابنة غير متزوجة فولدت ولداً فان هذا المولود يكون ملكاً لهُ — لا لأ نهُ جده لامه بل لانهُ امهر جدته بقراً حين تزوجها ، فالحفيد مملوك يحق البقر لا بحق القرابة ! واذا اشتكى زوج من زوجة انها زنت برجل حق له ان يقاضيه ويأخذ منهُ بقرة ثمن الزنا ،ويتكرر هذا الحق بتكرر العمل المنكر مرتين او ثلاثاً ثم يزول اذ تصبح المرأة مومساً . والدنكيون مقتبون— يتزوجون نساء آبائهم من بعدهم —ولكن مع كل هذه الاوضاع الاقتصادية الابتدائية فهناك من حين الى آخر زواج قائم على الحب المتبادل والهرب الى الاقطار البعيدة فراراً من ضريبة البقر

﴿ الانقلابات الاقتصادية الحديثة وتأثيرها في الاسرة ﴾ : ذكرنا بشيء من التفصيل العامل الاقتصادي في الشؤون الزوجية وعرضنا للمتوحشين لان مجتمعهم بسيط وذو فائدة في فهم المجتمع المدني المعقد ونزيد على ذلك ان الاسرة بقيت الى زمن قريب في جميع انحاء العالم وحدة اقتصادية من الطراز الاول ففيها كانت تصنع الغزول والانوال وانواع الحياكة والادوات الزراعية وغير ذلك من الآلات . هذا كان حال اوربا واميركا في القرن السابع عشر والقرن الثامن عشر ولا يزال في كثير من أنحاء الشرق . بل ان المصنوعات البيتية في يومنا هذا ربما بلغت ملايين الريالات في الولايات المتحدة ،الا ان التطورات الخطيرة التي اصابت الغربيين في شؤونهم في السنين الخمسين الاخيرة احدثت انقلاباً عظيماً في حياتهم « العائلية » وتهدد هذه التطورات الوحدة البيتية من اساسها على الرغم من جميع المواعظ والخطب والعقائد التي استحكمت في نفوس البشر الوف السنين ، لان اشتراك المراة الغربية في الصناعة وسعيها لاكتساب المال بالاعمال ونزولها الى حلقة الصراع في المشروعات الخاصة والعامة وطرقها ابواب الحكومات والشركات للتوظف كل ذلك اعطاها من قوة الاستغناء ما جعل ارتباطها بالاسرة اختيارياً وتعلقها بالرجل « كيفياً » حتى اصبحت البيوت كما قال احد الاساتذة عبارة عن مساكن او (بنسيونات) يؤمها الناس فيؤدي كل واحد منهم قسطه من المصروف ويحيا حياة مستقلة .واذا كانت المرأة من الوجهة الحيوية مخلوقاً يحمل ويلد الاولاد ومن الوجهة النفسية والاجتماعية معلماً في روضة الاطفال ومعلماً في الدروس الابتدائية فمن ادعى دواعي الاسف

ان تصبح هذه الوظائف الكبيرة في اوربا وأمريكا مهددة من الاساس لان المنازل هناك لم تعد مساكن السواد من النساء بل مساكنهن المعامل والمصانع والمكاتب والحوانيت ودوائر الحكومات . فهل تبلغ الحاجة الاقتصادية في العالم العربي يا ترى مبلغاً تضطر معهُ المرأة الى هجر بيتها في طلب الرزق كما تفعل زميلتها الغربية ام يبقى لديها متسع تحافظ فيه على القيام بوظائفها الطبيعية التي خلقت في بدنها منذ ظهر هذا المخلوق الذي ندعوه بشراً على ظهر الارض ؟ هذا سؤال يتوقف الجواب عنهُ على سير المدنية في العالم العربي في المستقبل وهل يكون هذا السير طبق المدنية الغربية ام سيراً خاصاً له ميزاته القومية وتقاليده الوطنية . ولا مراء ان السيدة الشرقية ستبقى الى زمن بعيد امرأة وان كثرت بيننا النساء المترجلات او المحترفات وصاحبات المهن ذلك لان نتيجة الصدام بين الحضارتين الشرقية والغربية هي مثل سائر انواع الصدام بين القديم والحديث حضارة معتدلة بين الاثنتين او تسوية وسط في الشؤون التي تتناول جواهر الحياة — اما اذا كانت هذه الشؤون جوهرية فالتقليد والمجاراة امر لا مفرَّ منهُ . يعني ان الانقلاب الاقتصادي الحاضر اذا كان من لوازمه الضرورية المبرمة نزول المرأة الى حلبة العمل الخارجية وهذا ما لا نؤمن بهِ — فلا مفرَّ لنسائنا من المجاراة وتكييف النفس والاَّ فالحكم قاس يتعلق بالبقاء او الانقراض ولا ثالث لهما

وقد دل الاحصاء في العالم الغربي على العمل العظيم الذي تضطلع بهِ المرأة في الاقتصاديات ففي الولايات المتحدة في سنة ١٩٢٠ مثلاً كان اكثر من خمسة عشر في المائة ممن يتناولون الاجور في المصانع والاعمال الميكانيكية نساء فوق العاشرة من العمر . اما نحن وقد نشأنا في بلاد وسيعة لم تبلغ المزاحمة الاقتصادية فيها ما بلغته في ديار الغرب فنشك كثيراً في الربح الذي يجنيه المجتمع من خروج المرأة عما خلقت له ، واذا كنا من اكبر انصار تحرير المرأة — وقد حررناها في بيوتنا فعلاً في اعصب الاوقات وحاربنا استعبادها كما نحارب اقسى انواع الظلم والاستعمار — فهذا لا يمنع ان نكون من القائلين بأن الطبيعة حكمت على المرأة وعلى الرجل بتقسيم الاعمال ووسمت كل منهما بوسم خاص للدلالة على هذا التقسيم ، لذلك ترى في موقفنا الحاضر الميسور ان قطرة من اللبن تدرّ مع الحنان من ثدي المرأة في فم رضيعها خير من كومة من الابريز تجمعها لتثبت بها احتقارها للاسرة واستغناءها عن الرجل . وارجو الاَّ يستنتج القارىء من كلامي هذا انني عدو عمل النساء في جميع الاحوال بل ارى ان العمل الذي يقوم بأود البنت فيحول دون تهافتها على اول عريس تلقاه خير من بقائها كلاً على عاتق اهلها بحيث تعرض في سوق الزواج بأرخص الاسعار

اننا نريد ان يعمل النساء ولكن في الحدود المستبانة من روح كلامنا وفي المنطقة التي تعينها لهن الخلقة والطبيعة . والقاعدة التي يمكن الركون اليها في هذا الصدد هي ان يكون

عمل المرأة الخارجي هو لدفع الحاجة اكثر منهُ لجلب الثروة . ولا مراء في ان اشتراك النساء في كثير من الاعمال التي اختصت بالرجل قد خيّب آمال اشد الناس اندفاعاً في تأييد هذا الاشتراك والدعوة اليهِ ، فقد يخضن غمار السياسة ويمارسن حقوق الانتخاب مثلاً ولكن رأي معظمهن عند التصويت قد يبنى على مظاهر لا تهم الدولة ولا تروق الرجال المدربين . ومن افظع الكوارث التي تنصبُّ على رأس المجتمع البشري ان يتخنث الرجل وتترجل المرأة

﴿ تولد الميزات العقلية الاجتماعية في الاسرة ﴾ : من اعظم الحجج التي يدلي بها علماء الاجتماع على وجوب الاحتفاظ بالاسرة ونظامها هي الميزات العقلية الاجتماعية التي يكتسبها الابناء في حجر ابويهم وبين اخوتهم واخواتهم . فالبيت مدرسة نفسية من الطراز الاول يتعلم فيها النشء الحب والتعاون والايثار والصبر وكبح جماح النفس بالطرق العملية فتتولد في افراده الارادة ويرتقي الحزم وهذه كلها صفات عقلية يبنى عليها المجتمع وزوالها يذهب بجميع تلك الخصائص التي ميزت الجمعية البشرية عن قطيع من السائمة « وفن المعيشة المشتركة بالوئام والاستفادة هو فن اساسه الحب الناشيء عن الوحدة العائلية »

﴿ تحرير الافكار واثره في الروابط العائلية ﴾ : لقد انسابت عوامل تحرير الافكار الى جميع الطبقات ودخلت معظم البيوت حتى البيوت التي تنقاد للطريقة القديمة حيث يطبع الابناء بطابع الوالد المبجَّل عادة ويسيرون على سننهِ في كل شيء فغيرت هذه العوامل هذا الطابع العقلي او القالب الروحي ولم يعد الشذوذ عن سيرة الوالد في السياسة والافكار انشقاقاً يستحق صاحبه الجزاء والاضطهاد . ولا سلطة اليوم في ديار الغرب لوالد على ولده في النحلة والفكرة والمذهب السياسي الا ما كان بسبيل البرهان والاقناع والاتفاق .

وغني عن البيان ان مثل هذا التحول يقوي الفردية الاجتماعية الغالية متى كان سلمياً ومبنيًّا على قواعد التربية الحرة ، ولا خوف منهُ على كيان الاسرة بل الواجب ان يشجع الى درجة معقولة ، ذلك لان الجمود مرض عضال والسير في الحياة اجيالاً متتابعة على نمط واحد يحول دون الارتقاء . وقد تغيرت نظرات الناس في السياسة والعقيدة والتهذيب منذ جيل الى اليوم تغيراً كليًّا حتى صارت الصدمات القاسية التي كان يلاقيها بعض زعماء الاصلاح امثال الشيخ طاهر الجزائري في سورية وشكري افندي الالوسي في العراق والشيخ محمد عبده او قاسم بك امين في مصر اشبه في نظرنا بمداعبات ومهاترات منها بمواقف جدية ذلك لان الرأي العام اخذ في الاختمار وصار الطعن في الرجال للعقائد التي يدينون بها عن اخلاص سمجاً تأنفه النفوس . بل لا نخطيء اذا قلنا ان القضية انعكست وصار الاستسلام الاعمى للعقائد والنظريات التي درج عليها الآباء والجدود من غير تمحيص علمي عيباً يتجنبهُ النابهون . ومن اهم التطورات الفكرية التي استجدت في ميدان العلم الا يقبل الباحث رأياً من غير ان يعرضه لمطارق الشك

واذا نام المتقدمون على راحة اليقين فقد صحونا نحن على تعب الشك لكن هذا الشك قد ادى الى ما نراه من الانقلاب الخطير في العلوم المادية والمعنوية.

﴿هل نتبع الغرب في تصغير الاسرة﴾ : ان الضرورات الاقتصادية الحديثة حكمت على الغربيين بتصغير اسرتهم اذ عرفوا ان الاولاد الكثيرين الذين ينشأون في بيت معوز وينحشرون في غرف ضيقة ولا يحصلون على غير الكفاف من العيش والراحة والنزهة هم اضعف من ولد واحد او ولدين اثنين يترعرعان في رخاء ويتمتعان من عناية الابوين بالقسط الوافر مادة ومعنى . واذا نحن لم ننكر ان العادات الاجتماعية الطبيعية تضمن الضمان الكافي في الاسرة الكبيرة حيث ينمو الاطفال في بيئة تتناسب مع مداركهم وتدرجهم في المشاعر والعواطف والاختيار وهم بعيدون عن الاختلاط الدائم بالمراهقين والبالغين الا ان الاضرار التي تصيبهم من العسر وقلة ذات اليد تربي كثيراً على هذه الفضائل الاجتماعية . وقد لاحظ اهل التتبع ان الميل الى تصغير الاسرة في ديار الغرب سار كتفاً الى كتف مع تناقص الاراضي الزراعية وضيق ميادين العمل . اما الناس في عالمنا العربي فلا تزال هذه الاراضي متسعة امامهم في كثير من الاقطار كبلاد العراق مثلاً حيث يوجد نحو ١٣ مليون فدان لاربعة ملايين من السكان والديار الشامية حيث عشر الارض فقط (او نحو ستة آلاف ميل مربع) يستثمر بالطرق الزراعية . اما مصر ففيها نحو سبعة ملايين فدان لخمسة عشر مليوناً من الاهلين وهذا يقضي بشيء من الاشراف على المواليد وضبطها وتحديدها في القريب العاجل هذا اذا شاء ابناء وادي النيل ان يحسنوا النسل في النوع لا في المقدار

وقد لوحظ ان هنالك عوامل متعددة هي السبب في صغر الاسرة في بلدان الغرب منها التأخر في سن الزواج وتحديد المواليد وانتشار الامراض المعقمة وغير ذلك من العوامل. ففي كتاب للدكتور (مورو) عنوانه « الامراض الاجتماعية والاسرة » ان خمساً وسبعين في المائة من العمليات الجراحية التي تعمل للنساء وثمانين في المائة من جميع الوفيات الناشئة عن الالتهابات الخاصة بهن هي مسببة عن العدوى التناسلية. وعنده ان خمسين في المائة من النساء المصابة بالامراض التناسلية تصبح عقيمة وان معظم الزواج العاقر ليس اختياراً بل اضطراراً بسبب الامراض . وعلاوة على ذلك فالمشروبات الروحية — عند كثير من علماء الطب — متى استحكمت في الآباء اضعفت النسل وانقصته، يدلنا على ذلك ماقام به الدكتور (هدج) من التجارب التي اجراها على الكلاب اذ وجد أن ثلاثة وعشرين جرواً نزلت من صلب كلبين ابوين اسقيا الخمر لم يعش منها غير سبعة عشر في المائة في حين عاش تسعون في المائة من خمسة واربعين جرواً من ابوين لم يذوقا طعم الراح

ثم اننا لا يهمنا عدد المواليد بقدر ما تهمنا الطاقة على تربيتهم والعناية بهم . وقد ثبت ان اشتغال المرأة المتزوجة في المعامل يقلل من هذه العناية ويدعو الى هلاك الكثير منهم ،

وقد اجرى الدكتور (جورج ريد) وهو طبيب مقاطعة (ستفوردشير) في انكلترا احصاء في هذا الصدد فتبيّن له ان الوفيات في الاطفال دون السنة الواحدة من العمر في ست مدن من مدن الخزافين هي ١٤٦ في كل الف من مواليد النساء اللاتي تلازمن بيوتهن في حين ان الوفيات تبلغ ٢٠٩ عند النساء المشتغلات في المعامل واللائي تغادرن دورهن في النهار . لكن الدكتور (جورج روبرتس) طبيب الصحة في (برمنجهام) وجد ان سوء الحال الناتج عن الفقر في الاسرة هو اشد فتكاً في الاطفال من اشتغال الامهات خارج الدور . واما في اميركا فقد دلّ الاحصاء في مقاطعة (فول ريفر) من ولاية (ماساشوستس) على ان وفيات الاطفال بسبب الاسهال والتهاب المعدة والامعاء في البيوت التي تشتغل نساؤها في المعامل تزيد ثمانين في المائة على الوفيات في البيوت التي تلازمها نساؤها ، اضف الى ذلك ان هذه البيوت هي اقوم نظاماً ورجالها اعدل مزاجاً وابناؤها اقوى بنية وعلائقها الزوجية احكم ارتباطاً

على ان واجب الاحاطة بالموضوع يقضي علينا بالاشارة الى ان انصار اشتراك المرأة في الاعمال يدّعون ان الضرر اللاحق بالاطفال ليس ناشئاً عن اشتغال المرأة بل عن سبب آخر هو الفقر وان المرأة لولا فقر زوجها ما اضطرت الى الخروج من بيتها في طلب الرزق ، وخلاصة مذهبهم « ان النساء يستطعن العمل في جميع الميادين الصناعية الحاضرة مع الاحتفاظ ليس بمقياس صحتهن فقط بل برفع هذا المقياس ايضاً ، غير ان الواجب يقضي بأن تكون العمارات التي يشتغلن فيها صحية ومبنية على الاصول الفنية وان يعلّمن هن ومن يستخدمهن في الاعمال قواعد الصحة العملية البسيطة »

ولامراء ان اهم الاسباب في نقص المواليد هي ارادة الآباء والامهات اما لعجزهم عن اعالة الاولاد او لانصراف الوالد الى المناصب والاعمال ورغبة الوالدة في تحقيق اللذائذ والمسرات بحيث يريان الاولاد عقبة في سبيلهما وان توفر المال لديهما وهذا الامر شائع في الغرب دون الشرق — حتى الآن

واما ما يقال عن ضعف بعض الاقوام وانحلال قوتهم الايلادية وسيرهم في طريق العقم كما هو حال الفرنسيين مثلاً فهو موضوع دقيق يتطلب بحثاً اخصائيًّا لا يتسع له هذا المقال ، ومما هو ثابت ان الوسائل الصحية الحاضرة والعناية بالمرضى والمتعبين واصحاب العاهات كل ذلك مكّن الملايين من البشر ان يعيشوا ويتزاوجوا ويتوالدوا مع انهم لو تركوا وشأنهم لقضى عليهم الموت من غير شفقة ولا رحمة . وهكذا نرى ان وسائل المجتمع العلمية قد حالت دون تنفيذ قانون الانتخاب الطبيعي وتطبيق بقاء الانسب . ومن يدرى ان بعض الاقوام قد صرفت من قواها الحيوية واستنزفت من مخزوناتها الاستنتاجية ورأس مالها القومي ما اوصلها الى درجة التوقف والانحلال شأن تلك الاجناس البيولوجية الاثرية الكبرى التي انقرضت ولم تترك من عظمتها الا هيا كلها العظمية بين طبقات الغبراء وتحت سطح الماء

الاسرة الشيوعية

﴿الاسرة عند الشيوعيين﴾ تبتدىء فكرة التشيع في العلائق بين الذكر والانثى منذ ايام افلاطون ، ففي جمهوريته — وهي المدينة الفاضلة التي ذكرها الفارابي — ان السلع والنساء مشاعة في الامة ، وان المرأة يجب ان تشاطر الذكر العمل كما تشاطر الكلبة في القطيع الكلب حراسة الغنم . والمثل الاعلى الذي كان ينشده للمدينة الفاضلة السعيدة هو ان تكون جميع العلائق الشقية خاضعة لسلطة الدولة ومحصورة في اناس يتحلون ببعض الصفات من حيث اعمارهم واهليتهم في الابدان والاخلاق والعقول وهو ما يؤدي الى علم له مقام رفيع بين العلوم الاجتماعية الحاضرة وهو علم « اليوجنيكس » أو اصلاح النسل

وعسى الا يستغرب القراء موقف افلاطون شيخ حكماء اليونان في شيوعية النساء ولا موقف من تابعه من متطرفي الاشتراكيين في العصر الحاضر . فان رواد الاصلاح في الشؤون الشقية كما قال (سبارجو) و (ارنز)[١] قد سلكوا في معالجة قضية المرأة والرجل واحداً من سبيلين متناقضين كل التناقض الواحد تحريم الاتصال بين الجنسين بتاتاً والثاني التشيع في النساء ، ففي صدر النصرانية امتهنت المرأة وعد الزواج شراً مستطيراً ووصف بانهُ استسلام للطبيعة البهيمية وانهماك في الشؤون الحيوانية وان المثل الاعلى والكمال المنشود هو التبتل والرهبانية . على حين نرى طائفة (الشانكر) و (الوالدنسي) مثل (الانابابتست) و (الكاثاليين) وغيرهم من الطوائف المسيحية ينحون نحو التشيع في النساء كأن تعقد موضوع الزواج والعيوب العالقة بجميع طرائقه المنتشرة ارغمت الباحثين على هذا التناقض في الاجتهاد ، وكان من شأن الاشتراكية المتطرفة انها حينما عالجت هذا الموضوع ايدت فكرة التشيع لاسباب بديهية تتعلق برأس المال ، فالاسرة في نظر الاشتراكية متصلة اتصالاً وثيقاً بالتملك الخاص والميراث الاهلي بحيث يصعب الفصل بينها جميعاً ، فلا غرو ان يحسب الاشتراكيون المتطرفون كل زواج فردي او كل نظام عائلي مدعاة الى الانحلال والرجوع بالبشر الى سلطة الراسمالية التي هي في نظرهم علة العلل . والحرص على

(١) Elements of Socialism p. 241.

تخصيص الخلف بميراث السلف ظاهر في يومنا هذا حتى بين القبائل التي لا تعنى بالعرض كثيراً فقد كتب اليَّ السيد نصوح الخرسا من (الساحل الذهبي) في افريقيا الغربية عن بعض القبائل يقول « اما العرض فغير معروف عندهم واذا احب العبد احداً من البيض قدَّم له اخته او غيرها من اهله وذوي قرابته الاَّ امرأتهُ فانهُ يهتم لها لكن اذا تعدى عليها احد فانهُ يشكوه الى الحكومة ليحصل منهُ على صداقها ثم يتنازل عنها ، وبسبب هذا الاسترخاء الشقي اذا مات العبد خلَّف جميع ثروتهِ لابن اختهِ لانهُ ليس واثقاً ان الولد الذي ولدتهُ امرأتهُ هو من صلبهِ ، اما ابن اختهِ فلا شك في نسبهِ مطلقاً ولهذا فهو الوارث الوحيد بين الاقارب »

واضاف الاشتراكيون الى حقدهم على التملك والميراث كرههم ان يروا الحكومة تاركة للافراد الحبل على الغارب يتزاوجون ويتوالدون من غير اشراف ولا قيد مما يعرّض الجنس البشري للانحطاط بسبب تزاوج المرضى والمعتوهين، وللحروب والاوبئة والمجاعات بسبب تزايد النسل على وسائل المعيشة ومقوّمات الحياة

على ان اعلام الاشتراكية لم يحجموا عن الكيل للراسمالية الصاع بالصاع واتهامها بانها هي تنسخ الزواج وتهدم الاسرة . فالطلاق كما قال (سبارجو) و (ارنر) قد انتشر في النصرانية انتشاراً مريعاً حتى « لم يعد الزواج وضعاً امتن مما كان على عهد رومية في القرن الخامس . ونحن اذا اضفنا الى كثرة الطلاق انتشار البغاء اضطررنا الى القول ان الزواج الموحد لا يكاد يحسب الصفة البارزة التي تتصف بها علائقنا الشقية »[1]

ودلت الاحصاءات الرسمية التي ضبطت في الولايات المتحدة على ان عدد اذونات الطلاق بلغت في تلك البلاد في خلال عشرين سنة نهايتها سنة ١٩٠٦ زهاء ٩٤٥٦٢٥ يعني على معدل مائة وثلاثين طلاقاً في اليوم وقد وجد ان كل اربع عقود يتم الزواج فيها يفسخ واحد منها بالطلاق في كثير من الولايات ، ويمنح نحو الثلثين من اذون الطلاق للنساء بحجة الهجر والقسوة غالباً لكن هذه اعذار مصطنعة يتمحلها طلاب الطلاق من الجنسين ستراً للفضيحة والعار وليس في هذه الاحصاآت ما يدل على ان الغاية من الطلاق استبدال شريك بشريك آخر غالباً ، ومما يستوقف الانظار ويتطلب عناية الشرق كثيراً ان المقاضاة للحصول على الطلاق متى كانت نفقتها باهظة فلت من عزيمة طلابهِ وقللت من وقوعهِ . وهذا لعمر الحق يستحق انتباه المسؤولين في العالم العربي لانهُ اذا زيدت نفقات الطلاق في محا كمنا زيادة معقولة بحيث لا يجعل الطلاق ميزة يتمتع بها الاغنياء فقط فالروابط الزوجية تكون امتن واس البيت تكون اقوى على مقاومة الزعازع العائلية والعواصف الشقية

(١) Elements of Socialism, p. 244

﴿ البغاء ﴾ : هو الخطر الآخر على الزواج والاسرة وان كان بعض اهل البحث قد ذهبوا الى ان البغاء الرسمي هو حصن لاهل العفاف او « صمام الامن » يفرج بهِ الضغط الناشيء عن القوى البشرية الاندفاعية . وفي الاحصاءات التي اجريت في الولايات المتحدة في اوائل القرن العشرين ان عدد المومسات في تلك البلاد يناهز ثلاثمائة الف فيكون عدد الرجال الذين يحموهن" لا يقل عن ثلاثة ملايين ومما لا شك فيهِ ابداً ان الاحوال بعد الحرب ساءت في هذا الموضوع اضعافاً مضاعفة وان هذا العدد العديد من النساء البغايا هو ضئيل جداً بالنسبة الى الوقت الحاضر وقد سمعت خطيباً مشهوراً في نيويورك في سنة ١٩٢٤ ينحو باللائمة على الحرب ويقول ان زيادة الفحش انت الاميركيين من نزول جيوشهم في فرنسا وتعودهم عادات اهلها . ولم يحجم الاشتراكيون عن اتهام الرأسمالية بانها علة العلل في هذا المرض الاجتماعي الخبيث . ففي كتاب « الاصول الاشتراكية »[1] انه لا مفر لنا من الاعتراف بأن الفقر هو من اهم البواعث على بيع الاعراض ، وان نسبة النساء من اهل الاجور الزهيدة اللاء يصرن فواحش هي نسبة عظيمة جداً ، وكلما اصيبت الاسواق التجارية بالغرار بعد الدرّة أو بالكساد بعد الرواج ازداد عدد البغايا . والمحنة قوية جداً كما قال (برناردشو) على البنت الجميلة التي ترى انها اذا باعت قواها العقلية للخدمة في المكتب أو المصنع لا تربح عشر ما تربحهُ اذا هي باعت جمالها ففي تلك الحالة لا تحصل على غير الكفاف من العيش غالباً واما في هذه الحالة فقد تكون القصور والسيارات والبواخر والمصارف طوع بنانها

اضف الى ذلك ما تسببهُ الفاقة واكتظاظ السكان في الامكنة القذرة واختلاط البنات والصبيان في المعامل مع الاحداث والبالغين من الاسترخاء في الاخلاق والانحطاط في البنية

﴿ حملة الاشتراكية المتطرفة على الاسرة ﴾ : يقول الاشتراكيون ان حملتهم الشعواء ليست موجهة الى الزواج والاسرة بل الى سوء الاستعمال فيهما في عصر الرأسمالية فكل زواج لا يقوم على الحب بل يعقد لاجل المال او المكانة والجاه هو في نظرهم سفاح مستور مشروع يجب ابطاله مع سائر انواع الفحش . وفي البيان الشيوعي الذي اصدره (ماركس) و (انجلس) ان البغاء بانواعه ، البغاء الخاص والبغاء العام ، البغاء المشروع وبيوت الخنا كل ذلك يتلاشى في عصر الاشتراكية وزوال السلطة الرأسمالية ؛ حينئذٍ ينشأ في العالم جيل جديد بالغ راشد مؤلف كما يقول (انجلس)[2] من رجال لم تسنح لهم فرصة في العمر يشترون فيها بالمال او بغيره من الوسائل الاقتصادية استسلام المرأة لشهواتهم وجيل من النساء لم تسنح لهن فرصة في العمر

---

(١) Elements of Socialism, p. 246.
(٢) The Family Private Property & the State, Chap. III.

يستسلمن فيها لاي رجل لسبب من الاسباب غير الحب او يرفضن هذا الاستسلام لمن يحببن خوفاً من العواقب الاقتصادية

وقصارى القول ان الاشتراكيين الاقحاح يصرّون على القول انهم ليسوا اعداء الزواج ولا خصوم الاسرة بل هم اضداد ما تولده الرأسمالية فيهما من سوء الاستعمال

***

لكن الخطة التي سارت عليها حكومة السوفيت الروسية لا تدع مجالاً للشك في مذهب الشيوعية في القضية الشقية . ففي بلاد الروسيا اليوم لا يوجد — امام القانون — زواج او اسرة بالمعنى المفهوم ، وان وجدا فبقوة العادة والاستمرار ، لان المرأة التي تسجل اسمها في الحكومة انها زوجة زيد من الناس اليوم يحق لها بعد مدة معينة اذا شاءت ان تذهب الى دائرة الحكومة فتسجل اسمها انها زوجة بكر او خالد وما ينطبق على المرأة ينطبق على الرجل طبعاً ، والوجه الجديد في هذه الطريقة — وهو ما يختلف عن الطريقة القديمة المألوفة — هي المساواة التامة في الحرية والاختيار بين الرجل والمرأة

وعلاوة على ذلك فحكومة السوفيت قد فتحت مستوصفات عمومية في الحواضر الكبرى يؤمها الحوامل للاجهاض ، واعتبرت الاطفال بعد بلوغهم السنة الثانية من العمر ملكاً للدولة

ومما هو حري بالتدوين ان هذا الانقلاب المتطرف في الافكار لم يخل من تأثير في القضاء ولو كان في بلاد محافظة كالبلاد الانكليزية . فمنذ اشهر قرأنا في البرقيات العمومية حديث الاجهاض وتجاوز القاضي عن المجهض وجاء في قضية الجندي (جون بلاس) وزوجته (جندلين رسل) وحبيبها الدكتور (شارل فردريك سيرل) وهي قضية طلاق بسبب هذا الحب ظهرت في المحاكم الانكليزية في شهر مارس الماضي ان قال القاضي المستر (ماكاردي) في الرد على المحامي عن الزوج ان السيدة (بلاس) حرّة يبيح القانون الانكليزي لها الخروج من المنزل متى شاءت وان المرأة المتزوجة لها اليوم مطلق الحرية في ترك زوجها متى شاءت . فلما اعترض المحامي بقوله ان القانون الانكليزي يبيح للرجل المتزوج ان يقول لزوجته « عليك ان تمكثي معي » اجابه القاضي مستنكراً « وهل تقصد ان تقول ان للزوج في الوقت الحاضر ان يغلق على زوجته باب غرفتها ويقول لها انه سيبقيها فيها ؟.... انك تسعى لتعزيز الرأي القائل اذا خرجت الزوجة لمأدبة عشاء او سافرت لتمضية نهاية الاسبوع مع صديقة لها رغم ارادة زوجها فان الضرر — بالمعنى القانوني — يقع لانها لم تحصل على موافقته ورضاه ، ولكن هذا يجعل المرأة المتزوجة اسيرة .... واذا كان هذا رأيك فانني لا ارى ما هي الحقوق التي تتمتع بها المرأة المتزوجة اليوم . . . . واذا كان البيت ملكاً للزوجة كما هو الحال في قضية السيدة

(بلاس) فلها ان تخرج منه لا الغرباء فقط بل زوجها ايضاً »

﴿ استقلال المرأة عند الاشتراكيين ﴾ : يراد باستقلال المرأة ان تحصل على رزقها بعرق جبينها خارج حلقة الاسرة الا في وقت حملها ووضعها وهو سنة كاملة يسلم الطفل في نهايتها الى روضة الاطفال ، حيث يهيأ الطعام في مطبخ عام ويتم التنظيف على ايدي اخصائيين وتعتني الممرضات والمعلمات بالاطفال منذ الشهر السادس من اعمارهم الى ان يذهبوا اما الى المدارس الكلية او الى دور العمل والصنعة ، والمطلوب ان يكون اليوم المدرسي مطابقاً لليوم العملي فيخرج الآباء والابناء من بيوتهم ويرجعون اليها في وقت واحد . والمطلوب بحسب هذا المنهاج تحرير المرأة من اتعاب الاسرة وتحقيق استقلالها عن الزوج باشتغالها للحصول على الكسب وهذا كله يؤدي في آخر الامر الى الحيلولة دون اجتماع افراد الاسرة الاجتماع الكافي الذي يقوي اواصر المحبة والعطف بينهم ثم الى ابطال البيوت الخاصة والمعيشة الاجتماعية العائلية

ويحتج انصار هذا المذهب لمذهبهم ببرهانين اثنين الواحد اقتصادي والآخر بيولوجي حيوي . اما الاقتصادي فما يزعمونه من التوفير الذي يتم بالمطابخ العمومية والخدمات المشتركة واما البيولوجي فما يظنونه من ان تعليق المرأة على الرجل في حياتها وشؤون معيشتها اكسبها هذا الضعف وجعلها شبيهة بالطفيليات مما لا نجد له شبيهاً في عالم الحيوان حيث الانثى مثل الذكر تحصل على رزقها بكدها وتقوم بأود اولادها بسعيها

***

بيد ان الخطأ في البرهان الاقتصادي هو ان التوفير الذي طنطن به الاشتراكيون امر مشكوك فيه كثيراً واما البرهان البيولوجي فجوابه ان المرأة لا تشبه الاناث في الحيوانات فهي لا تلد الاولاد وتتركهم وشأنهم بل تستمر في تربيتهم الى ان يعتمدوا على النفس وهذا ما يحتم عليها الالتجاء الى الرجل وطلب معونته

واذا كانت ثمة امرأة لم تخلق للزوجية والامومة فليس من الضروري كما قال الاستاذ (بايندر) ان تنزل الى ميدان الصراع العملي بل هنالك بعض صفات في مثل هذه المرأة يعزها المجتمع ويحتاج اليها وهي صفات لا تثمن بالمال . واذا ارادت سيدة من اهل المواهب ان تجرب مواهبها فلا بأس ان تطرق انواع الابواب التي فتحت امامها في العصر الحاضر ، فالآنسة (هرشل) والسيدة (سمرفيل) و (كونستانس) و (نادن) و (صوفيا كوالفسكي) هن في الرياضيات مثل (مدام كوري) في الطبيعيات وغيرها وغيرها في التاريخ والادب والفن والتعليم آيات محكمات

على انمسألة النساءاللاء خلقنللزوجيةوالامومة وهن الاكثريةالعظمى يجب ان تسوى[١] (اولاً) بتقدير الامومة قدرها وطبع كلام الاستاذ (بايندر) في الاذهان وهو اذا كان المطلوب حفظ القوم وان يتمتعوا باسباب التقدم ، واذا كانت تنمية الشخصية هي الغاية الكبرى في الحياة ، واذا كانت هذه الغاية لا تتحقق الاّ في الاسرة فالام هي الفرد الالزم في المجتمع وذلك لانها تحلى العالم بمنحة نادرة وعطية سنية مؤلفة من العناصر العامة على هيئة خاصة من الجمال النادر . (ثانياً) باهمال ذاك البحث السخيف عن أيهما اعظم شأناً المرأة ام الرجل وما يجر هذا البحث المبني على النظريات البالية من استياء فضليات النساء ، فالمرأة والرجل عنصران يتمم الواحد منهما الآخر في تكوين المجتمع كما يتمم الهيدروجين الاوكسيجين في تأليف الماء ولا يوجد كيماوي مهما كان سخيفاً يصرف قواه العقلية في المفاضلة بين هذين العنصرين . واذا كان الرجل رأس البيت فالمرأة قلبه ومن المحال ان يعيش مخلوق من غير هذين العضوين الجوهريين (ثالثاً) بتنظيم الموارد المالية تنظيماً يسمح للزوجة ان تنال قسطاً من ارباح زوجها كافياً . وغير نكير انها في بعض الاحيان تستولى على جميع موارده او انها لا تنال شيئاً الاّ اذا هو تفضل عليها وتكرم بما يعده منحة ، وهاتان طريقتان فاسدتان لانالرجل الذي يعيش (بخرجية)من زوجته لايكتسب احترامها كثيراً والمرأة التي تعيش بالمنحة من زوجها ولا تستأمن على شيء هي كالطفل في نظره (رابعاً) بتزويد المرأة بالتربية العلمية التي تؤهلها للاستقلال الاقتصادي قبل زواجها حتى لا تكون عبئاً على اهلها ولا تتوافع بسبب الحاجة على كل خطيب صادفتهُ ، وللامومة بعد الزواج حتى تؤدي الامانة التي خلقت لها في الدرجة الاولى

***

ويسرني ان انهي هذا المقال عن قضية المرأة والرجل بما ذهبت اليهِ السيدة (الن كي) وهي من اشهر من كتب في هذا الموضوع ، فقد ذهبت الى وجوب حصر الاعمال النسوية في منطقة معينة تنطبق كثيراً على روح كلامنا فهي تريد المرأة ان تنصرف بكليتها الى خدمة الحياة العائلية ولا تكتفي فقط بالرضى بقلة الخدم والحشم بل ان تطردهم من عندها لتوقف نفسها على خدمة ابنائها واقرب الناس اليها وان تكون الامومة قطب الدائرة في حياتها وان ينحصر عملها فيما ينمي ابناءها ويكسبهم قابلية وهكذا تصبح شخصية سامية ذات قوة ونفوذ باحترافها اهم حرفة اجتماعية تمارسها بالفهم والنباهة ، وتكون قد زوّدت العالم باهم ما يحتاج اليهِ — زودتهُ بالرجال والنساء الاصحاء النافذين الذين لا يعتمدون على شيء سوى انفسهم .

(١) Major Social Problems p. 96.

الدولة والحكومة والرعية

· الدولة والاسرة : مما يسهل على القارىء الاحاطة بمعنى الدولة ان يشبهها باقرب الاوضاع اليه واعز الاوساط المتصلة به — ان يشبهها بالبيت الذي نما فيه والاسرة التي ترعرع في احضانها. فالوالدان هما الحكومة والاولاد هم الرعية والعادات والتقاليد المتوارثة هي الدستور والبيت هو الوطن ومن مجموعهم تتألف الدولة الصغرى وهي الاسرة . وكما ان هنالك انواعاً من الادارة « العائلية » كذلك هنالك انواع من الادارة الحكومية : هنالك ابوان شديدا الوطأة ظالمان يأخذان ابناءهما اما القوة وربما سخراهم لمنفعتهما الخاصة فقط وهنالك حكومة ظالمة غاشمة تستثمر الرعية وتسخرها لاغراضها كما يسخر الفلاح الثيران لحراثة الارض . وفي مقابل ذلك نجد سلطة ابوية حكيمة تستخدم نفوذها لهداية الابناء والحصول على السعادة المنزلية كما نجد حكومة صالحة تتخذ من سلطانها ذريعة لاصلاح الدولة . وهنالك ايضاً اسرة متفككة الاوصال يتأكلها الحسد ويهدم كيانها البغض المتأصل في الاعضاء كما ان هنالك دولة مؤلفة من عناصر متنافرة لم تجمع بينها تربية صحيحة ، يدس بعضها لبعض ويتجسس بعضها على بعض ولم يتفق افرادها على شيء الا على السعي لهدمها والخلاص منها . وفي وسعنا ان نزيد في هذه الامثال حتى لا يبقى نوع من الانواع الاسرة او الدولة — النوع القديم او النوع الحديث ، الحر او المحافظ ، المقيد او الطليق ، الجاهل او العاقل — الا تناولناه بالمقابلة

الاقتصاد العام والتدبير المنزلي : وليس الشبه فيما تقدم من الكلام قاصراً على الوجهة الادارية السياسية فقط بل هنالك شبه عظيم في الشؤون الاقتصادية ايضاً بحيث يجوز لنا ان نقول ان ادارة الامور الاقتصادية في الدولة تماثل الادارة المنزلية فالتبذير والتقتير وبسط اليد وقبضها واضاعة الاموال سدى وسوء الاستعمال قصداً والجهل بالحصول على الموارد وطريقة توزيعها هي في الاسرة كما هي في الدولة لكن العيار مختلف طبعاً لان الاسرة دولة صغرى والدولة اسرة كبرى

ومما يسترعي الانتباه ان هذا الاتصال الوثيق بين الاسرة والدولة لم يكن قائماً على الشبه فقط بل هو اتصال تدرجي نشوئي كما سيتبينهُ القارىء من كلامنا ، ويزيد في إحكام هذا الاتصال ان الفرد وهو طفل يتعلم في المجتمع العائلي معنى المعيشة والتآلف مع غيره وتكون القواعد التي مشّاه عليها والداه اول الدروس العملية التي تلقاها في الانقياد والطاعة الى الشريعة، اما ولعه باهله « الاكارم » وفخره باسرته «الشريفة» وبالتقاليد « المقدسة » التي ورثها « كابراً عن كابر » وتعلقه بالبيت « الرفيع » الذي سكنهُ وباولاد الجيران « النبلاء » الذين لعب معهم فكل ذلك يولد في نفسه شعور الاخلاص ، وقد عرف فوائد التعاون مع غيره معرفة عملية منذ ما سار مع افراد اسرتهِ في طلب الافراح والحصول على المسرات[1]

﴿اصلاح الاسرة في العالم العربي﴾ : لاجرم ان اصلاح الاسرة في البلدان العربية الناشئة هو اهم توطئة للحصول على الحكومة الصالحة واقوى ضمان لامكان الاحتفاظ بالمجتمع على بنائهِ الحاضر من غير انقلاب خطير في اوضاعه والأسقط حق الاسرة (الجاهلة) في الاستمرار على استبدادها بالابناء واستقلالها بادارتهم والإشراف عليهم، وتكون الاشتراكية المتطرفة حينئذٍ على صواب في اصرارها على وجوب انقاذ الاطفال من براثن الآباء والامهات لان الدولة تكون صالحة على قدر الصلاح في ابنائها العاملين

﴿ اصل الدولة ﴾ : كثير من الناس لا يفرقون بين الدولة والحكومة ، فالدولة هي جمع من الناس انتظموا بالفطرة لتحقيق مصلحة سياسية عامّة ينشدونها لمجتمعهم مباشرة ولافرادهم بالواسطة . ولكي يكون هذا الجمع دولة ذات سلطة بالمعنى المتعاوف لا بدّ له (اولاً) من اداة سياسية تدعى حكومة قوامها هيئة من الموظفين يدعون حكاماً (ثانياً) من مجموعة شرائع او قواعد مدوّنة او مستظهرة تعين حدود هذه السلطة العامة وطريقة تنفيذها

— فالحكومة اذن هي القوة المتسلطة في المجتمع السياسي او هي الاداة التي تنفذ رغائب الدولة وسواء أ كان شكلها ملكيًا ام جمهوريًا ، نيابيًا ام استبداديًا فهي الاداة التي تمثل قوة الدولة، ولا تتغير هذه الحقائق ما لم تكن الحكومة مطية لتنفيذ رغائب اهل المصلحة من الجماعات الاخرى المعتدية ، وحينئذٍ تدعى حكومة الاجنبي القاهر ولو كانت في شكلها على احدث طراز في الديمقراطية،وقد رأينا دولة من هذا النوع لم ينفعها لا دستورها الضخم ولا مجلس نوابها الفخم ولا رئيس جمهوريتها لمّا محاها من الوجود بجرة قلم رشيقة مندوب اجنبي ! ومن الزيادة في النكاية ان هذا المندوب نفسه فرض على مكلفيها منذ سنتين ديوناً

(1) Government & People, 282,

اجنبية تبلغ الملايين من الجنيهات من غير ان يستشير واحداً من نوابها مما يخالف ابسط قواعد الاستقلال — يعني قاعدة « لا ضرائب من غير تمثيل » — ومع ذلك فالباحث يعرض نفسه للتهم اذا هو لم يقل عن هذا المال ما قاله رئيس هؤلاء النواب من انه ثمن الاستقلال الذي نالته بلاده على ايدي الفاتحين المنقذين !

وقد بدرت بوادر الانتظام السياسي من حدوث اشراف سياسي عام وخضوع المنتظمين لقواعده منذ تألفت العترة الاولى وتكاثرت بالتوالد والتبني حتى صارت قبيلة ومنذ اخذ بعض الافراد فيها يخرجون مجتمعين بشكل سرايا تجوب الاطراف للصيد والقنص ، وهذا الاشراف السياسي والخضوع له امر لا بد منهُ لكل جماعة من الناس دخلوا في دور من التعاون والاشتراك ، واما الطريقة التي يتم بها فهي حدوث سلطان او هيئة معينة محدودة تدير شؤونه ويخضع الافراد للاوامر التي تصدرها

ويؤيد هذا الرأي من جعل لحمة النسب اساساً للانتظام الدولي الرئيس (ودرو ولسن) فقد جاء في كتابه (الدولة) قوله « يجب ان يكون تاريخ الحكومة في فجره واحداً عند جميع الشعوب الراقية ، وان تتجلى بوادره في النظام العائلي » واستدلَّ من الاحوال التي كانت عليها تلك الامم التاريخية المركزية على ان التنظيم الاجتماعي وما تولد منه من تأسيس الحكومات هو وليد القرابة وان الروابط الاولى التي بني عليها الاجتماع والدواعي الاصلية التي سمحت باحداث السلطة الحكومية هي في الاصل واحدة — هي لحمة النسب سواء أكان هذا النسب صحيحاً ام ملفقاً [(١)]

❁ نشوء الاوضاع الحكومية ❁ : ولكي يحيط القارىء بالتدرج الحقوقي الشرعي الذي لازم الالتحام والتكاثر في الاقوام بطريق الاتحاد والتوالد والغزو والفتح نفرض له مثلاً من قبيلة كقبيلة (الرولا) النازلة باطراف سورية فهب ان هذه القبيلة البسيطة التي تمثل الاوضاع الحقوقية البدوية التي كانت في الاعصر الخالية تكاثرت بالتوالد والتبني والفتوحات الموضعية فنمت نمواً عظيماً حتى الجأها العوز وقلة الكلأ الى اكتساح المعمور فاستولت على (حوران) واستملكت الاملاك واستأسرت الاسرى ووضعت يدها على السائمة وسائر انواع الماشية ففي تلك الساعة تتغير الوضعة الشرعية التي عليها هذه القبيلة لان جميع الطوارىء التي طرأت تتطلب سنناً جديدة في معاملة المغلوبين وادارة شؤونهم وممتلكاتهم التي سلمت من النهب وحفظ الامن بينهم وتوزيع الكسب المسلوب منهم وتعيين العلاقات بين الغالب والمغلوب وغير ذلك من الضرورات الشرعية المستجدة التي عبر عنها المشترعون المتأخرون بقولهم « تتغير الاحكام

(1) W. Wilson, The State, p. p. 2, 3, 13.

بتغيير الازمان » لا جرم ان شيخها (النوري بن شعلان) وهو السيد المطلق المطاع في القبيلة يضطر الى اتخاذ الاجراآت الادارية التي توافق هذه الطوارىء مع محافظته على عادات سلفه وتنفيذ التقاليد التي درجت عليها القبيلة فيصبح والحالة هذه كما قال « الموجز في علم الاجتماع[1] » عن زملائه الشيوخ مشترعاً يقضي في الشؤون لفض الخلافات وهذا يعني انه صار (القاضي الاكبر) في الجماعة . وعلاوة على ذلك فقد كان للشيخ الزعيم في الاقوام الابتدائية عمل اقتصادي بالاضافة الى منصب الحاكم الذي كان يشغله فلم يكن ممثل الآلهة وخليفتها على الارض فقط بل السيد المالك لرقاب النساء والاولاد والمستأمن على ممتلكات الجماعة وهكذا اجتمعت في قبضة يده في تلك الاعصر السحيقة الوظيفة الثلاثية الآتية : القضاء والتشريع والاجراء وهو السلطة التنفيذية

* * *

لا جرم اننا نرى في هذه النظم الاهلية الخالية التي قامت على صحة النسب تلك الوحدات المؤتلفة او الجماعات الاصلية التي تتألف منها اسس الدولة واركانها وذلك عندما يسكن افراد هذه الجماعات المدر ويتخذون الطين مقراً ثابتاً لهم ويصبحون غزاة فاتحين يملون ارادتهم على المغلوبين كما املى الغطغط ارادتهم على الحجازيين ولا نبالغ اذا نحن قلنا ان هذه العناصر الاجتماعية الجديدة الناشئة عن الهجرة والغلبة والكسب هي عناصرها المقام الاول في تنظيم الدولة . بل ان بعض العلماء امثال الاستاذ (كومونس) ذهبوا الى ان التملك الخاص هو الباعث الاول على تأسيس الدولة وان التطاحن بين الطبقات للحصول على ادارة الممتلكات المنقولة وغير المنقولة واستثمارها افضى بالضرورة الى التسوية والخضوع للنظام، فالدولة بهذا المعنى تكون قد اشرقت عند ما مد اول رجل يده الى المنافع العامة التي كانت مشاعة للجميع وادعى انها أصبحت ملكه الخاص واخذ يضارب ويحارب من اجلها

، لكن القبائل متى استقرت ونمت وتكاثرت تأخذ قاعدة تنازع البقاء تعمل عملها فيها فتتلاشى قبائل وتتحد قبائل شأن كل صراع جدي بين الاحياء . ويجري الاتحاد غالباً على قاعدة استعباد الغالب للمغلوب واتخاذه خولاً وربما جرى على اساس الامتزاج السلمي الاختياري . وبديهي ان تنشأ من مثل هذه الاحوال والملابسات الشرائع التي تبين سلطة الفريق الواحد على الآخر وتدل على المطالب التي تقتضيها الطوارىء التي طرأت بعد الاتحاد بنوعيه السلمي والحربي

(1) Outline of Sociology, P. 165.

بناء الدولة

﴿العوامل النافذة في بناء الدولة﴾ : قد يتساءل الباحث الاخلاقي ان يعلم ان انفذ البواعث اثراً في تأليف الدولة باعث اناني مزدوج مؤلف من عاملين اثنين جمع الثروة وحب التسلط على الناس. ولكن ماذا يفيد الاستياء وماذا تنفع الحوقلة ومعظم الاوضاع التي يباهي بها البشر كوضع الزواج الذي شرحناه يبتدىء حقيراً ذا فجر مظلم ثم لا يلبث ان ينطبع بطابع الانسانية اللألاء؟ ويلوح لنا ان الاستئثار والطمع والخوف والشهوة والظلم والانانية وغير ذلك من البواعث الطبيعية كل ذلك كان له الشأن الخطير في تأسيس اوضاعنا الاجتماعية مادية كانت ام معنوية

وقد دلّ التاريخ على ان عامل جمع الثروة كالكسب الذي يكسبه الغزاة من ماشية وسائمة واماء وعبيد يؤول الى تقوية الروابط الحكومية وتأييد قوة الفاتحين ونفوذهم بالنظر الى ما تجلبه الدولة من المنافع المادية ناهيك بالحاجة التي يشعر بها سواد الناس الى النظام واجراء العدل في توزيع هذه المنافع — وهو وظيفة الحكومة طبعاً

ومن الامثال التي نضربها على ذلك ان الملك عبد العزيز بن سعود ملك نجد والحجاز اليوم كان في بداءة القرن الحاضر لاجئاً الى الكويت بسيطاً عند اميره الشيخ مبارك بن الصباح لان آل الرشيد كانوا قد احتلوا مواطن آبائه واجداده وانتزعوا السلطة منهم وابن السعود هذا هو رجل شجاع ذو عزيمة صادقة وطموح وثاب فوطد النفس على العودة الى نجد واخراج آل الرشيد المغتصبين منه فدبر امره في ليل حتى تمكن من اغتيال عامل الرشيد في فراشه وبمساعدة كمين ابقاه خارج القصر تمكن من ترسيخ قدمه في البلاد ثم اخذ ملكه في التكامل والاتساع الى ان امتد الى البحر الاحمر غرباً وسورية والعراق شمالاً ولكن هذا الاتساع ما كان ليتم لولا المنافع التي جناها الغزاة الفاتحون من جنوده واعوانه . فزج هذه المنافع الاساسية بدعوة روحية جذابة كالدعوة الى التنزيه ومحاربة الشرك ولا سيما الاستيلاء على اموال المشركين جزاء لهم كل ذلك ألّف من همج النجديين خصوصاً ممن يدعون « غطغطاً » جيشاً لجباً متحمساً اكتسح هذه الاصقاع المترامية الاطراف ولم يتورع ان يطبق على الكثير

من سكانها قاعدة القتل العام — ولو على ابواب مكة — باسم التوحيد والتطهير من الشرك ! فالقارىء يرى من هذا المثال الملموس كيف ان الباعث الاول على تأسيس هذه المملكة المترامية الاطراف هو باعث طبيعي يرتكز على شعور بالثأر متأصل في العرب ، فلما ذر عليه القائمون به فلفلاً وبهاراً من دعوة اخلاقية خيالية كمالية صلح طعمه وصار لذيذاً حتى في افواه الآنفين المتأنقين ناهيك بالشرهين الشرسين . ولاحظت في المدد التي اقمتها في الصحراء ان كل دعوة كائنة ما كانت متى وضعت عليها التوابل الروحانية المقبلة وكان من ورائها نفع مادي تلاقي رواجاً عظيماً ولا سيما عند القبائل التي تشكو القلة وتعاني المحل . ولا نخطىء اذا نحن قلنا ان المؤمنين بمثل هذه الدعوة عن اخلاص طاهر لا تمازجه المنافع المادية هم الاقلية . واما سواد الناس فهم لا يدركون الكمال عادةً الاّ اذا كان مصلّحاً طعمهُ بالمنافع فلا يصلون لله مثلاً الاّ اذا اعتقدوا ان تحت السجادة في الدنيا ديناراً وهاجاً وفي الآخرة قصراً حافلاً بالحور العين

ويمكننا ان نضع القاعدة العامة الآتية عن الاقوام التي لا تزال على الطريقة الفطرية العمياء في نموها — يعني انها لم تدخل بعد في طور الارتقاء الغائي الذي يكون التحول الاجتماعي فيه غاية يدركها الناس بعقولهم — وهذه القاعدة هي ان التابل الذي يذر على الباعث المادي الاصلي ليجعل طعمهُ لذيذاً هو مقياس ارتقاء الشعب الذي يذره . بل ان هذه القاعدة تنطبق على اي شعب كان ما دام سواده كرة تتقاذفها صوالج الدعايات المزوقة فتتلقفها ايدي اللاعبين

﴿تأثير الدين في تأسيس الدولة﴾ : ومن العوامل المتجلية في تأسيس كيان الدولة العامل الديني منذ الاعصر القبلية الاولى الى اليوم فقد ايد الدين الاستقرار السياسي وساعد على حفظ النظام بما اتاه من تعضيد الشيخ الزعيم وتثبيت الفاتح العظيم وذلك للمصلحة التي توخاها من مقامهما الرفيع ولا يزال الملوك والقواد الى يومنا هذا حتى في ارقى البلدان الغربية مظهر عطف الاكليروس ومجلى تأييده . وزاد في سلطة الشيوخ والفاتحين في الاعصر السحيقة ان الكهنة كانوا يجمعون الى الخوف من الآلهة والفزع من الاصنام والارواح الخوف منهم . وقد مثل الشيخ الزعيم والفاتح العظيم سلطة هذه المعبودات في القرون الاولى كما مثلاها في القرون الوسطى فلم يكن الفرق كبيراً بين فرعون الرب الاعلى وشارلمان ظل الله على الارض . وبالانتقال من الوضع القبلي البسيط الى الوضع الدولي المعقد انتقل الدين من شكله المحلي الاهلي الى شكله القومي العام كما حدث عند الاسرائيليين اذ تغلب دين احد الاسباط على اديان الاسباط الاخرى فاكتسحها ومن ثمّ صار الدين اليهودي القومي ؛ وحينئذٍ انتقل (يهوه) من بقعته المحدودة الى مقامه الشامل — من صنم سبطي محلي لا يختلف كثيراً عن اللاة والعزى ومناة الى اله قدير يحكم على المشارق والمغارب

﴿اشراك الآخرين في الحكم﴾ : وغني عن البيان ان اتساع القبيلة على الطريقة التي ذكرناها ادّى الى رغبة الناس في الحصول على النظام والتمتع بالحماية تحقيقاً للمصلحة العامة لكن القيام بجميع الوظائف

التي يقتضيها هذا التحول يتعذر على اي فرد من الافراد ولو كان من الجبابرة فلو اصرّ (الشيخ النوري بن شعلان) في المثال المتقدم او اصرّ المرتزقة من اعوانهِ ممن يتمتعون بنواله مباشرة على ان يبقى هذا الامر جميعاً في قبضة يده لاختل النظام وتألب عليهِ الناس في الداخل والخارج. لاجرم انهُ مضطر الى اشراك غيره في الحكم من انتداب من يساعده في التشريع والقضاء والتنفيذ لان سياسة جمهور كبير من الناس والاشراف على اعماله ومعاملة افراده بالعدل هي كلها امور تدل على التعقد الذي طرأ مما لا يقوى الشيخ الزعيم على معالجته كما يعالج الوالد الشؤون العائلية فلا بد والحالة هذه من اختيار المنتدبين الصالحين للاعمال وهذا الانتداب يحدث تنوعاً مستمراً في الوظائف الحكومية وهو تنوع يدل على طريقة تأليف الدولة

ومن اكبر البلايا التي اصيب بها الحسين بن علي ملك الحجاز وزعيم الثورة العربية طمعهُ في ان يبقى «شيخاً زعيماً في القبيلة» يتناول الاشياء كبيرها وصغيرها بقبضة يدهِ مما كان سبباً عظيماً في انهيار ملكه ، وعسى ان يتعظ الآخرون من ملوك العرب ممن يجرون على طريقتهِ الهرمة العتيقة هذه اما بسائق الغفلة او بتحريض المرتزقة من حواليهم . وفي وسعنا وضع القاعدة الآتية وهي ان كل قطر متسع متشعب يبلغ بهِ الولع بالمحافظة الى درجة انهُ يحاول البقاء مقتصراً على سلطة «الشيخ الزعيم» او على السنة التي استنها بمفرده من غير اعتبار للطوارئ ولا اشراك غيره معهُ في الامر هو قطر رجعي يطلب العودة الى الاوضاع القبلية الاجتماعية البائدة

﴿النظرية النشوئية في تعليل الدولة﴾ : كما تولدت الاسرة من سعي الرجل والمرأة لأن يعيشا معاً بالالفة والتعاون ويستولدا الاولاد ويحضناهم كذلك الدولة نشأت من سعي الناس لأن يعيشوا معاً متكاتفين متآلفين تحقيقاً لغايات مشتركة يطلبونها فلم تكن الدولة والحالة هذه بداية المجتمع الانساني ولا الغاية الاختيارية التي نشدها الانسان بمحض اختياره وبعد نظره بل هي احدى الوسائل المتأخرة التي توصل بها بفطرته وبطبيعتهِ للحصول على الهناء الاجتماعي وذلك بما استجد من نظام معين خضع له وهذا النظام هو النظام السياسي

فالدولة اذن هي فرع من فروع تلك الشجرة الاجتماعية الباسقة التي انبتت فروعاً اخرى من أوضاع خطيرة مثل وضع الزواج والاقتصاد والدين . وكما أن هذه الاوضاع متأصلة في المجتمع ومشتبكة بهِ اشتباك السدية باللحمة كذلك الدولة هي ظاهرة من ظواهره الجوهرية . ولا يظنن احد ان تعيين الزمن الذي بدأت فيهِ الجماهير بالخضوع للادارة السياسية والاشراف «الحكومي» العام هو أهون من تعيين الزمن الذي اتصل فيهِ الرجل بالمرأة لتأسيس الاسرة بل كلاهما حادث مع المجتمع وملازم له. وليست حاجة المجتمع الى التعاون والنظام والحماية العامة دون حاجته الى استيلاد الاولاد والا لما اختلفت الجمعية البشرية كثيراً عن قطيع من الجواميس يرود المستنقعات في الهند او سرب من القردة يجوب الغابات في افريقيا

معرض المذاهب السياسية

من جمهورية افلاطون إلى شيوعية روسيا

﴿علم السياسة﴾ هو البحث في اشكال الحكومات التي نشأت على سطح الارض سواء منها الماضية والحاضرة ، و «حكمة السياسة» هي البحث في اصل المجتمع البشري والعوامل التي افضت الى تأليفه وجعلت الانسان مدنياً بالطبع . وهذا التفريق بين هاتين الناحيتين من موضوع السياسة العام هو تفريق حديث لم يصل اليه الكتّاب الا في الاعصر المتأخرة. على ان معظم الذين عالجوا الموضوعات السياسية لايزالون يمزجون الواحد منهما بالآخر مزجاً ملتحماً في حين يتطلب التنقيح العلمي مراعاة هذا التفريق . وعندنا ان خير ما ينير الموقف السياسي الحاضر ويزوّد القارىء بالمعلومات التي تساعده على فهم التدرج الحاصل في الآراء السياسية وتطبيقها ان نستعرض امامه طائفة من الائمة الذين غادروا وراءهم رنة في العالم السياسي ونتناول بالتحليل ما ذهبوا اليه سواء من وجهة « علم السياسة » ام من وجهة « الحكمة السياسية »

﴿ افلاطون ﴾ انافلاطون هو أسبق من وصلتنا مدوّناتهم عن الشؤون السياسية والاجتماعية فقد عاش من سنة ٤٢٧ الى سنة ٣٤٧ ق.م . وجاء في كتابه (الجمهورية) الذي سدّ ثغرة كبيرة بنقله الى العربيـة حديثاً الاستاذ حنا خباز الشيء الكثير عن المعيشة الاولى البسيطة الحرّة وكان يرى ان تفتح ابواب الارتقاء على مصاريعها للناس جميعاً بالتثقيف والتهذيب الاّ العبيد فعليهم ان يحملوا على اكتافهم اهل التفرغ ويقوموا بخدمتهم . وعنده ان يمنح رجال التعليم اسمى المقامات في الحكومة وان الطبقات المهذبة الخاصة — وهي الطبقة الارستقراطية في عرفنا الحاضر — يجب ان تقوم بسندها الطبقات العامة الاعتيادية، ومن الغريب مع كل هذه الارستقراطية ان يكون افلاطون شيوعياً حتى في المرأة

ولما كانت معظم النظريات التي وضعت لتعليل السياسة او اسبابها هي نظريات عن طبيعة الانسان الاصلية فلا عجب ان نرى افلاطون من الذين نهجوا هذا المنهج ، فقد ذهب في جملة

ما ذهب اليهِ الى ان في النفس الانسانية اجزاء ثلاثة الاول الجزء العالم وهو الحكيم . الثاني الجزء الشجاع المتحمس وهو الروحي . والثالث الجزء الشهواني وهو النهم او الحيواني . يقابل ذلك اجزاء ثلاثة في بناء الجمعية البشرية متى كانت صحيحة التركيب وهذه الاجزاء هي (اولاً) الملك الفيلسوف كما تصوره افلاطون وقد دلّ به على ضرورة تغلب العلم في المجتمع السياسي على الروح والشهوة — يعني يجب ان يحكم حجّاب هذا الملك في « الجمهورية الكاملة » باعتبارهم المظهر الذي يتجلى فيه مبدأ تفوق العلم . (ثانياً) الجيش الشجاع المتحمس ويكون اداة اولئك الحجاب ينفذ مقتضيات علمهم ويسير تحت لوائهم (ثالثاً) الدهماء أو عامة الناس وهم اهل الشهوة الخاضعون الخانعون والمسوقون إلى الاعمال المنتجة في المجتمع . وبديهي كما قال الاستاذ (كول) ان مثل هذه النظرية السياسية هي نظرة ارستوقراطية عظامية ينبذ صاحبها الفكرة الديموقراطية العصامية وراء ظهره ويمر على كلمة التساوي في الحقوق مر الكرام إذ يقول الواجب ان يقبض على زمام الحكم في الجمهور الجزء الاصلح لخدمته كما يجب ان يتسلط في الفرد عقله على سائر ملكاته . ويقوم المرء بعمله الاجتماعي وهو وظيفته التي خلق لها بحسب الاجزاء الثلاثة التي تتألف نفسه منها ونسبة تفوق هذه الاجزاء بعضها على بعض . فالحكيم وهو ذو الملكة العقلية المدركة المتفوقة خلق لان يكون حاكماً ، ذلك لانه اعرف الناس بالمصلحة واما الآخرون فلا حق لهم في هذا الامر ولا شأن لانهم جاهلون

***

ولعمري ان هذا الموقف الذي وقفه افلاطون في القرن الرابع قبل المسيح لا تزال تقفه عصبة المحافظين الارستوقراطيين في القرن العشرين من ادعائها بأن مواهبها العقلية وعنعناتها المتوارثة تجعلها وحدها اهلاً للاضطلاع بالحكم ، وهذا باب في النظرية السياسية لما يقفل ، وقد ملأ الكتّاب اكوام المؤلفات والرسائل في علاجه ولما ينتهوا . وكأني بافلاطون يقول للاجيال اللاحقة هذا رأيي فانا ارستوقراطي صرف احرّم ممارسة الحكم على الذين لم يخلقوا له فما هو رأيكم ؟ بل ما هي السلطة السياسية ؟ اهي شيء من حق الانسان كما تساءل الاستاذ (كول) لا يتنازل عنه وقد اكتسبه بمجرد كونه انساناً يمشي على اثنتين ام هي شيء يتعلق بالعلم والمعرفة ؟ وهل على الخبير الفني المتخصص ان يعمل باوامر يتلقاها أم هو نفسه مصدر هذه الاوامر ؟ وهل الاطباء يديرون شؤون المرضى في المستشفى أم المرضى يديرون شؤون الاطباء ؟ وهل السياسة ميدان للاخصائيين المتسلحين بسلاح الفن أم هي للنساء والرجال العاديين ؟ وهل الديموقراطية تعني هذيان اصوات متنافرة بعيدة عن الانسجام أم هنالك شيء من الحق في القول المأثور « اصوات الخلق اقلام الحق » ؟ ووراء ذلك كله سؤال اجدر بالاهتمام خلاصته ما هو الانسان ؟ وما هي طبيعته ؟ . فعلينا ان نعرف هذه الامور أو نصرف جهد الطاقة

للاحاطة بكنهها قبل ان نصدر حكمنا كيف يجب ان يحكم الانسان أو ان يحكم عليه [1]

(ارسطوا المعلم الاول) هو تلميذ افلاطون واول من لاحظ تدرج الحكومة ونشوء النظام الاجتماعي وقد عالج الشؤون السياسية معالجة دقيقة حتى ان بعض آرائهِ لا يزال يعمل بهِ الى اليوم . ومن ادقّ ملاحظاته قوله عن الحكم انهُ يأخذ شكلاً دورياً متعاقباً فالحكم الملكي في نظره هو الشكل الاساسي للحكومة ثم يعقبهُ الشكل العظامي الارستوقراطي وهو حكم النخبة المنتخبة وهذا يؤول الى الاوليغاركية وهي حكومة فاسدة قائمة على اقلية متآمرة متضامنة ثم تأتي حكومة الاكثرية وهي الديموقراطية وتختلف عن الديموقراطيات الحاضرة بانها مؤلفة من طبقات ، ويخلف هذه الحكومة الصالحة حكومة مؤلفة من الغوغاء اطلق عليها اسم (اوكلوكراسي) فيختلط الحابل بالنابل ويصير الامر والنهي بيد الحمقى والطائشين . وعندما تبلغ الفوضى هذا الحد تهب « الدكتاتورية » من مرقدها وهي حكومة القاهر الحازم فيعاد النظام الاجتماعي الى سالف عهده . وعندنا ان هذه الملاحظة من خير ما خلفهُ المتقدمون في علم السياسة لانطباقها على الواقع كثيراً فمحمود شوكت باشا القائد العثماني الكبير مثلاً كان هذه اليد الحازمة التي انقذت الدولة العثمانية في سنة ١٩٠٩ من غوغاء جمعية رجعية اسمها سخيف اسمهُ (درويش وحدتي) واطلق عليها اسم (الجمعية المحمدية)

ومن الامثال الصالحة على ملاحظة ارسطو هذه السنيور موسوليني وظهوره بعد الفوضى التي كانت ضاربة اطنابها في ايطاليا ، والغازي مصطفى كمال باشا ونهوضه بالترك من بعد تمزقهم والتصدع الذي كان يهدد بنيانهم بالانهيار من الاساس عقيب انكسارهم في الحرب العالمية

وكانت الطريقة الخاصة التي سار عليها الاغريق المتقدمون في نظامهم السياسي ان المدينة الواحدة من مدنهم كانت تؤلف دولة قائمة بذاتها وكان جميع الافراد يشتركون في اتخاذ القرارات مباشرة من غير ان ينيبوا عنهم احداً لان الطريقة النيابية الحاضرة كانت مجهولة لديهم . وكانت الاكثرية في الاجتماع تعين في بعض الاحيان بشدة التصفيق من المجتمعين وفي غير ذلك بالاقتراع والانتخاب . وكانت زعامتهم ومقاليد امورهم بيد من يمتلك شخصية متفوقة عليهم ومعرفة بشؤون القيادة . ولم ير ارسطو في جميع ذلك شيئاً غير طبيعي يحتاج الى التعليل بل قال عن الانسان انهُ حيوان مدني بالطبع فيكون المجتمع والحالة هذه ظاهرة طبيعية نشأت من فطرة الانسان وان الدولة البلدية (City-State) هي في نظره وليدة الاسرة ودرجة لاحقة في النشوء من بعدها

(1) Outline of Modern Knowledge, p. 705.

الخلافة الاسلامية

وتتجلى المذاهب السياسية المتنوعة والآراء التي اشار اليها افلاطون خير التجلي في تاريخ الاسلام عامة والعرب منهم خاصة. وليس من المتعذر على الباحث مثلاً ان يرى المبادىء السياسية مخلوطة في الجيل الواحد والعمل الواحد خلطاً متماسكاً متشابكاً . فانتخاب اول خليفة ليتولى زمام المسلمين في دينهم ودنياهم هو عمل ديمقراطي في مبدئه ولكنه يختلف عن الاساليب الديمقراطية الحاضرة بحصره الانتخاب في اهل الحل والعقد بصورة مبهمة ليس فيها قاعدة يركن اليها ومعنى اهل الحل والعقد هو النخبة المنتخبة وهي الطبقة الارستقراطية طبعاً فهذا الحصر هو اقرب اذن الى الارستقراطية منهُ الى الديموقراطية والعامة كانوا بعيدين عن التدخل في شأنهِ وليس لهم صوت نافذ في اقراره او في رفضه لأن القواعد التي طبقت منذ اليوم الأول لم تعين لهؤلاء العامة مقاماً في الاقتراع أو في الانتخاب بل اعتبرتهم كما اعتبرهم افلاطون اداة تساق من غير ارادة ولا اختيار . وكان الخليفة والحق يقال رئيس جمهورية إلا انهُ تمتع بحقوق لا يحلم بها (هوفر) في الولايات المتحدة . وقد تجلت هذه الحقوق واشتدت عندما صارت الخلافة ملكاً متوارثاً وصار اصحابها يدعون الوكالة عن الله في كل شيء ، يدلك على ذلك خطبة للمنصور بمكة جاء فيها «ايها الناس انا سلطان الله في أرضه ، أسوسكم بتوفيقه وتسديده وتأييده ، وحارسه على ماله ، اعمل فيه بمشيئته وارادته واعطيه باذنه ، فقد جعلني عليه قفلاً ان شاء فتحني لاعطائكم وقسم أرزاقكم وان شاء ان يقفل عليَّ أقفلني» ، ولم يعدم الخلفاء من الفقهاء من جوَّز لهم مثل هذه الحقوق كما فعل صاحب « مطالع الانوار » بقوله عن الخليفة ان له حقَّ التصرف «في رقاب الناس وأموالهم وابضاعهم» . على انهُ مع كل النفوذ الذي كان للخليفة لا يجوز ان يدعى «مطلقاً» ابداً ، لأن السلطة ليست له وانما هي للدستور — للشريعة التي كان حامياً لها ومسؤولاً عن تطبيقها ، وكانت الحيدة عنها اعوجاجاً لا يأبى المسلمون — ولو نظريًّا — ان يقوّموه بسيوفهم . فاذا كان الاستبداد هو ان يعمل صاحب الامر بمشيئته ويقتضى هواه ويدعي انه هو الدولة كما كان حال الملوك المستبدين في بلاد الغرب فالخليفة بهذا المعنى لم يكن مستبدًّا وانما اعطى لنفسه من الحق في فهم الدستور وتأويله وتطبيقه ما يخولهُ قوة صارمة . ولو اردنا أن نجمل الحالة التي كان عليها المسلمون في الصدر الاول بكلام مألوف في عصرنا لقلنا انهم انتخبوا رئيس جمهورية الى أجل غير مسمى بطريقة انتخاب محدودة تولتها الطبقة الارستقراطية وهم أهل الحل والعقد وخوّلوه في القضاء والتنفيذ سلطة لا حد لها وجعلوه مسؤولاً عن الدستور بطريقة عنيفة تكون حياته فيها عرضة للخطر، ولما

كانت الطريقة البارلمانية مجهولة في تلك الاعصر فمحاولة تعيين هذه التبعة اوالمسؤولية كثيراً ما أدت الى الفتن والاضطرابات وسفك الدماء بين المسلمين لانهم لم يكونوا عارفين بحل سلمي يرضاه الجميع أو الاكثرية المطلقة في معالجتها . وعلى القارىء أن يتذكر ان الخليفة مهما كان قادراً وعظيماً لايستطيع من الوجهة النظرية أن يغير شيئاً في الشريعة لانسلطتها مطلقةلاحد لها تصغر أمامها كل سلطة بل دائرته ودائرةقضاته وعماله محصورة في تأويلها وتطبيقها . ويجد علماء السياسة لذة كبيرة أن يروا بعض الكتاب المسلمين المتقدمين يذهبون الى أن الامة هي مصدر السلطة التي يتمتع بها الخليفة كما فعل أبو بكر الكاساني المتوفي سنة ٥٨٧ والمدفون بظاهر حلب. فقد ذهب في كتابه «البدائع» إلى أن الخليفة بمنزلة مندوب أو رسول عن المسلمين لذلك اذا عُزل او خُلع لسبب من الاسباب لم ينعزل قضاته بل هم على أعمالهم قائمون وذلك لان «القاضي لا يعمل بولاية الخليفة وفي حقه بل بولاية المسلمين وحقوقهم ، وانما الخليفة بمنزلة الرسول عنهم ،لهذا لم تلحقهُ العهدة كالرسول في سائر العقود ، والوكيل في النكاح ، واذا كان رسولاً كان فعله بمنزلة فصل عامة المسلمين »[1]

ــ ولئن كانت الخلافة في بدء الاسلام نظاماً جمهوريًّا ارستوقراطيًّا فقد تحولت في زمن بني امية الى ملك واصبحت دمشق الشام على ايدي الخلفاء او الملوك الامويين حصن العروبة الحصين وكانت الرابطة في الشرق كما كانت في الغرب رابطة دينية والاسلام كما هومعروف دين اممي ارسل الى جميع البشر على السواء الا أن كثرة الداخلين فيه من الاقوام الاخرى جعلت مركز العرب وحماته حرجاً خصوصاً لانهم كانوا بعد في دور التأسيس والفتح،ولولا هذه النعرة العربية التي تجلت في بني امية لكان الخطر على الدولة الحديثة خطراً حقيقيًّا ولكان من المتعذر التنبؤ بما عسى ان يحدث يومئذٍ من التحولات في النشوء الديني في الشرق الادنى

ومما يسترعي الانتباه في امر الخلافة ويشير الى معنى من المعاني السياسية الحديثة المهمة عهد الطاعة للخليفة فقد اطلق المسلمون على هذا العهد اسم البيعة وكانوا « اذا بايعوا الامير وعقدوا عهده جعلوا أيديهم في يده تأكيداً للعهد فاشبه ذلك فعل البائع والمشتري »او اشبه « المقاولة الاجتماعية » المبنية على فكرة التراضي والتي شرحها (جان جاك روسو) وجعلها الاساس المشروع للحكومات فكانت سبباً للثورة الفرنسوية . ولا يضير هذه المبايعة الحرة ما أصابها من الاكراه في بعض الاحوال والانتقال من المصافحة بالايدي الى تقبيل الارض او اليد او الرجل او الذيل او غير ذلك من علامات الخنوع على الطريقة الغريبة عن العرب والتي دعاها ابن خلدون « كسروية »[2]لان الاصل هو التعاقد الحر كما هو ظاهر اولاً من اللفظ الدال على البيع والشراء وثانياً من العمل الذي يدل على التراضي بالمصافحة يداً بيد

(١) الاسلام واصول الحكم ص١٠ (٢) « المقدمة » ص ١١٧١

﴿ ابن خلدون ﴾ ويكون بحث السياسة في الاسلام ناقصاً اذا لم يذكر ابن خلدون بشيء من الايضاح لان اسمهُ سيبقى مقروناً دائماً بالطريقة العقلية المنطقية في معالجة التاريخ الاسلامي، ولا تقل قيمة كتابته بهذا المعنى عن اثمن مخلفات المتقدمين السياسية من اغريق ورومان. وهو الاقنوم الاخير في الثالوث الاجتماعي الذي يدخل فيهِ افلاطون وارسطاطاليس، وقد ذكر في « المقدمة » ان الخلافة الخالصة كانت في الصدر الاول الى آخر عهد علي ومن ثمَّ تحوَّلت الى ملك ولكن بقي هذا الملك محافظاً على معنى الخلافة بحيث لم يتغير فيها الاَّ الوازع فقد كان دينيًّا ثم انقلب عصبية وسيفاً ولكن معنى الخلافة ايضاً زال من بعد هرون الرشيد وولده لزوال عصبية العرب فلم يبق منها الاَّ الاسم وبلغ التحول في زمن ابن خلدون ان اصبح الامر ملكاً بحتاً « فكان الناس يدينون بطاعة الخليفة تبركاً والملك بجميع القابه ومناحيه لهم وليس للخليفة منهُ شيء »

ومن الطف ما عمله ابن خلدون انهُ فرق بين الخلافة والملك والسياسة فجعل الملك حمل الناس على ما يقتضيه الغرض والشهوة، والسياسة حملهم على ما يقتضيه النظر العقلي في جلب المصالح الدنيوية وهو ما يعادل كلمة Politics عند الاغريق، والخلافة حملهم على ما يقتضيه الشرع، وعنده ان السلطتين القضائية والتنفيذية هما في يد رأس الحكومة الاسلامية، وقد أُيّد ذلك بقوله لما كان الجهاد مشروعاً في الملة الاسلامية لعموم الدعوة وحمل الناس على دين الاسلام اتحدت فيها الخلافة والملك « لتوجه الشوكة من القائمين بها اليها معاً، واما ما سوى الملة الاسلامية فلم تكن دعوتهم عامة (هذا خطأ) ولا الجهاد عندهم مشروعاً الاَّ في المدافعة فقط (وهذا من الوجهة العملية خطأ) فصار القائم بامر الدين فيها لا يعنيه شيء من سياسة الملك (وهذا من الوجهة التاريخية خطأ) لانهم غير مكلفين بالتغلب على الامم الاخرى وانما هم مطالبون باقامة دينهم في خاصة انفسهم » (١)

واستجدت في عصرنا هذا مساع اصلاحية غايتها فصل الشؤون الدينية عن الشؤون السياسية تحريراً للاسلام من سلطة اوربا الاستعمارية فكأن المجددين على هذا النمط يرون إن التفريق بين حالة المسلمين المدنية المقيدة بالسلاسل والاغلال وحالتهم الدينية المبنية على عقائدهم الوجدانية يجب ان يفسح للدين مجالاً حرًّا تظهر مزاياه العملية ومقاييسه الاخلاقية بثوبها القشيب مما يؤول بالمسلمين في آخر الامر إلى ترقيتهم المادية والمعنوية ويسمح لهم بتنظيم شؤونهم بما لا يعرضهم للاحتكاك بالسلطة السياسية المتغلبة

بل ان بعض الكتّاب المفكرين ذهب إلى أبعد من ذلك فجعل الاوضاع السياسية حتى في

(١) المقدمة ص ١٦١

الصدر الاول ومنها الخلافة طبعاً ليست من الدين في شيء فالمسلمون اليوم أحرار في نظره غير مقيدين في انتخاب المنهاج السياسي الذي يلائم احوالهم ، ومن هؤلاء الكتاب السيد علي عبد الرازق فقد ذهب في رسالته « الاسلام وأصول الحكم » إلى ان الخلافة وضع سياسي حدث في زمن ابي بكر وان لقب خليفة رسول الله « كان سبباً من أسباب الخطإ الذي تسرب إلى عامة المسلمين فخيل اليهم ان الخلافة مركز ديني وان من ولي امر المسلمين فقد حل منهم في المقام الذي كان يحله رسول الله صلى الله عليه وسلم » (١)

« وكان من مصلحة السلاطين ان يروجوا ذلك الخطأ بين الناس حتى يتخذوا من الدين دروعاً تحمي عروشهم ، وتذود الخارجين عليهم .... حتى افهموا الناس إن طاعة الأئمة من طاعة الله ، وعصيانهم من عصيان الله .... وحرموا عليهم النظر في العلوم السياسية وباسم الدين خدعوهم وضيقوا عليهم ... ثم حرموا عليهم كل ابواب العلم التي تمس حظائر الخلافة وكل ذلك انتهى بموت قوى البحث ونشاط الفكر بين المسلمين .... والخلافة ليست في شيء من الخطط الدينية .... ولا شيء في الدين يمنع المسلمين ان يسابقوا الامم الاخرى في علوم الاجتماع والسياسة كلها وان يهدموا ذلك النظام العتيق الذي ذلوا له واستكانوا اليه »

وغني عن البيان ان الغاية التي وضعها السيد علي عبد الرازق نصب عينيه هي تحرير العالم الاسلامي من الجمود المستحوذ عليه وفك مخالب القرون الوسطى الناشبة في عقليته » فعمله هو عمل اصلاحي اجتماعي جريء ، لكن لئن ساغ هذا الكلام من الوجهة الغائية فهو لا يسوغ من الوجهة التاريخية العلمية لان الاسلام لم يبق على معظم ما كان عليه قبل الهجرة من الاقتصار على التوحيد والتنزيه وهو فضيلته الكبرى وغايته العظمى والدرس البليغ الذي تلقاه كما يقول (اتش . جي . ولز) مما حدث في النصرانية من النظريات اللاهوتية(٢) بل ان خوضه المعارك للدفاع عن حوزته بقوة السلاح حتى افتتح مكة عنوة واخضع العرب المشركين بالقوة أدى بالضرورة إلى تلك القواعد السياسية الدنيوية التي سارت وقواعده الدينية الاخروية كتفاً لكتف ، خصوصاً لان الاسلام دين عملي عالج اموراً واقعة اكثر مما عالج شؤوناً نظرية فليس من المعقول ان يفتتح المدن وتتكلل هامته باكاليل الظفر الباهر من غير ان تكون له قواعد سياسية تمشى البلاد بموجبها، ويتعامل الغالب مع المغلوب بمقتضاها ، ولكن هذا الكلام لا يمنع رجال الاصلاح ابداً ان يدرسوا الدين درساً تاريخياً نفسياً اجتماعياً يؤدي إلى احاطتهم بروح التشريع الاسلامي ومعرفتهم ما هو الجوهر وما هو العرض في جميع ما عمل باسم الدين وتحت تأثيره، فيروا موقفهم السياسي الخاص والقضايا الاجتماعية المتعلقة بهم على ضوء هذا الدرس التحليلي المستند إلى المكتشفات الحديثة ، وحينئذ لاخالهم يصطدمون بشيء

(١) الاسلام واصول الحكم ص١٠١ وما بعد

(2) Outline of History, p 320

من العقبات فيما ينشدون من الاصلاح لان الدين متى كان عملياً في روحه جعل للمصلحة
العامة اعتباراً فوق سائر الاعتبارات

﴿السياسة والدين في القرون الوسطى﴾ من اثمن ما خلفته القرون الوسطى من النظريات
السياسية اصرارها على ان تكون الاخلاق عنصراً قوياً في سياسة الدولة فلا تتجرد اعمال
السياسيين من تلك السلطة الوجدانية التي يؤدي فقدها الى ما نعانيه اليوم من السياسة المادية
التي لا روح فيها او كما يقال ان السياسة عموماً ولا سيما سياسة البسطة والتوسع لا دين لها .
ولكن الناس في تلك الايام افرطوا جد الافراط في ادخال الدين في كل ناحية من نواحي حياتهم
فكانوا يأكلون في الدين ويشربون وينامون في الدين فلا جرم ان تكون السياسة ايضاً باباً من
ابواب الدين وان تعالج شؤون البشر الدنيوية في فصل من فصوله كما تعالج شؤونهم الاخروية.
قال الاستاذ (كول) [١] «وكان الرجل المفكر من اهل القرون الوسطى — وقد بني مذهبه السياسي
على ما تدعيه الكنيسة العالمية من حقها في تسيير الناس على السنّة القويمة — يعالج كل قضية
من القضايا السياسية والاقتصادية كأنها قضية اخلاق لاهوتية. ويتجلى هذا الامر في الشؤون
الاقتصادية في تلك القوانين المنمقة التي تحرم الربا الفاحش وتعين الاحوال التي يحصل فيها
الرجل المسيحي على الربح العادل ، وفي الشؤون السياسية في السعي لاستمداد جميع السلطة
التي تتمتع بها الدولة وجميع القواعد التي تقوم عليها الطاعة في الرعية من مشيئة الله كما هي
متجلية في التوراة والانجيل وفي الملهمات التي هبطت على قلب الكنيسة فنطقت بها ، وقد
تسربل الادراك السياسي الناهض عند اهل القرون الوسطى بسربال الدين الموحى به والتى
هذا الادراك على الآراء المقتبسة من ارسطو ومن الشريعة الرومانية اجازة الكنيسة وتصديقها»

﴿نيكولو مكيافللي﴾ : ومن الرجال الذين نشأوا في اواخر القرون الوسطى وكتبوا في
السياسة على طريقة مبتكرة رجل يدعى (نيكولو مكيافللي) — (١٤٦٩ — ١٥٢٧) وهو صاحب
كتاب الامير الذي نقله الى العربية الاستاذ محمد لطفي جمعة — وقد عالج فيه القضايا السياسية
بنظريات جديدة لا دخل للدين فيها خلاصتها شرح الطرائق الشيطانية التي تمكن الرجل الطموح
من التربع على العروش والقبض على الصوالج فنصح بعض الامراء في ايطاليا بان يسيروا
في سياستهم على منهج دنيوي صرف من حيل ودسائس وفتن لم يسبق لها مثيل حتى ان سلطاناً
قاهراً عاش في القرن العشرين مثل السلطان عبد الحميد لما ترجم له هذا الكتاب استغواه
كثيراً فكان يسترشد به في المدلهمات . وفي عقيدتي ان كتاب «الامير» هذا هو الانجيل
السياسي الذي تسير عليه الدول المستعمرة في الشرق ، فما من تفريق بين الاهلين وتسليط

(١) لما شرعنا في كتابة معرض المذاهب السياسية وجدنا ان نتبع نفس الطريقة التي سلكها الاستاذ
كول من اساتذة جامعة اكسفرد في كتاب «موجز المعارف الحاضرة» وهو من مطبوعات العام الماضي .
وقد نقلنا بعض فصوله بنصها وفي غير ذلك تصرفنا تصرفاً تقتضيه مصلحة القراء في البلدان العربية . فاقتضبنا
واضفنا بحسب المصلحة

طبقة منهم على طبقة اخرى واستنزاف دمائهم جميعاً واخضاعهم للسلطة المحتلة وصرف اذهانهم عن غرضهم الاسمى الا صفحات من هذا الكتاب الغريب كتبت في اوائل القرن السادس عشر (١٦١٣) ونشرت في القرن العشرين . فمكياڤللي هو بهذا المعنى رسول المستعمرين الامين وقد علمهم كيف يحفرون هوة سحيقة بين السياسة والاخلاق وكيف يسوغون غاياتهم بجميع الوسائط مهما كان نوعها وان يشيدوا سلطانهم القاهر — كما يفعل الامير الطموح المجرد من العواطف الانسانية — بالقوة والخداع والقسوة والمراآة والتظاهر بالغيرة الكاذبة

والظاهر ان استفحال المطامع البابوية وحرصها على الاستئثار بالسلطة الدنيوية استئثارها بالسلطة الاخروية وعرضة ايطاليا في تلك الايام للتنازع الداخلي بين صغار الامراء وضعاف الجمهوريات والغزو من الخارج كل ذلك خلق في نفس (مكياڤللي) شعوراً بالحاجة الى اسس سياسية جديدة تسير عليها ايطاليا فيتجدد شبابها ويستقيم امرها وتتحقق وحدتها وتتم سيادتها

ولكن سياسة (مكياڤللي) البعيدة عن الدين لم تؤثر في الخطط التي اختطها زعماء الحركة الاصلاحية الدينية في القرن السادس عشر اقل تأثير ، ولئن كان هذا الاصلاح ثورة على البابوية وسلطانها المزدوج فهو مع ذلك لم يخرج قيد انملة عن سلطة الدين لان اتباع (لوثر) و (كالفن) الزعيمين المصلحين الكبيرين اختاروا الميدان الديني لمبارزة البابوية وصراعها ، لا جرم ان احتاج (لوثر) في مقاومته طموح البابا الزمني الى مناصرة الامراء والملوك وسائر اصحاب المصالح الدنيوية والاستمساك بالدول السياسية الناشئة والاعتماد على امرائها وقد عطف هؤلاء عليه وحدبوا على طريقته المستحدثة لتكون سلطتهم مطلقة في وجه كل من ينازعهم فكان الحرية الدينية التي الحّ (لوثر) في ان يتمتع بها كل فرد بحسب وجدانه آلت الى تأييد السلطة الاستبدادية في الملوك . اما (كالفن) في سويسرا فقد نحا نحواً آخر اذ جمع في طريقته بين السلطتين الدينية والدنيوية ورأى من الواجب المحتم ان يقيم دولة سياسية تؤيد الدولة الروحانية فكان في البروتستانية اشبه شيء بالبابا في الكثلكة وكانت دولته ارستقراطية خاضعة لطبقة القديسين خضوع الدول الحاضرة للرأسماليين ، على انها في التحليل النهائي كانت قائمة على تأييد الشعب فهي بهذا المعنى ديمقراطية . وقد تركت اثراً ظاهراً في تلك الايام بما شجعت ومن حكم ذاتي واستقلال محلي في الانحاء التي لم تتمكن فيها من انشاء حكومة على الاسس التي ترتضيها وبهذه الواسطة روّجت فكرة الاستقلال الذاتي وساعدت على الخلاص من حكم البابا في احداث دولة عالمية شاملة تخضع للكثلكة وخليفة بطرس في رومية . ولكن (كالفن) كان يحلم بثورة اخلاقية تقوم بها الدولة والكنيسة متحدتين ويكون قسط الكنيسة فيها متفوقاً له القدح المعلّى . وقد ردّ على هذه الآراء « القروسطية » (نسبة الى القرون الوسطى) الكاتب الانكليزي (ريتشارد هوكر) المتوفى سنة ١٦٠٠ بما يستحق ان يكون درساً عميقاً وعظة بالغة لبعض الدول

العربية في ايامنا. وانهُ لمن المؤسف ان نشعر ونحن في القرن العشرين بحاجة الى دروس في السياسة نتلقاها من كتاب القرن السادس عشر . فما ذهب اليهِ (هوكر) ان هنالك فرقاً جلياً بين السنة الطبيعية — وهي الناموس الطبيعي — وبين السنة الايجابية. فتلك ازلية ثابتة لا تتغير وهذه تتبدل بحسب الحاجة الخارجة والمصلحة الطارئة وكل الحكومات في نظره قائمة على السنة الايجابية وتابعة لاحكامها فهي اذن قابلة للتبدل بحسب الاحوال المستجدة . اما كيف تطبق السنة الايجابية وكيف تتعين فهذا يحتاج الى العقل مستنيراً ومستقوياً بكل نوع من انواع العلم والاختبار والتمرين . وقال ان الاحوال تتطلب نظاماً دينياً سمحاً يتسع للناس ويضم تحت جناحيهِ جميع الانكليز الصالحين . وعنده ان اتباع (كالفن) اخطأوا في محاولتهم ان يستخرجوا من الكتاب المقدس الاوامر والنواهي التي تسيطر على سيرة الافراد في جميع الاحوال دينية كانت ام دنيوية . فالدنيا اشكال والوان واوضاعها فنون . وفيها مجال متسع يجول فيهِ الانسان بحريته من غير قيد سماوي ليعين الخطة التي يسير عليها بموجب المقتضيات الزمانية والمكانية تحت سلطان الناموس الطبيعي والعقلي الدائم

﴿توماس هوبس﴾ ومن اشهر الكتاب الاوربيين الذين كتبوا في السياسة (توماس هوبس) الحكيم الانكليزي المتوفى سنة ١٦٧٩ فقد ذهب الى أن الدولة مؤسسة قد عملها الناس بمحض قواهم العقلية . فهي من صنع ايديهم ونتيجة اختباراتهم لأن اول حاجة ماسة احتاج اليها المجتمع هي النظام او القوة ذات السلطة المطلقة لتطبيق هذا النظام ، والسبب الداعي الى هذه الحاجة الاضطرارية هو الحالة التي وجد عليها الناس في الطبيعة منذ تألف مجتمعهم . وخلاصتها انهم في حرب معلنة من الجميع على الجميع ولا سبيل الى النجاة من هذا الشر المستطير الاّ بالالتجاء الى حفظ النظام وتطبيق مفاصل العدل ، اذن فالدولة هي سلطان قائم على اساس « المقاولة الاجتماعية » التي نجد لها مثيلاً يقربها من الاذهان بالمقاولات التي تعقد في الاسواق التجارية والصناعية بين المتعاملين لمصلحتهم جميعاً

ان السلطة القوية المطلقة هي الاداة التي تنفذ هذه « المقاولة الاجتماعية » او هذا « العقد » وعليها تتوقف وحدة المجتمع صحيحة غير متفرقة. ومع ان هذه النظرية لا تستند الى الاستقراء ولا يوجد في تاريخ الانسان الخالي ما يؤيدها او يدل على ان الروابط السياسية في الدولة حبكتها ايدي المفكرين بمحض قواهم العقلية فقد أثرت في الشؤون السياسية اثراً بليغاً خصوصاً في صوغ الدساتير ولا تزال تفعل ذلك الى يومنا هذا . ومن اظهر آثارها ما ذهب اليهِ بعض ائمة المشترعين امثال (اوستن) واتباعه من الوجهة الشرعية من جعل سلطان الدولة سلطاناً مطلقاً لاحد له غير قابل للتجزئة. قال الاستاذ (كول) : ثم ان سقوط النظرية المشهورة القائلة بحق الملوك الالهي غادرت « السلطة المطلقة » التي دعا اليها (هوبس) من غير اساس نظري

ترتكز عليه . ولكن هذه السلطة والحق يقال ليست وقفاً بالضرورة على حاكم واحد مفرد بل هي ملك الحكومة مهما كان شكلها . وقد فضل (هوبس) الحكومة الملكية باعتبارها اقدر على حفظ النظام غالباً الاّ انهُ لاحظ ان مذهبه ينطبق ايضاً على السلطة المطلقة للحكومة الاريستوقراطية او للحكومة الديموقراطية كما يجوز ان ينطبق على الحكومة الملكية.وجوهر هذا المذهب ان للحكومة كائناً شكلها ما كان السلطة المطلقة على جميع الرعايا

﴿جون لوك﴾ ثم حدثت الثورة الانكليزية المشهورة في سنة ١٦٨٨ وكان حكيمها البارز وكاتبها البليغ (جون لوك) المتوفى سنة ١٧٠٤ وصاحب كتاب «الفهم البشري» فقد بدأ رأيه بتحديد سلطة الحكومة وحصرها في حماية الارواح والاموال والدفاع عن الحرية ،وعنده ان المجتمع وضع طبيعي بالنسبة الى الانسان ، وان قواعد السياسة تستخرج من الشريعتين الالهية والطبيعية لا كما فعل استاذه (هوبس) الذي جعلها وليدة الادراك الانساني فقط وهذا يباعد بين الانسان والطبيعة المحيطة بهِ . وقد تناول (لوك) من استاذه فكرة (المقاولة الاجتماعية) وعلى نظرياته بنى شكلها . وكلاهما يقول ان المجتمع البشري قائم على مقاولة معقودة بين افراده وهذه المقاولة نافذة ما قبلوها . غير ان (هوبس) يرى ان الشعب بتنصيبه سلطاناً على نفسهِ قد تنازل له ولخلفائه من بعده عن حقوقهِ تنازلاً ابديًّا فكأن المقاولة هي تنصيب الحكومة ليس الاّ . اما (لوك) فقد نحا نحواً آخر اذ قال ان الشعب لن يتنازل عن حقوقهِ الى الابد بمجرد استصناعه حكومة بل يبقى في المرجع النهائي صاحب الكلمة العليا والسلطان النافذ مع صلاحية ثابتة تخوله في كل حين ان يسترجع الحكومة التي اسسها وان يلغيها اذا هي خانت الامانة التي وضعها في عنقها . وهكذا يتجلى الفرق بين السلطة المطلقة التي قال بها (هوبس) وبين السلطة الدستورية المحدودة التي قال بها تلميذه (لوك) فكانت تفسيراً نظريًّا للاعمال التي انجزتها الثورة الانكليزية في سنة ١٦٨٨ ولا حاجة بنا الى تذكير القارىء انمثل هذه الافكار السياسية هي التي حفزت العثمانيين الى انقلابهم في سنة ١٩٠٨ كما حفزت الايرانيين جيرانهم ولا تزال تحفز أمماً شرقية شتى في خصوماتهم الداخلية والخارجية

﴿جان جاك روسو﴾ انتقلت نظرية «المقاولة الاجتماعية» من انكلترة الى القارة وممن قال بها واتخذها تعليلاً صالحاً للمجتمع (جان جاك روسو) الحكيم الفرنسي المتوفى سنة ١٧٧٨ فقد نقلها عن (هوبس) و (لوك) واخذ معها من الاول قوله ان السلطان غير محدود ولا يقبل التجزئة وانه ينشأ في المجتمع حالما تعقد «المقاولة الاجتماعية» ومن الثاني تفريقه بين السلطان والحكومة وهذا التفريق يترك القوة العليا بيد الشعب باعتباره سلطاناً ويجعل الحكومة مشتقة منه وهي ابداً خاضعة لارادته . بيد ان (روسو) يختلف عن (لوك) بجعله هذا السلطان الشعبي —وهو سلطة الجمهور— عاملاً ايجابيًّا نشيطاً له قسطه العظيم في القيام باعمال المجتمع لا واقفاً موقفاً متفرجاً

وهكذا نرى نظرية « العقد الاجتماعي » قد اصبحت على يد (جان جاك روسو) نظرية ديموقراطية من الاساس واصبح الحق للشعب ان يحكم حقيقة كما يحكم اسماً . وذهب في تصوير هذه النظرية الى ما يشبه الحالة ايام «الدولة البلدية» التي عرضنا لها على عهد الاغريق يعني ان تكون المدينة الواحدة دولة مستقلة بذاتها وتكون شؤونها بيد جميع أهلها مباشرة لاذكر للنواب في ذلك بل الافراد جميعهم يقضون ويمضون باشخاصهم ، فليس في مذهب هذا الحكيم ما يسوغ بناء الامبراطوريات المتسعة الضخمة على اساس مشروع كما هو الحال في عصرنا لان ذلك يقتضي تأليف المجالس النيابية في حين ان السلطان الشعبي في نظره لاينتقل لا بالانتداب ولا بالتنازل بل يبقى وقفاً على الشعب أو ملكاً ملازماً له . ولئن لم يؤثر هذا المذهب تأثيراً كليًّا في اضعاف الامبراطوريات التي اخذت تنمو في القرن الثامن عشر فقد احدث انقلاباً خطيراً في تفهيم الناس ان ارادة الشعب هي التي تحلُّ وتعقد وانها الاساس الذي تبنى عليه الدولة ، اذن «فالارادة العامة» التي يجمعها القول المأثور « اصوات الخلق اقلام الحق » هي الثمرة الناضجة لمذهب « العقد الاجتماعي » كما تحوَّل على ايدي (جان جاك روسو) . ويتجلى هذا التأثير خير التجلي في الثورة الاميركية لان القواعد الاولى التي بنيت عليها هي قواعد مستخرجة من هذا المذهب

ثم حدثت الثورة الفرنسية الكبرى فكان بيانها عن حقوق الانسان مستقىً من (مونتسكيو) وكتابه (روح الشرائع) ومن (لوك) وفكرته في وجائب الدولة ومن (روسو) واصراره على ان يكون السلطان الشعبي سلطاناً نشيطاً عاملاً لا شأن للسلبية فيهِ ، والظاهر ان روحه المتحمسة الوثابة كانت تنفعل من خمول الناس حوالها ومن وقوفهم وقفة المتفرج على الطوارىء المستحدثة تدفعهُ الى هذه الحملة المنكرة على الجمود كما تدفع كل مصلح اليوم في كثير من انحاء العالم العربي حيث معظم الناس يقنعون من محاربة الكوارث النازلة على رؤوس امتهم مثلاً باساءتهم فهم ما ورد « اللهم حوالينا ولا علينا » كأن المرء بحسب هذا التفسير المغلوط اذا رأى الشر في جيرانهِ وليس في بيتهِ يسلم في النهاية من الشر او ان السنة النيران اذا اندلعت لا تتجاوز بيوت الطالحين الى الصالحين . فاين «الامر بالمعروف والنهي عن المنكر» من مثل هذا الموقف البارد ؟ وانني لاعجب كثيراً من الذين اتخذوا الدفاع عن الاخلاق صناعة لهم كيف يعدون مذنباً من يقف متفرجاً على مسلوب ولا ينتصر لهُ ولا يعدون مذنباً من يرى أمة باسرها تذبح كالشاة على قارعة الطريق في رابعة النهار ولا يحرك لسانه ببنت شفة في الدفاع عنها

وما اجمل تلك العظة البالغة التي كان يكررها رئيسنا المرحوم (هورد بلس) : «اللهم أغفر لنا ذنوبنا السلبية وذنوبنا الايجابية » وادفع عنا شر خطيئة ارتكبناها باقدامنا على فعلها أو لم نرتكبها بوقوفنا متفرجين على فاعليها من المجرمين الظالمين

﴿العظامية الانكليزية في القرن الثامن عشر﴾ : كتبنا هذا الفصل عن العظامية الانكليزية لانهُ يفسر الى مدى بعيد العظامية في الامم الاخرى — ومنها الامة العربية — في اكثر الاعصر التاريخية . والنظام العظامي الاريستوقراطي هو نظام متأصل في الانكليز وقد مثل دوراً من اهم ادوار حياتهم السياسية والاجتماعية . ولا يتلكأ العظاميون منهم ان ينسبوا كل المحامد التي تتغنى بها امتهم الى هذه الشكيمة العريقة في دمائهم والى ما بني عليها من نظام محافظ . وتتجلى القواعد التي قامت عليها هذه العظامية في ردّ الفعل الذي حدث في انكلتره من جراء الثورة الفرنسية الكبرى التي حدثت في سنة ١٧٨٩ فالاريستوقراطيون الانكليز استخدموا انواع الشدة في ابان تلك الثورة وعقيبها لاجتثاث كل حركة حرة من اصولها واستعصروا ادمغتهم لكي يؤلفوا فلسفة ترتكز عليها دعاويهم الطويلة العريضة في حق الحكم، ومعلوم ان قواعد الثورة الفرنسية قامت على استصراخ الادراك الانساني من اعماقه والاستناد الى مقتضيات الفهم السليم . بيد ان الاريستوقراطية الانكليزية لم تتنزل الى مقارعة الثورة على هذا الاساس ولا الى مجادلتها في هذه القواعد بل قالت بلسان (ادمند برك) خطيبها وكاتبها السياسي انها تأبى على الادراك الانساني ان يكون الاساس الصحيح للسياسة وعلى المنطق ان يكون المركز الذي ترتكز عليهِ فلسفتها ،واظهرت بكل ما اوتيت من عارضة وبلاغة شأن الوضع السياسي التقليدي المعنعن الذي تمثل في الاختبارات والتجارب المجموعة في قبضة طبقة من الحكام الوراثيين هم الطبقة الاريستوقراطية او هم «اهل الحل والعقد» كما في تاريخ الاسلام. فهذه الفلسفة التي قال بها (ادمند برك) يومئذٍ هي سرّ الحكمة الاساسية التي يبني عليها العظاميون المحافظون حجتهم في انكلتره الى يوم الناس هذا بل هي التي اشار اليها افلاطون في « الجمهورية » في القرن الرابع قبل المسيح

ولا مراء ان هنالك فرقاً واضحاً بين عظامية الانكليز اللينة هذه وبين عظامية الفرنسيين القاسية التي كانت سبباً مباشراً للثورة . فالقارىء يذكر ان شكل الحكم في فرنسا يومئذٍ كان ملكيًّا من دونه طبقة اريستوقراطية تمتعت بالشيء الكثير من الامتيازات والمنافع من غير ان يكون لها سلطة سياسية ، وكانت ابواب هذه العظامية موصدة في وجه جميع الطامحين المستجدين ولو جمعوا ثروة طائلة في التجارة او الصرافة ، وكانت الاسلاب التي خوّلتهم امتيازاتهم ان يسلبوها من الناس ويتمتعوا بها عبئاً ثقيلاً اناخ على صدور الفلاحين بكلكله واثقل كاهلهم ، وكانت الضرائب فادحة تبذل بسخاء على الجيش لتأييد السلطة الوطنية والدفاع عن نفوذها، وادى اعفاء الطبقة العظامية من الضرائب الى انتقال ما تق الصناعة والتجارة وزاد في اعباء الدهماء من الشعب . لذلك لم يندمج الرجال النابهون في الطبقة الحاكمة بل بقوا خارجها ليشتركوا في الثورة مع الفلاحين الجائعين المنهكين ومع العمال البائسين المستائين

اما في انكلتره فكان للعظامية سلطة سياسية نافذة عدا الامتيازات التي تمتعت بها ، ولكنها اظهرت من الحكمة والكياسة انها لم تعف نفسها من الضرائب بتاتاً ولا اوصدت ابوابها دون الطامحين المستجدين من الرجال الصالحين سواء من صاهر منهم العظاميين فاتصل بهم او من نال حق الانتقال الى العظامية برخصة رسمية حصل عليها لمال جم جمعهُ في التجارة او الصناعة او الصرافة، فهذا الموقف اعترف بشيء من الحق يكتسبه العامة بالثروة او المصاهرة او الجاه فيصبحون من اهل الحسب . وفوق ذلك فالعظامية الانكليزية لم تقف في البلاد وقفة سلبية انانية بل اشتركت في ترقيتها الاقتصادية بهمة ونشاط . وهذا جميعه مما حال دون اجتماع العناصر العدائية عليها كما حدث لفرنسا يومئذٍ فأدى الى ثورتها في حين احتفظت العظامية في انكلترا ببنيانها وخرجت من جميع تلك العواصف الاوربية المزعزعة سليمةً بمجرد اصلاح برلماني يسمى اصلاح سنة ١٨٣٢ ثم انتقلت الحكومة بالتدريج من سلطة نيابية عظامية كانت انكلترا اسبق الدول الى استنانها الى سلطة عصامية ديموقراطية اصبحت شكل الحكم المطلوب في الدول الناشئة في القرن الثامن عشر . اما هذا الاصلاح البرلماني الذي حدث في سنة ١٨٣٢ فقد وسع حق الانتخاب حتى شمل الطبقات المتوسطة فقط فكان على طبقة العمال ان تنتظر حقها في الانتخاب الى ان قرّره البرلمان في سنتي ١٨٦٧ و١٨٨٤ ولكن انكلترا ام الوضع النيابي لم تصر ديموقراطية حقاً تتمتع جميع طبقاتها بالانتخاب الا يوم نال النساء هذا الحق بقرار برلماني في سنة ١٩١٨ بيد ان الاسعاف جاء متأخراً جداً فما وصل « الترياق من العراق » الا والطريقة الديمقراطية النيابية معبودة الرئيس ودرو ولسن وحجة الدول الغالبة على المغلوبة في الحرب العالمية — قد اقتحمتها طرائق اخرى ادعت الافضلية عليها وبارزتها في الميدان برازن الند للند ، وزاد في الطين بلة ان اشراك النساء في الشؤون السياسية لم يحقق حلم الذين عقدوا عليه الآمال الكبار

وغني عن البيان ان اللين الذي اظهرته الادارة الانكليزية على ذاك العهد حال دون وقوع الكارثة ، ويذهب بعض الاجتماعيين الى ان هذا التكيف في الانكليز او القابلية التي تنحني من غير ان تنكسر هي الخلة القومية التي حالت دون الثورات العظيمة في بلادهم في حين ان من طبيعة الفرنسيين التصلب التام وان يحاولوا التمسك بكل شيء الى ان يرغموا على ترك كل شيء ، هذا شأنهم في حربهم وسلمهم واحتلالهم وجلائهم وكل شأن من شؤون ادارتهم ، وقد تجلى في ايامنا هذه في مواقفهم العنيدة في المطالبة بالديون التي لهم كاملة وابتلاعهم الديون التي عليهم كاملة ، والاصرار على ان يبقوا مكتسين بالسلاح الى قمة الرأس وان يعروا خصومهم منهُ الى اخمص القدم ، بل ان هذه الخلة فيهم ظهرت بثوبها القشيب في عصبة الامم في جلساتها الاخيرة عند ما قدّم مندوب فرنسا تقريره عن سورية فاتيح لاعضاء العصبة ان

يقابلوه بالتقارير التي قدّمت عن العراق وانتهت في اكتوبر الماضي بانتظامه عضواً فيها ، وان يتبينوا الاسباب التي ادّت الى تراجع سورية تحت ارشاد الفرنسيين . وان كانت هي السابقة على العهد العثماني . فما اعجب هذا الارشاد الذي يحاول عبثاً ان يسوق شعباً راقياً الى الضلال والاضمحلال

وعلى كل حالٍ فالعبرة البليغة المستخلصة من الثورة الفرنسية ومن تلك الطبقة الفرنسية العظامية التي حاولت ان تمتص دماء الناس من غير عوض وعلى رأسها البلاط ومشروعاته الباهظة واستبداده اللامتناهي وعدم مبالاته بمطالب الامة هي مثل العبرة التي خلفتها لنا القيصرية الروسية الظالمة وعهد آل رومانوف في القرن الحاضر : دماء مهراقة وخراب شامل وثورة عاصفة لم تبق ولم تذر ، ومن العجب العجاب ان يرى المتتبع تباشير الشيوعية فجّة في الثورة الفرنسية كما يراها ناضجة في الثورة الروسية ، فقد قام في فرنسا في تلك الايام رجل ثوري اسمه (فرانسوى اميل بابوف) فنشر مذهبه السياسي فاذا هو لا يختلف في شيء عما حمله في صدره (لينين) و (تروتسكي) و (ستالين) وهذا التشابه والحق يقال درس تاريخي يجب ان يتلى كل يوم على رأس الحكومات العنيدة المتصلبة التي ليس في منهاجها شيء يسمى مصلحة الشعب المحكوم ، والثورة اذا حدثت تكون مثل القنبلة اذا خرجت من فوهة المدفع — لا سلطة لاحد عليها . قال (بابوف) في صحيفته يومئذٍ[1] . « لماذا يتكلم الناس عن الشرائع وعن الاملاك ؟ فالاملاك هي حصّة المغتصبين والشرائع هي من عمل الاقوياء اما الشمس فتشرق على الجميع واما الارض فليست ملكاً لاحد . اذهبوا اذن يااخواني وانشروا الفوضى في هذا المجتمع الذي لا يلائمكم واقلبوه رأساً على عقب ودكوه دكّا وخذوا منه كل شيء يعجبكم ، لان الفضلة هي من حق المعدم . وهذا ليس كل شيء ايها الاخوان والاصدقاء . بل اذا وجدتم الموانع الدستورية عقبة في سبيل مساعيكم الكريمة فاسحقوا هذه الموانع وهذه الدساتير من غير تردد واذبحوا العتاة والنبلاء والمموهين بالذهب من اصحاب الملايين وسائر هؤلاء الاشرار الذين يقاومون سعادتكم المشتركة . انتم الشعب الحقيقي الوحيد القمين بان يتمتع بخيرات هذا العالم ، وعدل الشعب عظيم وجليل مثل الشعب نفسه فكل مايعمله مشروع وكل ما يأمر به مقدس »

وتعرف خطط (بابوف) من الجمل الآتية المستخلصة من بيانه الذي وضعهُ ليلة الثورة التي اعدها وسماه (بيان المتساوين) فقد جاء فيه من العبارات الجنونية الملتهبة قوله « ايها الشعب الفرنسي لقد عشت خمسة عشر قرناً ترسف في العبودية وما نشأ عنها من شقاء ، ومضى عليك ست سنوات (وهي سنوات الثورة) لم تكد في غضونها تتنفس وانت تنتظر الاستقلال

* The Revolt Agains Civilization, Stoddar P. 137

والسعادة والمساواة — المساواة التي هي اول غاية في الطبيعة واول حاجة في الانسان وهي العروة الوثقى لكل اجتماع بشري مشروع

«نعم اننا نريد من الآن فصاعداً ان نعيش ونموت على قدم المساواة كما ولدنا ونحن ننشد التساوي الحقيقي او الموت — هذا مايجب ان نحصل عليه وسننال هذه المساواة حتماً بالغة مابلغت قيمتها . والويل ثم الويل لكل من يقيم نفسه حائلاً بيننا وبينها

«اما الثورة الفرنسية فليست الا مقدمة فقط لثورة اخرى اعظم منها واكثر هيبة وستكون الاخيرة . واننا سنرضى بكل شيء في سبيل المساواة ونمسح كل شيء للتمسك بها وحدها . واذا اقتضى الحال فلتضمحل جميع الفنون على شرط ان تبقى لنا المساواة الصحيحة

« واخيراً لتختف الفوارق المثيرة للاحقاد بين الاغنياء والفقراء ، والكبراء والصغراء ، والأسياد والمسودين والحكام والمحكومين ولايبقى فرق في البشر عدا الفرق المبني على العمر وعلى الجنس . ولما كانت حاجات الناس وملكاتهم واحدة فلتكن لهم تربية واحدة وطعام واحد وهم جميعهم يقنعون بشمس واحدة وهواء واحد فلِمَ ياترى لا يكتفي كل واحدمنهم من الطعام بنفس الحصة اوبنفس النوع ؟

« ايها الفرنسيون افتحوا عيونكم وقلوبكم لفيض السعادة المدرار واعترفوا معنا بجمهورية المتساوين واعلنوها في الخافقين»

لقد اطلنا فيما نقلنا من بيان (بابوف) عن ثورة التساوي هذه وعذرنا في ذلك اننا اردنا ان نبين ما تجنيه الحكومات الظالمة على المجتمع من الجنايات التي لايعرف احد عواقبها ، وغير نكير ان ثورة (بابوف) هذه خنقت في المهد ولكن الآراء التي انطوت عليها بقيت مشتعلة تحت الرماد الى ان سنحت لها الفرصة فاندلعت السنتها تحرق الاخضر واليابس وتهدد النظام الاجتماعي من اساسه

﴿ المصلحة الفردية فوق سائر المصالح ﴾ كان الرأي الشائع في القرن التاسع عشر — قبل انتشار الآراء الاشتراكية — عن الحكومة وحق تدخلها في الشؤون العامة رأياً فردياً خلاصته ان كل فرد هو اعرف الناس بمصلحته الخاصة فلو ترك وشأنه في الظروف الملائمة لسعى دائماً للحصول على ما ينفعه ، لذلك لا يجوز للحكومات ان تتدخل في شؤون الناس اكثر مما هو ضروري لدفع الاذى ومنع سوء الاستعمال والا فان عملها يعرقل سير الناس في طلب المنافع ويقضي عنهم في المسائل التي يجب ان يقضوا هم فيها بأيديهم . ومن العجيب ان تكون هذه النظرية الفردية — لا نظرية «العقد الاجتماعي» ولا« الحقوق الطبيعية» — هي التي انتقلت بانكلترا من الحكم العظامي الى الحكم العصامي . وان (جرمي بنثم) مؤسس نظرية السعادة الفردية وصاحب كتاب (اصول الشرائع) الذي نقله الى العربية المرحوم فتحي

زغلول كان الحكيم الذي طبع بطابعه الخاص اصلاح سنة ١٨٣٢ البرلماني وهي سنة وفاته . وبموجب هذا الاصلاح امتدّت حقوق الانتخاب الى الافراد واتسعت اتساعاً كبيراً وازيحت بعض العقبات المهمة التي كانت تعتورها . ونحا هذا النحو الفردي ايضاً الفيلسوف الاقتصادي الكبير (جون ستورت مِلْ) المتوفي سنة ١٨٧٣ والمستر (هربرت سبنسر) شيخ الاجتماعيين المتوفي سنة ١٩٠١ وفي وسعنا ان نوجز « الحكمة البنثمية » ورأي البنثميين اجمالاً بما يأتي : وهو ان المعيار المضبوط للحقوق السياسية التي يتمتع بها الناس هو المصلحة وان السعادة العظمى للاكثرية العظمى هي غاية المجتمع وان هناءة الافراد من النساء والرجال الذين يؤلفون المجتمع — لا المجتمع نفسه — هي التي يقام لها وزن في القسطاس السياسي . وكان اصحاب هذه الديمقراطية الفردية ومن لفّ لفهم من الد اعداء التدخل الحكومي حتى ان المستر (هربرت سبنسر) لما نشر كتابه «الاحصاءات الاجتماعية» في سنة ١٨٥٠ ذهب فيه الى ان وظيفة الحكومة تقتصر على حماية حياة الافراد والدفاع عن حريتهم واموالهم فقط وفيما عدا ذلك يكون عملها تجاوزاً لامسوّغ له ، وعندهُ ان دستور «المساواة في الحرية» هو ان يكون للفرد ملء الحق في ان يتمتع بجميع ملكاته او مواهبه ضمن حدود الحقوق التي لغيره ان يتمتع بها ، وعلى الدولة — بل واجبها الوحيد — ان تنفذ هذا الدستور فاذا ما تجاوزته الى غيره اصبحت متعدية ولم تعد حامية

وكان هذا الاطلاق للفرد ان يغرف من حلّة السعادة والهناءة بقدر كل ما تتسع له معدته سبباً في ازالة الشيء الكثير من العقبات التي كانت تعتور الافراد في سيرهم مما آل في آخر الامر الى ظهور «الرأسمالية» بثوبها القشيب وتمتعها بحرية مطلقة وسلطان قاهر بحجة الحرية التي يجب ان يتمتع بها اصحاب رؤوس المال في روحاتهم وغدواتهم . واقتضت هذه الحرية في نظر القائلين بها مذهباً معروفاً هو مذهب «ترك الحبل على الغارب» Laissez—Faire يعني عدم تدخل الحكومة في الشؤون على امل ان مصالح الافراد الشخصية وتمتع كل واحد منهم بملكاته ومواهبه في الحدود التي لا تضير غيره تنتهي في آخر الامر الى التسوية العامة بين الجميع . ولو كانت المسألة كما قال (برنارد شو) هي جلوسنا على شاطىء النهر ومرور الماء من تحت ارجلنا يحمل الينا مطالبنا لهان الامر وصح هذا المذهب ولكن المسألة اننا هائمون في مركبة خيلها جامحة لا ندري متى نسقط في الهوة او نصطدم بالصخرة . وكانت الفكرة الاجتماعية السائدة يوم كتب سبنسر « الاحصاءات الاجتماعية » ان الجمعية البشرية كناية عن حيوان كبير ذي وظائف بدنية فسيولوجية متنوعة فالسكك الحديد مثلاً هي اوردته الدموية واسلاك البرق هي الاعصاب وأما الحكومة فهي العضو المدبر للشؤون فلا غرو ان تكون وظيفتها الاولى والكبرى حماية الارواح والدفاع عن الحرية [1]

(1) Encyclopaedia Britannica, Vol. XI. p. 9.

ومع كل ما في هذا المذهب الاجتماعي الحيوي — البيولوجي — من الحقائق الراهنة وما في الرأي الفردي من الاسس الشجعة فالمجتمع اليوم معتبر وحدة عقلية اجتماعية قائمة على الارتباط الذهني بين الافراد اكثر منهُ وحدة عضوية حيوانية قائمة على الارتباط الفسيولوجي. ولكن من الخطإ الفادح والاستنتاج المغلوط ان يظن احد ان اتصاف المجتمع بهذا الوصف الفكري المعنوي يزيل عن الافراد غرائزهم الحيوانية الاولى فهذه الغرائز البيولوجية هي الاساس والمجتمع الروحي الذهني هو البناء المشمخر القائم عليها ، بل دلتنا الحرب العالمية وما لزمها من فظائع ومجازر ومجاعات وأوصاب والثورات الوطنية التي حضرناها على ان هذا الانسان «الكامل» المربّى في احضان المدنية والمهذب في مدارسها العالية متى تملكته سورة الغضب او شعر بالحاجات الاولى عاد الى اساسهِ البيولوجي حالاً فظهر بمظهره الحيواني الصريح

وممن نشأوا على النظرية الفردية الاقتصادية والابتعاد عن التدخل جهد الطاقة الرئيس (هوفر) في ايامنا هذه فكان مذهبه سبباً في عزلة اميركا واطالة الازمة الاقتصادية الآخذة بخناق الناس الى ان خذل في الانتخابات الاخيرة خذلاناً دلّ على نفرة الناس من سياسته .

وارى ان هؤلاء الكتّاب الفرديين قد افرطوا كثيراً عند ذكرهم وجائب الدولة في جعل حماية الارواح والاموال الكل في الكل ، ولئن كنا لا ننكر ان الدنيا تنقلب في يوم واحد رأساً على عقب ويتحول نظامها الى فوضى متى زالت هذه الحماية واصبحت الارواح عرضة للقتل والاموال عرضة للنهب الاّ ان مثل هذا الالحاف في ذكرها والاقتصار عليه هو أليق بدولة تتأسس حديثاً في عصر من الاعصر الخالية ، ولعمري ان هذه الحماية هي من البديهيات في نظر الدول الحاضرة والاقتصار على تصنيفها وشرحها هو اغفال لما استجدّ من الوجائب وما يستجدّ ، خذ على ذلك مثلاً حركة العمال التي تقيم المجتمع وتقعده في ايامنا . والتي تهدد النظم القديمة من الاساس ، ففي البلدان الصناعية استجد على الدولة واجب خطير يعبر عنه بقولهم «حق العامل ان يعمل» يعني حق العامل النشيط ان يحصل على ما يضمن له العمل اللائق به بحيث يتمكن من المعيشة معيشة شريف . فالمسألة اذاً كما قال[1] (كونرد جل) ليست دفع الفاقة والتسول ومنع الموت صبراً عن هؤلاء الناس فقط بل ضمانة حصولهم على مقياس من الحياة يجعل هذه الدنيا محتملة لديهم ويخفف من آلامها عنهم ، فمثل هذا الواجب المستجد على خطورته لا تشعر به البلدان التي تعيش في اجواء القرون الوسطى ، بل ما احوج هذه البلدان الى من يحفر بالازميل والمطرقة في جماجم حكامها آية تذكرهم بقدسية الحرية الفردية وشأن الحياة المنبسطة ، وما يعد من البديهيات المسلم بها في الاقطار الراقية قد يكون مثار الشبهة والجدل في الاقطار المتأخرة

(1) Government and People, p. 229

ولا ادلّ على رفض النظرية الفردية وما تستند اليهِ من مذهب «ترك الحبل على الغارب» من اجماع الدول الحاضرة — حتى اشدها رأسمالية — على وجوب التدخل في الشؤون حرصاً على المصلحة العامة ومنعاً من سوء الاستعمال . ولعل اثمن تحفة أدبية خلفتها لنا نصوص المشترعين في وجوب التدخل ما جاء في حديث عبد الله بن المبارك « أن قوماً ركبوا سفينة في البحر فاقتسموا ، فصار لكل رجل منهم موضع ، فنقر رجل منهم موضعه بفأس فقالوا له ماتصنع ؟ فقال هو مكاني اصنع فيه ما شئت ، فان اخذوا على يديه نجا ونجوا وان تركوه هلك وهلكوا [1] » ونظرة واحدة في منهاج دولة من الدول الكبرى الحاضرة فيها المقنع الصادق على صحة هذا الرأي ، وفيما يأتي خلاصة مقتبسة مع التعديل من البرنامج الحكومي الذي اورده الرئيس « ودرو ولسن » في كتابه « الدولة » المطبوع قبيل الحرب العالمية ، والرئيس كما هو معلوم هو وحكومته من ابعد الناس عن الاشتراكية [2]

(١) حفظ النظام الاجتماعي كما يحفظ الشرطي سير المركبات والسيارات في الشوارع المزدحمة منعاً من الاصطدام ولو كان السواقون من الاخصائيين في مهنتهم والملائكة في اخلاقهم

(٢) وهو ماذكره المستر (هربرت سبنسر) واقتصر عليه — يعني حماية الابدان والاموال من التلف والسرقة ، وربما كانت هذه الوظيفة اهم وظيفة تقوم بها الحكومة لتوقف الحياة الإقتصادية والاجتماعية عليها وارتباطها بها

(٣) الاشراف العام على الاسرة وتعيين العلائق المشروعة بين الزوج والزوجة وبين الآباء والابناء ، لجهل بعض الناس ، والاخطاء التي يرتكبها غيرهم في احكامه ، والشر المستحكم في قلوب الآخرين . والعقائد السخيفة البالية المستحوذة على الجامدين من الافراد خصوصاً من فسّر منهم الاوامر والنواهي بما ينطبق على رغباته وشهواته كل ذلك يقتضي الاّ تتخذ الحياة العائلية ذريعة للاضرار بأي فرد كان والاّ اصيب المجتمع بالكوارث وحلّ بهِ الدمار من جراء الفساد في الاسرة وهي هي الوحدة الاجتماعية القياسية التي تبنى عليها الجمعية البشرية في تدرجها الحاضر

(٤) تنظيم استملاك الاملاك والاموال وتناقلها وتبادلها

(٥) تعيين التبعة الملقاة على العاتق من الديون المستدانة والجنايات المقترفة وهذه الوظيفة نتيجة لاحقة للوظيفة السابقة والاّ جاز للناس ان يستقرضوا الاموال ثم ينكروها وللاشقياء ان يقترفوا الجنايات ثم يفلتوا من تبعتها فيختلّ النظام الاجتماعي من اساسه

(٦) تعيين الحقوق التي تخولها العقود المتفق عليها بين الافراد

(٧) تعريف الجناية وتعيين الجزاء المترتب على اقترافها ، ويحسن بنا ان نذكر هنا ان الجرم كان في الاصل مقترفاً بحق الفرد ونازلاً به فكان عليه ان يسويه بنفسه مع المجرم ، ولكن الدولة

(١) البيان والتبيين للجاحظ (٢) The State, p.p. 637-640

اصبح من وجائبها اخيراً ان تحمي الفرد، وليس ذلك فقط، بل ان تحمي نفسها ايضاً لذلك كان الجرم معدوداً جرماً بحق المجتمع ونازلاً به. وعلى الحكومة ان تعين الجناية وتضع الجزاء على ارتكابها

(٨) احقاق الحق وازهاق الباطل في القضايا المدنية، وما دامت الدولة هي القوة الوحيدة التي تستطيع العمل بعيدة عن المصلحة الفردية فهي الحكم الطبيعي الذي يقضي بين المتخاصمين بالعدل والقسطاس المستقيم

(٩) تعيين الواجبات السياسية المترتبة على الوطنيين وتعيين العلاقات القائمة بينهم وتعريف الامتيازات التي يتمتعون بها . وينطوي تأليف الدولة على فكرة حاكم ومحكوم وان كان القسط الذي يناله الفرد في الحكم يتوقف على نوع الدستور الذي تألفت بموجبه الحكومة والطريقة التي سلكتها، فالفرد في الحبشة مثلاً يختلف جداً الاختلاف عن الفرد في لندن وباريز . وتعني كلمة « السلطان » في البلدان المستقلة ان يد الدولة فوق الايدي وان كلمتها هي العليا وانها بقوة ارادتها تمتلك ناصية السلطة وتحتفظ بها، وتظهر هذه السلطة للعيان اما بواسطة الملك او مجلس النواب او الدستور، وبديهي ان ارادة الدولة السلطانية هي التي تدير الشؤون التي تتناولها الواجبات السياسية والامتيازات التي اشرنا اليها . ففي الحكومات النيابية حيث يحكم الناس أنفسهم بنواب ينتخبونهم يكون السلطان في الدستور وهو من صنع الشعب، يعني ان الشعب يعيّن حقوقهُ السياسية وواجباته والامتيازات التي يتمتع بها بواسطة الدساتير والشرائع التي يسنها وبالسلطة المحترمة التي يمتلك ناصيتها . ثم ان حق الاقتراع والتوظف وواجب تأدية الضرائب وحمل السلاح للدفاع عن الاوطان ورد عادية الطامعين وتعيين وظائف الضباط وحدودهم السياسية كل ذلك يجب تقريره بواسطة الحكومة بحسب قوانين واضحة تصدرها ونظم معينة تجري عليها . فأين هذا الموقف من تلك البلدان التي حرمت استقلالها فبلغت من الضعف والامتهان ان أصبحت جميع مظاهر سيادتها احجار شطرنج تلعب بها الايدي الغاصبة، حتى ان دستورها وهو قاعدة عملها الغي الغاءً صريحاً بمجرد مادة اضافية واحدة ادخلتها اليد الاجنبية فجعلتهُ هزءًا وسخرية

(١٠) على الدولة ان تعيش وان تحتفظ بعلاقاتها السياسية بالدول الاجنبية، فكل دولة هي حيال الدول الاخرى وحدة مستقلة، وعليها ان تحتفظ بهذه الوحدة وهذا الاستقلال، وكل اتصال بالدول الاخرى يجب ان تكون الدولة واسطة عقده وطريقة تنفيذه، ومن اعظم وجائبها ان تدفع عن الاهلين ما يداهمهم من الاخطار الخارجية، وان تنمي جميع مصالحها المتعلقة بالدول الاجنبية، وأن ترعى حقوقها والامتيازات التي لها وان يكون رعاياها وما يمتلكون في حرز من حمايتها حريز متى تعلق ذلك كله بالشؤون الدولية

ويلحق بهذه الوظائف الضرورية وظائف اخرى اختيارية منها ادارة التجارة والصناعة

وتنظيم العمل والاستيلاء على الطرق والمعابر والجسور والسكك الحديدية والبرق والبريد والاشراف على الشؤون الصحية وتمهد التربية والتعليم والعناية بالفقراء والايتام والعجزة وسن القوانين التي تتناول صنع بعض الاطعمة وبيعها واستهلاكها

ولسنا بحاجة بعد سرد هذه الوظائف الى القول ان هنالك ميلاً مضطرداً في الحكومات الحاضرة الى الاضطلاع بالوظائف المتزايدة واستجماع القوى المشتتة مما حمل الكثيرين من اهل البحث على القول ان هذا الميل سيشتد الى ان تقبض الدولة على الاملاك والصنائع والمرافق والاعمال فتتألف حينئذٍ الدولة الاشتراكية باختيار الامة ونزولاً على ارادة الرأي العام فيها. وهذا (برنارد شو) يذهب فيما يذهب اليهِ الى ان العالم يسير في طريق الاشتراكية رغم انفه. ويتجلى هذا السير فيما تمتلكه الدولة في ايامنا من المنافع العامة والمرافق المشتركة ، فالطرقات والشوارع والحدائق البلدية والجسور العمومية كل ذلك يستعمله الافراد على الطريقة الاشتراكية الشيوعية . وقد بقي البريد في انكلترا الى اجل قريب ملك الافراد يستثمرونهُ استثماراً خاصًّا الى ان تحوَّل فصار ملك الدولة، ولا يفكر احد في شيء من الضرر في مثل هذا التحول النافع، وقد تسير البنوك سيرة البريد ايضاً فتمسي ملك الدولة ويبطل ان تكون حصتها من الربح الذي تأخذه رباً على الاموال اضعاف ما يربحه الافراد المتعاملون ، ولم لا يوزع اللبن يا ترى على الناس بالطريقة الاشتراكية كما توزع المياه في المدن بالانابيب على البيوت فيتنعم الاطفال باللبن جوهر غذائهم كما يتنعم الناس بالماء اصل حياتهم ؟ لكن التتبع دل على انهُ ليس من الضروري ان يؤدي تنظيم المنافع المشتركة على هذا النحو الى تأليف الحكومة الاشتراكية الشيوعية فقد قطعت المانيا وايطاليا مثلاً شوطاً بعيداً في هذا المضمار من غير ان تبطلا الرأسمالية او أن تتشيعا على الطريقة الروسية

ويظهر من قائمة هذه الوظائف الاختيارية المتنوعة ان ليس ثمة طريقة يعتمد عليها في بيان ما يجب ان يضطلع بهِ الفرد وما يجب ان تضطلع به الحكومة ، ويجوز ان يكون القول الفصل في ذلك للرأي العام متى كان ناضجاً ومنظماً تنظيماً صحيحاً صالحاً للتعبير عن ارادة الشعب وحينئذٍ تعمل الحكومة بارشاده وتحت اشرافهِ ونفوذه كل ما من شأنهِ ان يؤدي الى السعادة والهناءة ولو اقتضى ذلك زيادة تدخلها. وقد افضنا في ذكر وجائب الدولة لنوجّهُ انظار القارىء الى مجال الحكومات الحاضرة المتسع في العالم الغربي ولكننا لم نقصد بوجه من الوجوه ان نسمح لمثل هذا المجال ان يتعدى الى الحرية الفردية المقدسة فهذه الحرية هي الغاية العظمى لكل حكومة صالحة والهدف الاسمى لكل تشريع كريم وتضييقها الى حد بعيد هو العيب الاكبر الملتصق بالحكومات الدكتاتورية الشديدة الوطأة، ولولا الحرية ما ارتقى البشر الى مستواه ولا حلّقت العقول فيما لها من سماء صافية ولا كانت فنون ولا حكمة ولا دين ، وليس من مصلحة البشر في شيء ان تكم افواه النقّاد وان كانت في مصلحتهم ان يلجم السفهاء . ولا يرتقي

المجتمع متى كانت افكار النبغاء عرضة في كل جولة من جولاتها للاصطدام بالقانون، ولأهون على الحوت أن يعيش في ساقية من الماء الضحضاح من ان يعيش الرجل الكبير في نظام ضيّق، فعلى المشترعين عند سنهم الدساتير ان يضعوا نصب عيونهم ان القانون انما جعل لمنع الانحراف المرضي من جهة ولتشجيع السير الصحي من جهة اخرى ، وقد ادّى العالم غرماً باهظاً جداً على تلك الجرائم التي اجترمها « ديوان التفتيش » في القرون الوسطى في اوربا بقتله الالوف من النوابغ الى أن تغلبت الحرية ففاز اهل المزايا بالبيئة التي تسمح بظهور خصائصهم وعاد الازدهار بعد المحل، ويجوز لنا ان نقول أن كل امة ضربت على عقول أبنائها نطاقاً ثابتاً يحول دون ظهور مواهبهم هي امة صائرة الى الزوال . (قال جون لوك):

« ليست الشريعة بالمعنى الصحيح التضييق على الرجل الحر العامل بقدر ما هي تدريبه وترويضه للوصول الى مصالحه القانونية ، وهي لا تأمر باكثر مما يعود بالنفع على العائشين بكنفها فلو كان في مقدورهم ان يكونوا بفقدها اكثر سعادة منهم بوجودها لتلاشت حينئذٍ من نفسها باعتبارها فضلة زائدة لا فائدة منها . . . . لذلك مهما اسيء فهم الغاية من الشريعة فهذه الغاية لن تكون لسحق الحرية وخنقها بل للاحتفاظ بها واطلاقها »[1]

والآن وقد وصلنا الى معالجة المذاهب السياسية الحديثة التي لها اتصال وثيق بالجيل الذي نعيش فيه فقد رأينا اختصاراً للوقت وجمعاً لشمل الموضوع المتشعب وتسهيلاً على القارىء ان نكون اكثر تقيُّداً بالخلاصة البديعة التي نشرها الاستاذ (كول) في « موجز المعارف الحاضرة » الا حيث تلجئنا الضرورة الى ذكر ما لا محيد عن ذكره

﴿ هيجل وماركس ﴾ : بينما كان (جرمي بنثم) يؤيد مذهبه الفردي في بريطانيا ويقول باعطاء اكبر قسط من السعادة لاكثر عدد من الافراد كان (هيجل) الفيلسوف الالماني المتوفى سنة ١٨٣١ ينشر في القارة الاوربية مذهبهُ وهو ينطوي على تمجيد سلطان الدولة وحمل الفرد على أن يحقق وجوده وينشد سعادته ليس في مصلحتهِ الفردية فقط بل فيما يبذلهُ للمصلحة العامة من المساعي في الدولة وهو الاهم . وفي نظر (هيجل) ان الدولة سر الاسرار وقدس الاقداس يجد الناس فيها اطايب الحياة ويحققون اسمى الغايات لاغرو انهُ الحّ في القول بوحدتها واطلاق يدها والخضوع لمشيئتها مما يؤيد النظام الاستبدادي الاوتوقراطي ، ولما ذكر اختلاف مواهب الناس فيما لهم من طاقة على خدمة الدولة ايد العظامية لانها قائمة كما ذكرنا على ما تدعيهِ من ميزات تميزها عن سائر الخلق وتجعلها اهلاً للتحلي بادارة الدفة السياسية. وعنده ان الحكم على اهلية الدولة يتوقف على مقدار قوتها فهو والحالة هذه ممجد للحرب مؤيد للبسطة السياسية باعتبارها وسيلتين تتوسل بهما الدولة لتحقيق وجودها . ولما كانت الدولة

(1) John Locke Second Essay on Civil Government.

في فلسفته هي اثمن مشروع اخرجهُ الناس الى حيّز العمل فلا بدع ان هزأ بنظرية «تآخي الانسان» وضحك من القول بتأليف «الاسرة البشرية» على سطح الارض . وانّى لهُ مثل هذه العاطفة وعندهُ أن الدولة الواحدة مصفوفة في وجه الدولة الاخرى صفّ الجيوش المتبارزة للقتال

اما مذهبهُ في الارتقاء فيلخّص في قوله ان الاصل في الاشياء هو « الفكرة » وان المادة انما هي صورة منعكسة عنها ويتم الارتقاء بتحقيق هذه « الفكرة » بصورة تدريجية طريقتها ان يحصل تنازع في كل مرحلة بين الفكرة السائدة المتغلبة والفكرة التي تناقضها الى ان يتولد من هذا الخصام بين الفكرتين مزيج من القديم والحديث — يعني الى ان تتولد فكرة جديدة من ازدواجهما معاً تتفوق عليهما كلتيهما ولكنها محكوم عليها بالانهزام ايضاً امام ما يستجدّ من الافكار بطريقة هذا التنازع بين الافكار المتناقضة

﴿كارل ماركس﴾ استعار كارل ماركس رسول الاشتراكية هذه النظرة النشوئية التدرجية ولكنهُ عكسها رأساً على عقب فهو لم يعتدّ « بالفكرة » ولا حسبها اصل الاشياء كما فعل (هيجل) بل قال ان العامل المؤثر في النشوء الاجتماعي هو (القوى المادية المنتجة) التي تتجهز بها الجمعية البشرية — يعني ان ينابيع الثروة التي يستخدمها الانسان من اراض وآلات واجهزة ... كل ذلك يكسب الناس شكل الحياة الاجتماعية التي يتمتعون بها فتكون الافكار المنتشرة بينهم نتيجة ما هم عليهِ من الطرائق الانتاجية التي توصلوا اليها ، فاذا كانت هذه الطرائق راقية دقيقة التركيب وكثيرة المحصول فالحياة الاجتماعية راقية على نسبتها والعكس بالعكس . فلا عجب ان تكون البلاد الصناعية ارقى من البلاد الزراعية وهذه ارقى من بلاد المراعي والخلاصة ان (ماركس) يقول ان وسائل الانتاج في المجتمع وما يبنى عليها من العلاقات بين الناس تؤلف النظام الاقتصادي في الهيئة الاجتماعية وهذا النظام هو العامل الاساسي في تكوين النشوء العقلي في الشعوب فهيجل كما ترى ابتدأ بالعقل وجعل المادة صورة منعكسة عنهُ . ويدعى مذهب ماركس في الفلسفة « التعليل المادي للتاريخ » وقد أبان فيهِ الاطوار التي مرّ عليها المجتمع منذ ما استولى على شؤونهِ اصحاب الاراضي الواسعة الى ان هبت الثورة الصناعية والتجارية فانتزعت الشيء الكثير من سلطتهم وانتهت الحال باندماجهما معاً في ادارة الحكم ، ثم شبّت الرأسمالية الصناعية وعملت جهدها لاستثمار ينابيع الثروة في الشعب مما حملها على حشر الالوف المؤلفة من العمال في المصانع وتدريبهم على النظام العملي المنتج. لكن عملها هذا اتاح لهم من القوة والفرصة ما ينظمون بهِ انفسهم في وجه اسيادهم الذين استخدموهم ، والخلاصة ان اضطرار الرأسمالية الى انفاق مجهودها للحصول على اعظم الارباح ادّى الى نهضة العمال وانتشار مذهبهم الاشتراكي وما ينطوي عليهِ من تهديد بقض مضاجع الرأسماليين ودعاويهم الطويلة العريضة . وقد تنبأ ماركس عن العمال بقوله ان هذه الطبقة

الخاضعة التي لا يحق لاحد ان يمنعها من تنظيم نفسها او يحول دون صيحاتها العالية بالاحتجاج ستثلُّ عروش الرأسماليين وتقضي على رأس المال باعتباره نظاماً اقتصادياً تعيش تحت لوائه الشعوب . وستفعل ذلك لانها على قوله اصلح من الرأسماليين في استثمار ينابيع الثروة واستخراج خيراتها، وبتغلب هؤلاء « الصعاليك » او « المساكين » لا تبقى ثمة طبقة ما كلة لغيرها، ومتى تألف المجتمع الخالي من الطبقات يزول الاستثمار وتزول معهُ حكومة الطبقة لتحل محلها الادارة المشتركة العامة التي تدير ينابيع الثروة في الشعب لمصلحة الجميع . وعلى العمال ليس فقط ان يقبضوا على زمام الحكومة الحاضرة ويستخدموها لغاياتهم بل ان يحققوها محقاً هي والطبقة الاقتصادية المستولية عليها ويحلوا محلها نظاماً يؤسسونه من جديد. وهنا تبتدئ الاختلافات بين الاشتراكيين فكل حزب منهم يولي وجهه شطراً — يعني ان اتفاق كلهم على ضرورة محق حكومة الطبقات تتفكك عراها حالما يبحثون عن النظام الجديد الذي يجب ان يحل محلها وكيف يجب ان يتمّ التغيير ، فللاشتراكيين الدموقراطيين رأي سلمي تدرجي يتحقق بواسطة الانتخابات النيابية وللشيوعيين رأي انقلابي قائم على الثورة العالمية

ولد (كارل ماركس) في مدينة (ترير) بالمانيا في سنة ١٨١٨ ودرس الفلسفة والحقوق في مدينتي (بون) و(برلين) ونال شهادة الدكتوراه في (يينا) سنة ١٨٤١ وقد اضطهدته بلاده من غير أن تعرف ما سيكون من أمره حتى اضطر الى الهجرة منها فاجتمع في (باريز) بأهم أصدقائه (انجلس) وفي سنة ١٨٥٩ وهي السنة التي امتازت بظهور كتاب « أصل الانواع » لداروِن نشر ماركس كتابه « الذيل لنقد الاقتصاد » وقدر لكل من هذين الكتابين احداث ثورة في دائرته : ذاك في علم الحياة وهذا في علم الثروة العمومية. ويعد «البيان الشيوعي» الذي نشره ماركس بالالمانية في سنة ١٨٤٨ — وهو في خمس وعشرين صفحة — اول نص عالج الاشتراكية بطريقة علمية واضحة واخرجها من صف الفلسفة الخيالية والاحلام الذهبية ، وقد ختمهُ بالوعيد المشهور: فلترتعش فرائص الطبقات الحاكمة عند شبوب الثورة الشيوعية. اما الصعاليك فليس لديهم ما يخسرون سوى السلاسل والاغلال ولكن امامهم دنيا يربحونها. اتحدوا ايها العمال في الآفاق

﴿ مذهب النشوء والاوضاع السياسية ﴾ عرضنا لداروِن وأشرنا الى الثورة التي أحدثها مذهبه في علم الحياة وظن الناس لاول وهلة ان مذهب النشوء سيحلُّ معضلة السياسة ولكن نظرة واحدة في المذاهب المتباينة التي قال بها ائمة هذا المذهب تدل على خطأ أهل هذا الظن فسبنسر قال في « الفردية » كما قال (جرمي بنثم) من قبله ، ومعظم النشوئيين السابقين نظروا الى المجتمع وحدة او كتلة عضوية اكثر منه وحدة نفسانية اجتماعية. واهتم سبنسر منهم خاصة بتنازع البقاء بين الناس فلا عجب ان يتصور الجمعية البشرية ميداناً يتصارع فيه الافراد فلا تكتب السلامة فيه الا للاصلح او الاقوى ولكن زميله (توماس هكسلي) عدَّ المجتمع أداة

مستحدثة في التدرج العضوي غايتها الحيلولة دون هذا التنازع ومنعه من ان يطأ الافراد بقدميه القاسيتين من غير رحمة ولا شفقة . لذلك كانت وظيفة هذه الاداة الاجتماعية المستحدثة الاشراف والتنظيم والتدخل لتحويل الجمعية البشرية من دغل موحش الى حديقة غناء . اما (البرنس كروبوتكن) الروسي وهو من اعلام النشوئيين المتأخرين فقد خطا في هذا المضمار خطوة اوسع اذ حاول في كتابه «التعاون» ان يستخرج للاشتراكية اساساً مما تقتضيه الضرورة الحيوية البيولوجية من التعاون بين الناس كما بين الحيوانات . وتمسك غيره بالقول ان المجتمع جسم عضوي ذو دماغ هو الحكومة فالواجب اذن تخضع سائر الاعضاء لسلطة هذا الدماغ . وتدل الدلائل على ان هذه الطريقة النشوئية الاشتراكية التي قال بها البرنس كروبوتكن كانت أشد نفوذاً في أثرها من الطريقة الفردية التي تمسك بها سبنسر واخوانه

على ان الاسترسال في التشابه الحيوي بين المجتمع والجسم العضوي واغفال شأن العامل النفساني في جمع البشر وضم بعضهم الى بعض جعل مذهب النشوء قليل الفائدة . ولا مراء ان الطبيعة العلمية في أهل التحقيق تمل الخيالات والاستنباطات المتطرفة خصوصاً ما بني منها على التشابه السطحي . لا جرم ان العلماء طرقوا باباً جديداً لدرس المجتمع اساسه درس الحالة الراهنة وتصنيف الاوضاع البشرية ومقارنتها بعضها ببعض ودرس بناء العقل الانساني وفهم الطريقة التي يسير عليها

﴿السياسة وعلم الانسان والنفس﴾ لقد زوّدنا درس الاوضاع الاجتماعية الماضية والحاضرة منذ الانسان الاول الى اليوم بمعلومات نفيسة ، وكان لعلم الانسان في هذا المضمار النصيب الاوفر فانكشفت لنا عقلية الشعوب الفطرية ذات المدنية الابتدائية وظهرت نظمها الاجتماعية مما أهاب بعلماء السياسة المتأخرين الى الابتعاد عن الطريقة المنطقية والالتزامات العقلية النظرية في معالجة مثل هذه الشؤون وحدا بهم الى الاعتماد على «الحالة الراهنة» التي نجد عليها هذه الاوضاع سواء في الشعوب الراقية أم الشعوب الابتدائية . وان هذا الميل الى الامر الواقع امتزج حالاً بالملاحظات المتوفرة من درس النفس على هذه الطريقة الراهنة أيضاً التي لا شأن للتحكم العقلي فيها . وكان من نتائج هذا الدرس العلمي ان أصبح العلماء في شك (اولاً) من كل جواب يزعم أصحابه انه مقنع يفي بالرد على السؤال: « ما هو الشكل الصحيح العام الذي يتخذه التنظيم الاجتماعي بقطع النظر عن الزمان والمكان ؟ » (ثانياً) من كل محاولة لفهم القضية السياسية على الطريقة العقلية المجردة . ولا يعني هذا الكلام ان علماء النفس والانسان طلّقوا العقل بتاتاً في هذه الدروس بل ان بعضاً منهم كالاستاذ (ولاس) العالم المشهور هم من أهل المنطق البحت لانهم رأوا في اشراف العقل على الحياة الاجتماعية اوضح علامة على ارتقاء المدنية والامل الاكبر المعوّل عليه في النجاة . ومع كل هذا الاعتماد على العقل في ترتيب العلاج ومقاومة المرض فقد حملتهم المباحث الجديدة التي ذكرناها على النظر الى سير العمل في المجتمع

البشري القديم والحديث بعين اقل احتفالاً بالمعقول والمنطق واكثر اعتداداً بالجزء اللاعقلي او الكيفي في البشر باعتباره عنصراً ضرورياً لتدوير دفة العمل في أية جمعية بشرية كانت . وقصارى القول انهم عرفوا أن الجزء الاعظم من اعمال البشر الاجتماعية هو بالضرورة غريزي اكثر منه عقلي ، وان الحكم على اشكال التنظيم الاجتماعي والسياسي ومافيها من الخطط ليس بطريقة المنطق الاستنتاجي بل بنسبة ما لهذه الاشكال والخطط من الوقع الحسن في الغرائز والشهوات

﴿التوحيد في الدين والشرك في السياسة﴾ الاديان الراقية في العالم موحدة تؤمن بمرجع أخير واحد ولكن السياسة على العكس تميل الى الشرك في هذا العصر . وقد دلتنا ابحاث العلماء في مجتمع القرون الوسطى على شأن بعض الاوضاع والجمعيات التي اعربت عن الشعور الشعبي العام في تلك الازمان من غير ان يكون للدولة دخل في احداثها او في تنظيمها مما يفيد ان الدولة عامل واحد فقط من جملة عوامل متعددة في ادارة دفة الاعمال السياسية الاجتماعية وان كانت في الواقع أهم عامل من هذا القبيل ، فلا عجب ان حلّ الشرك السياسي محلّ التوحيد في اذهان الباحثين ولم يعد للدولة تلك الوحدانية المستقلة المتصرفة في شؤون الخلق . بل صار لها شركاء من الجمعيات المتنوعة التي يؤلفها الافراد باختيارهم في داخل الدولة

وتأيدت هذه النظريات الاستقرائية التاريخية في عصرنا بما استجدّ من النقابات الصناعية والمتحدات التجارية وتأثيرها السياسي خصوصاً تلك المؤسسات الرأسمالية الكبرى بحيث رأت اوربا واميركا انها وان كانت قادرة على وضع القوانين المتعلقة بهذه المؤسسات وبادارتها الاّ انها متى بلغت درجة التنفيذ وجدت نفسها عاجزة لا قبل لها بمقاومتها مقاومة صحيحة وانزالها على حكمها . واكتفى المشترعون في العصر الفكتوري في انكلترا بأن ينظروا الى المتحدات التجارية انها نقابات تكرمت عليها الدولة بالتمتع بحق الوجود وان ليس لها من الحقوق الاّ ما جادت به عليها تفضلاً ، بيد ان هذه المتحدات اخذت تثبت استقلالها مدعية حق العمل باسم اعضائها ولو بالاضراب رغم الاوامر الرسمية

وتبدو للناظر في غضون السنوات الاخيرة التي سبقت الحرب الكبرى موجة من اضطراب للعمال اكتسحت العالم الصناعي وحملت بين طياتها عداء لفكرة الطريقة البرلمانية القديمة . وقد انبعثت هذه الموجة من نظريات ترمي الى بناء الحياة الاجتماعية المستجدة ليس على الاساس البرلماني القديم بل على المتحدات والنقابات وغيرها من الجمعيات الاقتصادية في جوهرها القائمة على فكرة العمل او الوظيفة باعتبارها مصدر الحياة في المجتمع ، فهذه الديمقراطية (الوظيفية) بما لها من البناء الاجتماعي المتنوع اخذت تتحدى النظرية الديمقراطية البرلمانية القديمة وما استنته من القول «صوت واحد للفرد الواحد» لان هذا «الصوت» يجب الاّ يعطى للفرد باعتباره فرداً بل للفرد باعتباره عاملاً منتجاً . ولم تمر هذه الموجة من غير ان تترك اثراً ظاهراً

في خارج الحلقات الاقتصادية الصناعية ، حتى ان زعماء الدين في ديار الغرب اخذوا يؤيدون استقلال الكنيسة وضرورة خروجها من وصاية الدولة كما تنحو كثير من الجامعات العلمية الكبرى هذا النحو ايضاً ، وينفخون فيها روحاً جديدة باعطاء الدين مقاماً في حياة المجتمع مستقلا عن حياة الدولة ومعادلاً لها في مستواها ، وكانت هذه السنون حافلة بالخطط العملية والنظرية لبناء حياة المجتمع ليس على قاعدة « صوت واحد للفرد الواحد » بل على اعتبار الجمعية البشرية مركباً متناسباً مؤلفاً من وظائف متنوعة كل منها يحتاج الى تنظيم خاص

الحرب العالمية والثورات

ثم لما نشبت الحرب العالمية اضطرت الدول المتحاربة الى الاستعانة بكثير من المتحدات والنقابات والجمعيات حتى اذا عقد السلم وارادت هذه الدول الرجوع الى ما كانت عليه قبل هذه الجزرة الغزيرة وجدت نفسها امام جموع منظمة ذاقت لذة الاشتراك في الحكم وعرفت قيمة الخدمات التي ادتها للدولة لذلك لم يكن من المتيسر الخلاص من سلطتها بل ان الحرب زادت هذه السلطة قوة على قوة

وما جفت دماء القتلى في الميادين الا والامة الالمانية في ثورة لا تدري ماذا تصنع ، ذلك لان الامبراطورية الجرمانية التي قامت على تعاليم (هيجل) وانبسطت على مبادىء (فريدريخ نيتشه) العنيفة انهارت ، فلما ارادت ان تتماسك لم تجد امامها مستنداً غير الطريقة البرلمانية لا لانها خير الطرق واجمعها للمذاهب المشتتة بل لانهُ ليس في الميدان غيرها ، وقد غادر انهيار الامبراطورية الهيجلية فراغاً في ذهن الالمانيين لما يمتلىء ، وقد اظهروا في انتخاباتهم المتكررة انهم غير راضين عن الحكم الديمقراطي ، وآخر تجاربهم وأهمها تسليم مقاليد الامور لهتلر زعيم (النـازي) وهي الفاشستية الالمانية ، وفي عقيدتي ان هذه التجربة ستجد اقبالاً عندهم وتأييداً عظيماً لانطباقها على ميراثهم الفلسفي الوطني من جهة وللاءمتها للتدرج الحاضر من جهة اخرى ، على ان التكهن بمصير العمال في بلاد صناعية كالمانيا حافلة بهم امر متعذر ولا بدّ لكل حكومة تؤلف هناك من العناية بشأنهم والالتفات الى مصالحهم ولعلّ في ذلك ما يحول دون خطرهم على الوضع الحاضر

الاشتراكية والبولشفية

﴿ الاشتراكية ﴾ : اول ما وضعت هذه الكلمة في معاجم اللغات الاوربية حوالي سنة ١٨٣٥ وضعها (روبرت اون) المتوفى سنة ١٨٥٨ وتتجلى البواعث التي ادت الى الاشتراكية بعض التجلي بالاشارة الى حياة هذا الرجل الانكليزي الغريب في اطواره والى الاعمال اللذيذة

الثمينة التي قام بها . فقد كان من كبار رجال الاعمال وله مُحدَثاتٌ جمّة في صناعة غزل القطن تشف عن قدرة وذكاء متوقد ، وجمع ثروة لا بأس بها ، وقد رأى بام العين الشقاء المخيم على العمال في مصنعه في (مانشستر) وضياع شطر عظيم من حياتهم عبثاً فاخذ على عاتقه اصلاح حالهم وتحسين العلائق بينهم وبين مخدوميهم، ومن سنة ١٨٠٠ الى سنة ١٨٢٠ ادخل من الاصلاحات على من كان في خدمته من العمال في مصنعه في (نيولنارك) وعددهم الفان ما يعد عجباً عجاباً. قال الكاتب اتش. جي . ولز[1] عنه انهُ خفض ساعات العمل تخفيضاً محسوساً وابطل تشغيل الاطفال وحسّن البناء من الوجهة الصحية وزاد في معارف العمال وتمرينهم العلمي العملي وخصص لهم راتباً يتقاضونهُ في اوقات البطالة وكساد الاسواق وانشأ المدارس الحديثة وذهب الى ان النساء والرجال هم ابناء البيئة التهذيبية التي يعيشون فيها ، ثم بفضل جهوده والدعاية الواسعة النطاق التي بثها اصدر البارلمان الانكليزي في سنة ١٨١٩ القانون المشهور باسم « قانون المصانع » وبموجبهِ لا يجوز لاصحاب المعامل ان يستخدموا الاطفال من سن التاسعة فما دون ولا ان تتجاوز ساعات العمل الاثنتي عشرة في اليوم ، ولكن اهل الجمود من اعداء التجديد والذين لا يحسبون حساباً للفقراء والذين لهم مصانع يخشون عليها من البدع التي ادخلها (اون) — ان هؤلاءِ جميعاً تربصوا بهِ واعدوا العدة لمحاربتهِ فلم يجدوا خيراً من اخذه بالآراء الحرة التي يدين بها مما يخالف النصرانية وعقائدها فحملوا عليهِ حملة كنسية قروسطية كان لها في تلك الايام السحيقة أثر سيىء عليهِ

ومن الطف انتقاداته للعملة وتقلب اسعارها قوله اننا ما دمنا نؤدي ثمناً على الاعمال بعملة متقلبة فأملنا بالحصول على العدالة الاقتصادية لن يزيد على املنا بالحصول على دنيا نريدها مضبوطة في حين تتقلب ساعاتها تقلب الحرباء

ومن تجاربه انهُ حاول اصدار اوراق مالية تقدر قيمتها بساعات العمل لعقيدتهِ ان العمل هو القيمة الثابتة ، فهنالك ورقة مالية بساعة واحدة من العمل وورقة بخمس ساعات وورقة بعشرين ساعة . وقد تولدت من تأثيره المباشر وآرائهِ المبتكرة النقابات التي تملأ الاوساط الاقتصادية في عصرنا هذا وربما بلغ اعضاؤها ثلاثين مليوناً او اربعين مليوناً من الخلق

وهذه الاشتراكية التي وضع اساسها العملي (روبرت اون) هي اشتراكية سلمية علقت جميع آمالها على الذوق السليم في الناس بان ينهضوا ويعيدوا تنظيم المجتمع ويصلحوا ما فيهِ من عيوب سياسية واقتصادية واجتماعية . فهذا كما يرى القارئ مخالف لاشتراكية (ماركس) وما فيها من الاعتماد التام على الكره المتغلغل في صدور الصعاليك لاهتضام حقوقهم ولتجردهم من الاموال والاملاك واتخاذ هذا الكره قوة عنيفة دافعة لاحداث الانقلاب الاشتراكي

(1) The Outline of History p. 109

المنشود . فهذه الاشتراكية العنيفة هي اساس الشيوعية التي تهدد النظم الحاضرة . وقد نجح (ماركس) في اذكاء نار الثورة الاجتماعية حتى ان تعاليمه ادت الى تأليف عصبة من العمال من انحاء الارض وهي العصبة التي تسمى (الدولية الاولى) ويقال بالاجمال ان الصراع العنيف بين الاشتراكيتين — اشتراكية (اون) واشتراكية (ماركس) — انتهى بتغلب هذه على تلك كما هو ظاهر من ميل الاشتراكيين في انحاء الارض الى تنظيم حركة العمال لاتخاذها كما يدعون سلاحاً ماضياً ينقذون به النظم السياسية والاقتصادية والاجتماعية من ايدي محتكريها من اهل التملك الخاص

وتفرّق الاشتراكية الحديثة تفريقاً جلياً بين التملك الشخصي والتملك الجمهوري ، ومدار حركتها ان تكون الارض وجميع الوسائل الطبيعية للانتاج والنقل والتوزيع بيد الجمهور ، وان يكون للفرد في ضمن هذه الحدود الشيء الكثير من التملك الشخصي والحرية الذاتية الطليقة

ولكن ليت شعري كما قال (ولز) من هو الجمهور الذي يستولي على هذه الثروة المشتركة؟ ايكون مؤلفاً من الملك وحاشيته ام من اهل المدينة ، من اهل المقاطعة ام من اهل المملكة من الامة ام من الانسانية جمعاء ؟ وهنا نجد الاشتراكية صامتة لا تحير جواباً . ثم اذا انكر الاشتراكيون على الفرد ان يدّعي حق التصرف في منجم من المناجم او في قطعة من الارض فكيف يسمحون لامة من الامم ان تحتكر المناجم او طرق المواصلات او الثروة الطبيعية في الارض التي تقيم بها وتمنع منها سائر العالم ؟

اما الشيوعية فهي الغاء التملك بتاتاً اي جعل جميع الاشياء ملك جميع الاشخاص

﴿ البولشفية ﴾ : ابتدأت الثورة الروسية في سنة ١٩١٧ بتفكك الجيش الروسي في الجبهة الالمانية ورجوع افراده الى القرى والمدن يحرقون وينهبون ويقطعون السابلة الى ان ازل القيصر الضعيف عن عرش آل رومانوف وتبوأت الحكومة المؤقتة مقعدها في الحكم وعلى رأسها (كرنسكي) الرجل الاشتراكي الديموقراطي الوهمي الهستيري ولكن ما عتم ان اكتسحه البولشفيك بزعامة (نيقولاي لنين) فقبض هذا على ازمة الامور بيد من حديد ونشر على حكومات العالم منشوراً يعد اعظم تحدٍّ حازم ظهر منذ سنة ١٧٨٩ الى اليوم وفيه الدعوة الى فكرة صريحة في الحكم لم تكن معهودة من قبل

والواقع ان البولشفية او الشيوعية هي نظرية (ماركس) مفسرة تفسيراً ينطبق على الافكار والاحوال في القرن العشرين ، ومع ما كان عليه تلاميذ هذا الرجل الثائر من الاتفاق على أساس تعاليمه الاقتصادية فقد اختلفوا جد الاختلاف على مضامين هذه التعاليم العملية والسياسية . فالحزب الاشتراكي الدموقراطي الجرماني الذي يتفكك اليوم أمام الحملات المتطرفة الوطنية ومن حذا حذوه من الفرق ومنهم المنشفيك الروس اشتغلوا بتنظيم الأحزاب الاشتراكية البرلمانية واستخدموها عند سنوح الفرصة لتأييد الاصلاحات الاجتماعية ، على ان تكون

الغاية المنشودة الانتصار على الدولة انتصاراً تدريجياً وتحويل الرأسمالية على مهل الى الاشتراكية وذلك باتخاذ اجراآت تشريعية تبدل شكل الحياة في المجتمع شيئاً فشيئاً . لكن البولشفيك عرضوا تفسيراً آخر لتعاليم (ماركس) خلاصته ان الدولة الرأسمالية لا يمكن انقاذها من القابضين على زمامها واستخدامها في المصالح الاشتراكية فلا بدّ من سحقها اولاً ثم يتوجب على العمال بعد تتويج هامتهم باكاليل الظفر في هذا الصراع العنيف ان يخلقوا في محلها غداة ثورتهم دولة جديدة مختلفة في نوعها وروحها تكون سلماً لخدمة الاغراض البعيدة التي ينشدونها

بيد ان هذه الدولة الجديدة لا يمكن ان تكون في حد ذاتها اشتراكية او شيوعية بالمعنى التام لان فكرة «دولة اشتراكية» في نظر الرجل الاشتراكي القح هي فكرة يناقض بعضها بعضاً ، فالدولة في نظره اداة تستولي عليها طبقة من الناس كالطبقة الراسمالية لارغام طبقة أخرى كطبقة العمال . ولكن متى توطدت اركان الاشتراكية في العالم فارغام طبقة لاخرى يتلاشى من الوجود لانه لا تبقى ثمة طبقات بالكلية ، بل الذي يستجد هو اداة لتسيير أمور الناس تدعى «الآلة الادارية»

غير ان الانتقال الى الشيوعية من بعد سحق الرأسمالية لا يتم دفعة واحدة بل لا بد من فترة تكون فيها السلطة قاهرة بيد « الصعاليك » فان هؤلاء مضطرون في الدفاع عن حوزتهم الى تنظيم صفوفهم ومحاربة « الرجعى » في بلادهم والقضاء على الرأسماليين قضاء مبرماً لا تقوم لهم قائمة من بعده واستئصال شأفة الطبقة التي كانت حاكمة بعد تجريدها من مالها ثم يأخذون في التمرن على المعيشة في نظام ليس فيه طبقات الى ان يكتسبوا العادات الاجتماعية والاشكال النظامية الضرورية لتسيير المجتمع الخالي من الطبقات . وتعرف هذه الفترة بفترة « استبداد الصعاليك القاهر » وهذه الجملة هي مما كتبه (ماركس) نفسه وتنبأ به ويقول الشيوعيون ان الروسيا لا تزال تجتاز هذه المحنة منذ سنة ١٩١٧ الى اليوم

وعلى القارىء ألا ينسى ان المثل الاعلى الذي ينشده الشيوعيون من كل الانقلاب الذي يحدثونه هو عند التحليل النهائي لا يختلف في شيء عن الاشتراكيين الا في هذه الفترة الاستبدادية الحاسمة ، فالشيوعيون والاشتراكيون متفقون على ان يكون التدرج هو من الحالة الرأسمالية التي نحن عليها الى الحالة الاشتراكية المنشودة بيد ان اولئك يطلبون ان يكون الانفصال بين الحالتين حاسماً مطلقاً وان يبنى الجديد من أسس جديدة مباشرة في بيئة مستحدثة قد هيأها العاملون للمقول بالعناية التامة وان يكون بناؤها بايدي دولة تتمتع بسلطان قاهر لا حد له وهي تعمل باسم طبقة الصعاليك ثم تزول من الوجود حالما يصبح الاصلاح الاشتراكي وطيد الاركان . وقصارى القول ان الشيوعيين يذهبون الى وجوب هذه الفترة الانتقالية بين سقوط الرأسمالية وقيام الاشتراكية تكون فيها طبقة الصعاليك ذات سلطان قاهر تتوصل الى تحقيق غايتها العظمى بدولة من صنع يدها

على ان الطبقة بجموع افرادها لا تستطيع ان تملي ارادتها ولا ان تدير شؤون الحكم مباشرة بل لا بدَّ لها من وسيط يقف بينها وبين القوة الاجرائية يعني لا بدَّ لها من رأي عام منظم يمثل طبقة الصعاليك ويعبر عن افكارها ، وهذا والحق يقال هو وظيفة (الحزب الشيوعي) المفتّح الابواب لكل صعلوك يشعر بطبقته ويظهر الاستعداد الكافي للاشتراك في الاعمال والتبعات الملقاة على عاتق الحكومة المستجدة . وما اشبه هذا الحزب الشيوعي بجمعية (الاتحاد والترقي) العثمانية وسيطرة مركزها العام على الدولة وعلى مجالس النواب . ويجري الدستور (السوفيتي) على خلاف القواعد الاساسية في الدموقراطيات النيابية — يعني ان حقوق الانتخاب وان كانت متسعة الاّ انها حقوق محصورة في الطبقة العاملة ومحرّمة على سائر الافراد التابعين للطبقات المستثمرة ، ويعد من هذه الطبقات المستثمرة اهل التجارات الخاصة والفلاحون الاغنياء بل الاطباء والمحامون . والقاعدة التي يتمشى عليها الانتخاب ان ليس « لكل فرد واحد صوت واحد » بل « لكل عامل واحد صوت واحد » تحاشياً من ان يتمتع الطفيليون والذين هم عبء على المجتمع بمثل هذا الحق الغالي . ولما كان الاقتراع في روسيا السوفيتية يجري علناً او « على المكشوف » فلا مجال كثيراً للرأي الفردي في انتقاء الافراد بل القائمة المسيطرة التي لا ترد هي قائمة الحزب الشيوعي . ويراعى في التمثيل جانب الصناع من اهل المدن دائماً لئلاّ يغرقهم سواد الفلاحين الذين يملأون السهل والجبل

وفي نظر الروس الحمر ان الاجراآت المتخذة لثل عروش التجار والفلاحين المتخومين ، وان الحملة المنظمة لجعل الزراعة مشتركة ، وان مشروع السنوات الخمس لتقوية الصناعة — وقد تجدّد حديثاً — كل ذلك خطوات ثابتة في الطريق الموصلة الى النظام الاشتراكي ، ومتى توطد هذا النظام تصبح حكومة الطبقات عملاً لاغياً لان الاشتراكية تكون قد قضت على وجود الطبقات نفسها

ولا بدَّ لنا هنا من تنبيه القارىء الى أن الثورة الروسية في نظر الشيوعيين ليست نهضة وطنية محلية مستقلة غايتها احداث مجتمع اشتراكي في روسيا فقط وانما هي جزء من انقلاب عالمي لا تكون انتصاراتها وطيدة الاركان من غير تحقيقه والحصول عليه . وستبقى الدولة الطبقية في روسيا — وهي دولة الصعاليك — مادامت الرأسمالية في الخارج تهدد نظام « الاتحاد للجمهوريات الاشتراكية السوفيتية » بخطر الرجعى او ما دام في اية ناحية من انحاء الارض جزء من طبقة الصعاليك ينتظر ساعة الفرج ويوم التحرير . لاجرم ان زوال الدولة في البلاد الروسية تأخر الى اجل غير مسمى . وما العلائق السلمية التي عقدها الاتحاد السوفيتي بالعالم الخارجي الرأسمالي سوى انواع من الهدنة المؤقتة في حرب طبقية ستنتهي فقط في مجتمع تطمئن فيه الاشتراكية وتأمن على حياتها من الاخطار

ولا يألو الحزب الشيوعي جهداً منذ الآن في بناء الهيئات المتنوعة كالمتحدات او المؤسسات

القائمة على الادارة الاقتصادية حتى اذا حان الزمن اصبحت عاملة من نفسها مكتفية بطريقتها من غير حاجة الى ادارة سياسية تشرف عليها . ومن هذه الهيئات ما يدعى « ترست » اي المتحدات التي تدير صناعات الدولة ومنها « اللجان التصميمية » وهي التي تضع الخطط العملية ومنها « المجالس الادارية » وهي التي تنظم الحياة الاقتصادية ، ومنها المتحدات التجارية والجمعيات التعاونية وهي النقابات ذات المقام المعترف بهِ في ادارة الشؤون ، فهذه الهيئات جيماً هي ادوات الحكم الاجتماعي والغاية منها ان تحل محل الدولة الطبقية وادارة الصعاليك القاهرة وذلك عند ما تحل الساعة التي تخلف فيها الادارة الاقتصادية الحكومة السياسية

هذه بالاجمال هي الطريقة السوفيتية وما فيها من التقسيم الثنائي المبني على تمثيل الصعاليك تمثيلاً مزدوجاً في الادارة ، الواحد باعتبارهم الطبقة الغالبة في المجالس السوفيتية في المديريات والمقاطعات وفي مؤتمر الدولة العام والثاني باعتبارهم الطبقة الحاكمة في الحزب الشيوعي وهو مؤلف من النخبة المنتخبة من افرادهم ولهُ فروع منتشرة في طول البلاد وعرضها وما اشبه هذه الحالة بالحالة التي كانت عليها الدولة العثمانية عقب ثورة سنة ١٩٠٨ كما قلنا يوم تربع الاتحاديون على دست الحكم فكانت المجالس على انواعها — مجالس الادارة ومجالس الولايات ومجلس المبعوثان — مؤلفة منهم او من اكثريتهم من جهة وكان المركز العام للاتحاد والترقي من جهة اخرى مهيمناً على الحكومة مباشرة وهو يعين لها السياسة التي تسير عليها . ووراء ذلك قوة ثالثة هي قوة التنظيم الاقتصادي من نقابات ومتحدات ومشروعها الاقتصادي المسؤلة عن تنفيذه وهو مشروع السنوات الخمس ثم الايمان الملتهب بالقوة الكامنة في الشعب وامكان استنهاضها الى العمل الدائم الذي لاينضب

فهذا السعي لاستمالة الصعاليك واستثارة حماستهم وتوجيه اراداتهم شطر هذا النظام المستحدث وتأييده ، ثم هذا الجد في حض الناس على العمل وعلى الصراع لتثبيت المجتمع الجديد وتوثيق عراه واحداث جماعة مؤلفة من وطنيين على اساس التساوي بدلاً من وطنيين ناخبين فقط — هذا كله هو الجوهر في الشيوعية اكثر من ذلك النظام الدستوري الجاف المطبق في الدولة الروسية

اما مشروع السنوات الخمس فقد ابتدأ في منتصف الليل من اول سنة ١٩٢٨ وانتهى في منتصف الليل من اول سنة ١٩٣٣ والغاية منه انعاش الصناعة والتجارة بتسخير ابناء البلاد في بذل الجهود مضاعفة على الانتاج والتوزيع وعمارة المباني العامة وفتح الطرق وما اشبه ذلك من الاعمال العمومية — يعني ان الحكومة السوفيتية ارادت الاسراع في تنظيم البلاد تنظيماً صناعيًّا اقتصاديًّا على حساب المعيشة العامة وانقاص مستواها فتحمل الروس ولا سيما العمال منهم في هذا السبيل ما كادت تنوء به ظهورهم لولا العقيدة المتأصلة في النفوس من ان ايمان الصعاليك يزحزح الجبال الراسيات . وذكرت الصحف ان البلاشفة لم ينجزوا مما وعدوا

في هذا المشروع الذي جدّدوه سوى سبعين في المائة وان هم اعلنوا في مشارق الارض ومغاربها ان نجاحهم كان مائة في المائة . وهم لم يعدموا مع ذلك منتقداً مثل المستر (بتريك مرفي) يقول لهم في (الصنداي اكسبرس) مستهزئاً ان روسيا السوفيتية « حوّلت صناعتها من فوضى متفرقة عقيمة الى فوضى مركزية منتجة وحولت حياة سكانها من عبودية يتخبطون فيها كالاعمى الى رق ميكانيكي تحت اشراف ، وقد انجزت في تلك السنوات اعمالاً جليلة القدر ولكن تحت الجلد بالسياط . ويعجب المرء بتلك الاعمال اعجابه بالاهرام ولكنه يكره في نفس الوقت ان يسمع الخبر الممض عن طريقة بنائها»

ولا يفوتني في الختام ان اوجّه انظار النخبة المنتخبة في العالم العربي ولا سيما الشبيبة منهم الى القوة الهائلة التي يستطيع التنظيم الدقيق مع الايمان الصادق ان يقوم بها ، وهذا التنظيم ظاهر في الفاشستية كما هو ظاهر في النازية ولكنني اعتقد انهُ كان في البولشفية اتم واجرأ واكثر نشاطاً ، يدلك على ذلك ان الحزب الشيوعي في روسيا ما ادعى قط ان انصاره يزيدون على مليون ، والواقع ان عدد اعضائه لم يتجاوز في سنة ١٩٢٥ ربع مليون . « ولما كان هذا الحزب المنظم — على صغره — حازماً ومخلصاً ولم يوجد في جميع تلك البلاد المفككة العرى حزب آخر فيه من الشرف او الحزم او الكفاءة ما يمكنهُ ان يصمد لهُ او ان ينازعهُ فقد تمكن من الاستيلاء على بطرسبرج وموسكو ومعظم المدن الروسية وان يستميل اليه بحارة الاسطول الذين فتكوا بمعظم ضباطهم وان يصبح الآمر الناهي في الروسيا جميعاً »[1]

الفاشستية والنازية والكمالية

في وصف «الفاشستية» الايطالية ما يغني القارىء عن ذكر «النازية» الالمانية لان هذه نسخة منقولة عن تلك بشيء من التصرف تقتضيه ذهنية الالمان وتربيتهم والاحوال التي طرأت على بلادهم ، فمن ذلك مثلاً ان (هتلر) زعيم النازي مع كل ما اقدم عليه من الضغط على خصومه والتهجم على حريتهم الشخصية خصوصاً الشيوعيين منهم كان بالاجمال أبعد عن العنف واتخاذ الشدة من زميله (موسوليني) زعيم الفاشستي الاّ مع اليهود ، وهذه الشدة معهم ناشئة من اعتقاد الوطنيين الالمان الراسخ بان اليهود كانوا اصل بلائهم في الحرب العالمية ومصدر نكبة المانيا في اوصابها الحاضرة وسبب تفسخ ابنائها من جراء انتشار العقائد اللاوطنية اليهودية بينهم كالماركسية وغيرها وان الاختبار دلّهم في بلادهم وفي غيرها على ان اليهودي يهودي قبل كل شيء مهما تغيرت الاحوال وتبدّلت الاوضاع

ثم هنالك فرق جوهري في التطبيق وهو ان الفاشستية تطبق في بلاد غالبة تتمتع بحريتها

(1) Outline of History, p 694

التامة، فوسوليني زعيم مطلق التصرف مثل زميله مصطفى كمال ، في حين تحاط النازية بالدول الغالبة التي تهددها بالتدخل في شؤونها في كل حين لاعذار مختلفة فتضيف الى عبء خصوم (هتلر) الداخليين عبء المداوة الخارجية الثقيل ، لكن النشاط الذي أبداه (هتلر) في الداخل والحزم الذي تذرّع به في الخارج عادا عليه باجتماع كلمة الالمان حوله وتراجع الدول الغالبة عن خططها التهديدية لاذلال المانيا ، فبعد ذلك التفسخ والخضوع والرضى بالمعاهدات الجائرة قامت المانيا النازية تطالب بحقها في الحياة والجلوس على المائدة الدولية على مستوى الدول المعظمة الأخرى

﴿ الفاشستية ﴾ : لقد خرجت ايطاليا من الحرب العالمية مثل سائر الدول المحاربة منهوكة القوى تهددها الثورات وتفت في ساعدها الانقسامات الحزبية واعظم خطر احاق بها خطر الشيوعية حتى ان الشيوعيين حاولوا في تلك الايام تطبيق المنهاج الشيوعي في (بولونيا) احدى مقاطعاتهم. وفي شهر تموز — يوليو — من سنة ١٩٢٠ حلّ السنيور (جيولتي) محل السنيور (نتي) في رياسة الوزارة فقام بشيء من التجارب الاشتراكية في المملكة ولكن ذلك لم يخفف من حماسة الشيوعيين بل زادهم لهباً فقاموا بثورات عنيفة في سنة ١٩٢١ في انحاء البلاد مما احدث رد فعل شديد في العناصر الوطنية التي نشأت على احترام (غاريبالدي) و (كافور) وغيرهما من مؤسسي ايطاليا الحديثة ووحدتها الوطنية السياسية ، ولا سيما بين الطبقات الرأسمالية التي تحترم قاعدة التملك الخاص وتعدها الباعث على الانتعاش والارتقاء . فتألف من هؤلاء جمعية باسم « الفاشستي » رمزها ارتداء القمصان السود ودينها الوطنية وديدنها مصارعة الاشتراكية فسلكت سبيل العنف والشدة مع الخصوم ورأت خير زعيم لتنفيذ رغائبها السنيور (بنيتو موسوليني) الصحفي الراديكالي سابقاً فولته قيادها فساقها الى الامام بحزم وعزم ومهارة نادرة حتى قضى على الشيوعيين وعلى اعمالهم العنيفة — ولو موقتاً — بسرعة فائقة وقبض على الاحرار المخالفين من زعماء وكتّاب والقاهم في غياهب السجن . وتمكن من انقاذ البلاد من الفوضى التي كانت ضاربة اطنابها، وزاد في نجاحه ما اظهره الزعماء الاشتراكيون من السخافات الصبيانية والتقلقل المعيب والجبن الذي نهك قواهم،ومن الطرق المستغربة التي سلكها في إسكات المنتقدين ومضايقتهم تبليعهم جرعاً كبيرة من زيت الخروع.وصار القتل والضرب والتعذيب وحرق الاملاك الخاصة كما قال (اتش . جي . ولز) من الوسائل الادارية في ايطاليا لكبح جماح الاحرار والقضاء على مذاهبهم «فزال شبح الشيوعية وحلّ محله حكم السلاّبين النهّابين»(١)

ولما اشتدت شوكة الفاشستيين وتأيد سلطانهم وصار لهم جيش نظامي يعتمد عليه زحفوا في شهر اكتوبر من سنة ١٩٢٢ على رومية لاحتلالها فتترعت الوزارة (وزارة السنيور

(١) Outline of History, p. 682

فا كتنا) لملاقاتهم في الميدان واعلنت الاحكام العرفية وعرضت على الملك الخطط التي تذرعت بها ولكن الملك بدلاً من اقرارها على ذلك دعا اليه (موسوليني) لتولي زمام الأمر فتولاه وقبض بيد من حديد على شؤون الدولة ومرافقها ومصادر قوتها حتى دان له الشعب ، ومما فعله في هذا الباب انه قضى على حرية الصحافة وجعل الانتخاب لمجلس النواب مهزلة تشبه مهزلة المجلس الوطني الكبير في انقره، وما فتىء يلقي خصومه السياسيين في اعماق السجون ويأخذهم بالشدة ويقابلهم بالهول حتى قضى عليهم قضاء مبرماً واصبح الآمر الناهي في طول البلاد وعرضها . وكلمة « الدتشي » — وهي اللقب الذي يطلق عليه — تعني في معجم السياسة الحاضرة الجبّار القاهر

ومما تحسن الاشارة اليه ان «الدتشي» ما تربع على دست الوزارة حتى احتقر البارلمان وحمل على النظم الديموقراطية ولم يذكر الجمهورية التي كان يتغنى بها بكلمة واحدة . ومما جاء في احدى خطبه يومئذٍ قوله: «ان جميع المشاكل المتعلقة بالحياة الايطالية قد وجد لها الحل على الورق ولكن الجزم اللازم لوضعها موضع التنفيذ كان مفقوداً فعلى الحكومة الفاشستية ان تمثل هذا الحزم وهذه الارادة التي لا مردّ لها . والواجب ان تكون القواعد الكبرى في سياستنا الداخلية الاقتصاد والعمل والتدريب» (١)

< وقد أتى ظهور الفاشستية في ايطاليا والنازية في المانيا (والكمالية في تركيا) برهاناً آخر على صحة مذهب ارسطو من ان الفوضى تؤدي الى الحكم القاهر . فالفوضى التي منيت بها ايطاليا عقب الحرب العالمية خلقت موسوليني وجعلته رجل الساعة خصوصاً لأن زعماء الاشتراكيين الغليان على ذلك العهد كانوا ثرثارين — يكثرون من الكلام ولا يكادون يعملون شيئاً ، وكل حزب يجعل همّه الهدم بمعاول النقد المجرّد من الاعمال الايجابية البنائية يستطيع ان يشل يد الحكومة ولكنهُ عاجز عن الجلوس على منصتها وهذا ما يمهد السبيل الى يد القاهر الحازمة التي تنقذ الموقف . وكان الاشتراكيون في حيص بيص لم يرضوا بالطريقة القديمة من جهة ولكنهم مع عطفهم الشديد على روسيا لم يجرؤوا على اعلان الشيوعية من جهة اخرى ، فادّى هذا التقلقل في موقفهم الى الاستياء العام والى اخفاق الطريقة البرلمانية وما فيها من اخذ ورد على غير طائل والى رفع الثقة من الاشتراكية ومن انصارها ومن الحزب الكاثوليكي واعوانه مما عبّد الطريق امام (الدتشي) وجيشه الاجب من الرجال الناقين وفتح ابواب رومية لليد القادرة والادارة الحازمة. ولم يمض زمن طويل حتى انضم الملك نفسه اليها ودخل تحت لوائها. سنّة في سياسة الامم حكم بها الدهر لليد القادرة منذ فجر التاريخ ولن تجد لهذه السنة تبديلاً

(١) These Eventful Years, p. 635

تشترك الفاشستية الايطالية ومعها النازية الالمانية — والكمالية الى مدى بعيد — من جهة والشيوعية الروسية من جهة اخرى في الشؤون الآتية :

(اولاً) اصرارهما كلتيهما على ان الوطنية الصحيحة هي عمل ايجابي لا اهمال سلبي ،فوقف المتفرجين غير المبالين موقف لا يليق بالمجتمع السليم ولا بنظرية الجماعة المسؤولة ، والبيت الذي لا يكترث اهله لترتيبه ونظامه بيت محكوم عليهِ بالفوضى والانهدام

(ثانياً) الشد بخناق جميع العناصر العدائية والآراء المخالفة والسعي في حرمانها من الاشتراك في ادارة الدولة وسد المنافس دون افصاحها عن آرائها وبث دعايتها

(ثالثاً) رغبتهما كلتيهما في ضم جميع المتحدات الاختيارية الحرة وسائر انواع الحياة المشتركة تحت لواء الدولة السامي

(رابعاً) عزمهما على تخويل الاشتراكية الوطنية في ايطاليا والمانيا وتركيا والاشتراكية الشيوعية في روسيا اليد العليا في تعيين السياسة الواجبة الاتباع كائناً ما كان اسمها

ولئن تماثلت الشيوعية والفاشستية في الطرائق الموصلة هذا التماثل الشديد فالغايات مختلفة كل الاختلاف ، ذلك لان الاساس الذي يبنى عليهِ العمل في الشيوعية الماركسية هو الطبقة فعلى الطبقة وما فيها من قوة حافزة وما لها من مصلحة ملحة يجب ان يبنى المجتمع الجديد واما في الفاشستية واضرابها فقطب الدائرة هو الامة ، وان غاية السياسة جعل الامة عظيمة متمتعة بحقوقها رافلة بحلل السعادة ، وايجاد اللسان السياسي او الاداة السياسية التي تعبرعن الحياة الوطنية كاملة ، وهكذا نجد النظريتين الاشتراكية الماركسية والاشتراكية الوطنية على طرفي نقيض ، ويزيد في هذا التباين وما يجر اليهِ من تنازع جوهري ان الوطنية في نظر الفاشستي لم تعد شيئاً يظفر بهِ الوطنيون بالانتصار على عدو اجنبي ظالم بل هي شيء راهن حاصل في اليد شكلاً ولكنهُ يحتاج الى من ينفخ فيهِ روحاً ويكسوه لحماً ويحميهِ من مجازر الاشتراكية وغارات « الدولية »

***

ولم تكن الفاشستية في اول عهدها نظرية علمية او منهاجاً سياسيًا بقدر ما كانت دعوة الى العمل وسعياً لانقاذ الوطن من التفتت والانحلال ، ويمكن وضع تعريف لها بسرد ما تضمنتهُ من الكلمات او المصطلحات الدالة على الكراهة والبغض اكثر مما فيها من التعاليم والآراء اللهم الاّ ما دعت اليهِ من وطنية بحت وانها رسالة جذابة للنشء الحديث وانها التفتت الى العمل واعتدت بهِ واهملت شأن النظر : وقد ابغضت الشيوعية ونفرت من « الدولية » على اشكالها ومن الحروب بين الطبقات وحملت على الطريقة البارلمانية حملة شعواء وحكمت عليها بانها سبب الخيبة وسوء الادارة في ايطاليا — يشاطرها هذا الرأي كل من تتبع سير البرلمانات

في جميع البلدان التي لم يستعد اهلها للحكم الديموقراطي ، بل ان هذا الشكل في الحكم يلاقي خصوماً الدّاء حتى في ارقى البلدان

وتقوم الفاشستية من الاساس على فكرة ان الامة هي الوجود الاخلاقي الذي ما بعده وجود ، وان الواجب على الجميع ان يخضعوا لها ويلتحقوا بها ويسعوا الى تحقيق ذاتهم وما تتطلبهُ نفوسهم ضمنها وبواسطتها . وعلى الناس نحو الامة واجبات ولكن ليس على الامة من واجب ، وقد تتصل بالامم الاخرى بمعاملات سلمية حبية او حربية عدائية ولكنها لا تعترف بتفوق احد عليها او بخضوعها للاسرة الدولية التي هي عضو من اعضائها . وتسمى بروح تحاكي روح (فردريخ نيتشه) الفيلسوف الالماني نصير القوة الى التوسع والانبساط والتجلي بحيث لا يكون السلم العالمي العام متوقفاً على شيءٍ يعارض طموحها . فالامة عند القائلين بهذا المذهب هي الوجود الشامل والسياسة هي تحقيق المطالب الوطنية . وقصارى القول اننا في شرح الفاشستية والاشارة الى زميلتيها النازية والكمالية نشعر كأننا نشرح نظرية (هيجل) في تقديس الدولة وجعل الوطن سر الاسرار ومجلى الانوار

وتمجد هذه الطرائق الثلاث الفضائل العسكرية ، وفي سياستها نغمة حربية مستمرة ، واذا كان هتلر في خطابه السياسي الذي سبق المؤتمر الاقتصادي العالمي قد تجنب اضطراراً ذكر الفتوحات والبسطة السياسية ومصطفى كمال حاول الظهور بمظهر المكتفي بتركيا في حدودها الحاضرة فان الفاشستية عند مؤسسها تعني التوسع السياسي في الخارج صراحة ، وقد يعميها هذا الميل الاستعماري عن مصالحها الحقيقية ويحملها على البذل الغالي في المال والسمعة والرجال في سبيل بلاد قاحلة قليلة الانتاج مثل طرابلس الغرب وبرقه ، بل انها لم تتورع هناك ان تسوّد صحيفتها فتقتل شيخاً طاعناً في السن من كبار المجاهدين مثل عمر المختار للارهاب العسكري . على ان نظرة سياسية صادقة فيما لها من المصالح في الشرق تدعوها الى جعل شاطىء الصحراء الليبية الخاوية على عروشها مكاناً تتحبب الى سكانهِ فتمنحهم من العطايا السياسية ما يبث لها دعاية في شمال افريقية تزعزع بها اعظم دولة حربية تهددها وتهدد غيرها من الدول «بالامبراطورية السوداء» التي تحلم بتأسيسها في افريقية . قال السنيور (نيتي) رئيس وزارتهم المشهور «ان ليبيا — يعني طرابلس وبرقة — هي المستعمرة التي كلفت ايطاليا اعظم البذل ، ومع كل هذه الحروب المديدة التي خضنا معاركها هناك والنفقات الباهظة التي انفقناها فالظاهر انها محكوم عليها ان تبقى عبئاً ثقيلاً على ميزانية الدولة وسبباً مستمراً للقلق واشتغال البال[1]»

ان مثل هذه الذهنية الهجومية الدفاعية تحتم على ايطاليا ان تفكر في الحرب وتمدها في

(١) These Eventful Years, I. p. 636

حيز الامكان دائماً، فلا يجوز للايطاليين والحالة هذه ان يستكينوا للسلم او يستسلموا له حتى لو كانوا ينوون الدفاع عنه

وتعني الوطنية عدا ذلك الارتكاز في الداخل فيجب تنظيم حياة المجتمع الايطالي وضمه حول دولة الامة . ولا يسمح لاية اداة من ادوات العمل او الكلام ان تعيش في المجتمع الايطالي ما لم توطد العزم على احناء الرأس امام الفكرة الوطنية وان تقوم بالقسط المتوجب عليها في تحقيقها . ويتناول هذا الموقف ابادة حركة العمال خاصة والقضاء عليها سواء بالشكل الذي اتخذته في ايطاليا ام في غيرها ، لان طبقة العمال كطبقة الرأسماليين تتشابه في الاقطار الصناعية وتتخذ شكلاً واحداً ، وهي من الاساس مشوبة بالفكرة الدولية فالمتحدات التجارية والاحزاب الاشتراكية كلتاهما سواسية فيما لها من التآخي الدولي والخضوع لفكرة التعاضد بين افراد الطبقة الواحدة في الدول المتعددة ، لذلك يتحتم على الفاشستية ان تجتث هذه المجموعات من اصولها ، ولكن لا تتوصل الى ذلك ما لم يكن عندها ما يحل محلها ، ذلك لان المجتمع الحاضر يجب ان يزود بهيئات منظمة تفصح عن حاجات العمال ومطالبها العادلة، وما لم يعترف بهذه الحاجات ويسلم بحقها فانها تتخذ شكلاً معادياً لمصالح الذين يريدون القضاء عليها . وفي الحق ان الفاشستية ما كانت لتستطيع الثبات وهي تحارب الاشتراكية هذه المحاربة القاسية لو لم تلتفت الى مصالح العمال الاساسية وتحول دون تدفق تلك الاجور الباهظة او الارباح الغزيرة الى جيوب بعض الطفيليات في المجتمع الايطالي

لاجرم ان الفاشستية بقضائها على طبقة العمال في ايطاليا اخذت في احلال نظام جديد محلها على الشكل الفاشستي ، فبدلاً من المتحدات التجارية الاشتراكية قامت متحدات فاشستية يديرها الانصار المقربون ولا يدخلها احد من اهل الخبث والعند . وخولت هذه المتحدات قوة عظيمة منها الحق في ضرب الاتاوات على الاعضاء وغير الاعضاء وان تساوم هي وحدها المخدومين وان تنضم الى جمعياتهم فيتألف من المجموع — الخادمين والمخدومين — نقابة رسمية للاشراف على كل خدمة وكل صناعة برمتها، وان تجعل هذه المتحدات الفاشستية دوائر انتخابية بدلاً من الدوائر الجغرافية القديمة فيستناب منها الاعضاء للمجلس التشريعي الفاشستي الجديد

وقصارى القول ان الفاشستية بنت لكل جمعية حرة اساساً فاشستياً تقوم عليه وجعلتها اداة حكومية وحرصت على ان تكون ادارتها بيد الحزب الفاشستي وانصارها ، وليس من السهل ابداً ان نعرف مقدار استيلائها على طبقة العمال الايطاليين ودرجة استمالتهم الى جانبها ذلك لان الفاشستية وزميلتيها النازية والكمالية هي مثل الشيوعية الحمراء تكم افواه المعارضين ولا تسمح لاحد بالتلفظ بما يخالفها ، لكنها على كل حال لقد صمدت حتى الآن وحالت دون تجدد الاتصال بين العمال الايطاليين وبين حركة العمال المنظمة في الاقطار الاخرى وساعدها

على ذلك معالجتها الناجمة لبعض شرور الرأسمالية وتخفيفها وطأة البطالة التي تئن منها الدول الاخرى

ولا تعد الدولة الفاشستية دولة مؤلفة من افراد بقدر ما هي مؤلفة من نقابات متنوعة تختلف باختلاف العمل الذي تقوم به ويتصل الفرد فيها بالدولة بواسطة النقابة التي ينتمي اليها، فالحكومة بهذا المعنى هي الرأس والنقابات — لا الافراد — هي الاعضاء ، ويطلق على هذا الوضع السياسي الحديث اسم «الحكومة النقابية او الدولة المندمجة Corporate » ، ويختلف في الفاشستية عنه في غيرها ان النقابة فيها خاضعة للدولة ومسخرة لاغراضها تسخيراً اعمى ، ذلك لأن الوطن الايطالي هو «العلي الاعلى» في حين تمنح النقابات في المناهج الاشتراكية استقلالاً كما هو الحال في المتحدات التي تدعى (جيلد) و (سنديكا) وغيرها من الانظمة التي تهتم بالحرية اكثر من اهتمامها بالخضوع والانقياد . اما الفاشستية فتسير على مذهب (هيجل) مؤسس الامبراطورية الجرمانية من حيث اهتمامها بالطاعة وتفضيلها النظام والتدريب ، وهي تدعو افراد الرعية ان يحققوا حريتهم في حرية الدولة اكثر مما يحققونها في فرديتهم او في مجتمعهم النقابي



النهضة التركية الكمالية

او الحياة بعد الموت

دعونا النهضة التركية عقب الحرب العالمية « كمالية » للقسط الوافر الذي استقلَّ بهِ الغازي مصطفى كمال باشا في احداثها وهي تختلف عن الفاشستية والنازية اختلافاً جوهريًّا في انها لم تكن تغلُّباً حاسماً فقط على حكومة من ابناء البلاد يرأسها خليفة تحفُّ بهِ العقائد المتوارثة بل كانت ايضاً انتصاراً باهراً في ميدان الحرب على دولة اجنبية يعضدها الحلفاء وفي مقدمتهم انكلتره وانقاذاً للشعب التركي من الاضمحلال حتى اذا كان هنالك شيء يدعى حياة بعد الموت فهو تجدد شباب تركيا بعد الهرم ونهوض ابنائها ينفضون تراب الموت السياسي عن وجوههم . لا جرم ان هذه النهضة اتخذت شكلاً عسكريًّا منذ ما تألفت لان رجالها من الجنود وفيها جميع الفضائل والنقائص التي عرفت في اعمال الرجال العسكريين ، ولم تبلغ المانيا في ادق ساعات محنتها ولا ايطاليا في اشأم ازماتها ما بلغتهُ تركيا يوم احتلَّ الحلفاء عاصمتها وسخر الانكليز الجيش اليوناني لاكتساح ازمير وداخليتها وامضى الخليفة محمد السادس حفيد محمد الفاتح ! معاهدة (سيفر) الطافحة بالمخازي والحافلة بالنصوص القاضية على الحياة القومية التركية قضاء مبرماً . فقد تنازل فيها هو وحكومته والمجلس الاعلى الذي عقده عن تراقيا وازمير وداخليتها وجانب من الدردنيل لليونان وسمحوا بتأليف دولة ارمنية في لب بلادهم وسجلوا على انفسهم ديوناً باسم تعويضات لا يمكن اداؤها الاَّ اذا عاشوا ابد الدهر في ربقة الذل واعادوا سلطة الامتيازات الاجنبية الى سالف مجدها فرضوا ان يكونوا وهم في بلادهم ادنى مرتبة من الاجنبي النازل بها وقبلوا الاَّ يكون لهم جيش او اسطول لا في الغبراء ولا على ظهر الماء ولا في كبد السماء . وقصارى القول انهم وضعوا المناديل في اعناقهم ورفعوا ايديهم بالاستسلام ، وما دوَّنا هذه الخلاصة المخزية الاَّ لنبين للقراء في العالم العربي كيف تعمل الهمة الثابتة والعزيمة الصادقة في انهاض الركب المقعدة ، وكيف تكون الحياة بعد الموت ، وفي ميسورهم الآن ان يفسروا الانقلاب الكمالي الخطير من وجهتيهِ السياسية والاجتماعية . وغني عن البيان ان الوطنيين الترك ارادوا من الوجهة السياسية ان يكونوا قبل كل شيء اسياداً في بلادهم فضمنوا هذه السيادة بحجة السلاح الدامغة ، لان الذي يملك القوة لا يحتاج الى برهان آخر ، ثم طهروا بلادهم تطهيراً سياسيًّا من الطراز الاول وذلك بالغاء

التدخل الأجنبي ألغاء صريحاً باتّاً حتى صارت « الاجنبية » في تركيا الحديثة وبالاً على صاحبها وسبباً من الاسباب التي تحسب عليه بدلاً من ان تحسب له . فاذا اراد اجنبي اليوم ان يباشر عملاً مجدياً في تركيا فضّل ان يكون له شريك وطني يحميه عند الحاجة بخلاف ما يعمله الوطنيون في بعض البلدان العربية حيث يبحثون عن الشريك الاجنبي لتحقيق هذه الحماية ، ثم لم تعد مسألة الارمن مسألة انشاء دولة ارمنية في لب الاناضول ولا قضية اليونان قضية تأليف امبراطورية يونانية على انقاض الدولة العثمانية بل المسألة كلها التوسل بالطرق الممكنة للمحافظة على البقية الباقية من هذه « الاعضاء الأثرية » في تركيا الحديثة كما حرص علماء الانسان عبثاً على المحافظة على الافراد القلائل من اهل (تسمانيا) الذين انقرضوا على بكرة ابيهم في اواخر القرن الماضي . ومما يدل على مقدار التأثر في الذهنية التركية مما اصابها من الكبرياء الاجنبية في البلاد ان منشأة دولية في الاستانة تابعة لسكة حديد الشرق ومراكب النوم فيها غفل مديرها الايطالي في السنة الماضية فحرم على المستخدمين الوطنيين ان يتكلموا بلغتهم على التلفون — يعني حرّم على الترك ان يتكلموا بالتركية في الاستانة ! — فكان الويل وكان الثبور وكانت عظائم الامور . ولولا هربه من شباك المكتب لهجم عليه المتجمهرون من الموظفين والطلبة وعلموه درساً لن ينساه في احترام اللغة التركية . فاين هذا مما نعانيه في بعض اقطار العالم العربي حيث تكتب الاعلانات حتى للوطنيين باللغات الاجنبية ، وفي بعض مسارح السينما تترجم المناظر بالانكليزية والفرنسية بل باليونانية ايضاً ولا تترجم بالعربية ، وان ترجمت فقد توضع على لوح حقير في الزاوية المهملة وبلغة مغلوطة لا تنطبق على المعنى . كل ذلك احتقاراً لها — ومن احتقر لغة فقد احتقر اهلها . وحدث لي في سبتمبر الماضي انني ارسلت تعزية الى بغداد بوفاة الملك فيصل فأبت شركة (ايسترن) قبولها لانها مكتوبة بالعربية مما حملني على ارسالها بواسطة شركة ماركوني ، يعني ان بعض الفرنجة يأبون علينا ان نتخاطب في اقطارنا بلغتنا ، والغريب ان يجري ذلك كله امام الوطنيين من غير اقل ملاحظة فعّالة تبدر منهم كأنّ الامر لا يعنيهم ما داموا قد تعلموا تلك اللغات الاوربية وامتازوا على سائر اخوانهم في الوطن بفهمها فكان هذه الرشوة الادبية التي فرحوا بها ألهتهم عن ذاك الواجب المقدس

وقد دلني الاستقراء في الشرق والغرب على ان معيار حب الاستقلال في الامة يكون على قدر حرمتها للغتها وسعيها لانعاشها ، وان الذي لا يغار على لغته لا يغار على أمته

وتدل مثل هذه المظاهر في الترك على ما تأصل في نفوسهم من النفرة من الحالة السياسية التي كانوا عليها ومن تسلط الاجانب عليهم في عقر دارهم ليس فقط بالامتيازات الاجنبية المضنية التي كان هؤلاء يتمتعون بها بل بالمظاهر الاخرى اللغوية والادبية التي تجعل للاجنبي

ميزة على ابن البلاد ، وقد تعدت محاربة الوطنيين الترك السياسة الاجنبية التي خضعت لها الدولة العثمانية في الماضي الى محاربة الاوضاع السياسية التركية الماضية نفسها ، وساعد على ذلك خنوع السلطان محمد السادس وحكومته واقدامهم على امضاء معاهدة ستبقى رمزاً لانحلال الخلافة العثمانية وزوال كل اثر من آثار عظمتها . فاذا اضفنا الى هذا العمل المزري ان الخلافة في السنين الاخيرة ولا سيما في زمن السلطان عبد الحميد كانت بؤرة الرجعى وموئل الجامدين ومحط آمال المتطرفين من اهل المحافظة ادركنا الاسباب التي أوجدت حول الغازي من جاراه من المخلصين على إلغاء الخلافة من تركيا ومحو اثرها من ادمغة الترك ومحاربتها في البلاد الاخرى خشية تأثيرها في البقية الباقية من المؤمنين بها

ولكن سيبقى السؤال الآتي ماثلاً في اذهان الكثيرين من الاختصاصيين بالشؤون السياسية العالمية — ناهيك بمن يعنون بالشؤون الدينية الاجتماعية — وهو : ألا تستطيع النهضة التركية الحديثة ان تحتفظ بالخلافة اداة للسياسة الخارجية كما تفعل اوربا العلمانية التوسعية في اعتمادها على الاكليروس وان تمنع جولانها الداخلي بحصرها في منطقة معينة لا تتعداها ؟ ومما لاشك فيه على الاطلاق ان خلافة روحية عليها مسحة من تقديس القرون الوسطى قد تكون بأيدي الكماليين في مثل البحران السياسي العالمي الحاضر سلاحاً ماضياً فيما لهم من العلائق بالدول الاوربية . قال (دليزل بورنس) في كتابه السياسة الدولية [(١)]

« اما الاسلام فهو الدين الثالث العظيم ذو الشأن الدولي ، والحج السنوي الى مكة من جميع الاقطار الاسلامية هو موضوع اهتمام السياسيين والموظفين ، فانه يربط برباط واحد أبعد الاقوام وهو السبيل لنشر الآراء والسياسة في جميع البلدان الاسلامية . . . ويجوز ان يؤثر الاسلام في الموقف الدولي نظراً لوجود عدد كبير من المسلمين تحت الحكم البريطاني ، مما يدعو بريطانيا خاصة الى تجنب جرح عواطف المسلمين » . وبعد ما اشار الكاتب الى التنافس بين انكلترا وفرنسا في آسيا والى الاعانات التي جمعت للدولة العثمانية في الهند في ابان حربها مع الروسيا سنة ١٨٧٧ والى الاحتجاجات التي طيرها الهنود على ايطاليا لمهاجمتها طرابلس الغرب ومقاومتهم العنيفة لفكرة تمزيق تركيا في سنة ١٩١٩ قال « واخذت فرنسا تشعر بموقفها الاسلامي في مراكش وافريقيا الوسطى وربما في سورية ايضاً ، وقد يؤثر هذا الحال في سياسة فرنسا الخارجية . . . وعلاوة على ذلك فالاقوام والامم الاسلامية لها شيء مشترك بينها يفوق الآراء اللاهوتية ، فالاسلام هو قانون للحياة والشريعة الاسلامية حقيقة سياسية . . . وعلينا ان نتذكر ان العقائد الدينية الاسلامية بل الافكار السياسية الاسلامية هي المستولية في بعض

(١) International Politics p. 43

اجزاء الهند ، وفي فارس ، وتركيا وآسيا الصغرى وبلاد العرب وبين جميع السكان القاطنين في افريقيا شمال الدرجة الخامسة عشرة من الطول الشمالي »

اما وقد خطا الترك هذه الخطوات الواسعة في الميدان السياسي فلا عجب ان تتناول حربهم التجددية الميادين الدينية والاجتماعية والتشريعية وما الى ذلك من الاوضاع الادبية ، فالاساليب التي نجحت في الحرب وحققت للترك استقلالهم السياسي استهوتهم ايضاً في هذه الميادين فانبروا يتركون كل شيء حتى القرآن ، وأخذوا يطهرون على زعمهم التركية من العربية والفارسية ظناً منهم ان الاستقراض في اللغـة حالة مثل الاستقراض في المال ، وفاتهم انهم بعملهم هذا يحرمون لغتهم من اكبر المزايا التي تشاركها فيهـا الانكليزية اعظم اللغات الاوربية انتشاراً . وكم ندبنا حظنا معاشر العرب لان لغتنا محافظة وهي شديدة النفرة من مثل هذا الاستقراض ، ونظرة واحدة في المدونات العلمية الحاضرة في شتى اللغات الاوربية الحية كافية لاقناع اشد المطهرين الترك تطرفاً ، بالخدمات الجلّى التي تقدمها اللاتينية واليونانية للعلماء ، وقد يستظهر الطبيب او المحامي الانكليزي او الفرنسي او الالماني المئات او الالوف من الكلمات المشتقة من هاتين اللغتين من غير ان يشعر بأقل غضاضة وطنية

« ومن المهازل التاريخية التي تدل على سرعة الانتقال من الماضي الى الحاضر ان الذي كان يذهب من العرب الى المشنقة في سنة ١٩١٥ وما بعدها بتهمة الخيانة للخليفة صار له زميل يقابله من الترك يذهب الى المشنقة في سنة ١٩٢٥ وما بعدها بتهمة الدعوة الى الخلافة !

وتعد النظم المتعلقة بالاحوال الشخصية من زواج وطلاق وميراث من اشد النظم ثباتاً ومحافظة ومع ذلك فقد تخلى الترك عما لهم منها بجملته واستبدلوا به احدث النظم التي نبتت في ديار الغرب مع تعديل طفيف لا يعد شيئاً مذكوراً

وقصارى القول ان تركيا من الوجهة العلمية التاريخية هي حقل تجارب تشبه مخابر البيولوجيين وقد تكون سائرة في سبل اصلاحية لم نألفها او لا نقرها ، ومن الصعب جداً الحكم على مصيرها الاجتماعي النهائي وان كانت بوادر النجاح الاقتصادي السياسي تلازمها ملازمة جلية في مراحلها كما يتضح من مقابلة الادوار التي مرت فيها منذ نهاية الحرب العالمية الى اليوم ، ولا مشاحة في انها باعتمادها على السلاح وعلى سواعد ابنائها قد سلكت السبيل التي يجب على كل امة تطلب الحياة ان تسلكها ، وفي وسعنا ان نتخذ منها حجة على الذين يزعمون ان الثورة لا تأتي بطائل . فلو احنى الوطنيون رؤوسهم للخليفة محمد السادس وحكومته وسجلوا على تركيا معاهدة (سيفر) المريعة فأين يكون الترك اليوم ؟ وماذا تنفعهم عصبة الامم المتفسخة وعهدها الذي لا يتجاوز جدرانها ؟ ثم ان الانقلاب الذي تمّ فيها حتى الآن قد

سار بها شوطاً مهما تراجعت بعده لن تكون قريبة مما كانت عليه بوجه من الوجوه ، وهي في تنظيمها الاقتصادي ومقاومة الشرور التي تنطوي عليها الرأسمالية المتطرفة ، وفي تشجيعها العمل ومحاربة البطالة وفتح المعابر والطرق ومد السكك الحديدية وتسهيل المواصلات تسير سير الفاشستية ، ولممثليها السياسيين ومندوبيها في المؤسسات الدولية كلمة مسموعة على قدر جيشها المدرب وسلاحه الماضي ، ولاول مرة في الجيل الحاضر ازل زعيم شرقي بقوة السلاح رئيس وزارة دولة اوربية معظمة مثل المستر لويد جورج عن دست الوزارة بعد ما كان يدعى « منقذ بريطانيا » في الحرب العالمية

اما المجلس الوطني الكبير في (انقرة) فهو مثال آخر على حبوط الطريقة البرلمانية القديمة في الامم الناشئة التي هي احوج ما تكون الى سرعة الانجاز في العمل ، وهو نسخة ثانية عن برلمان ايطاليا ، وكما يمثل هذا ارادة الدتشي كذلك يمثل ذاك ارادة الغازي ، بل ان موسوليني عاف اخيراً برلمانه وملّ اجتماعاته التي صار يراها نمطية وعلى غير جدوى فأمر بحله ، على ان الناظر الى هذين المجلسين لا يرى فيهما بالاجمال ما يرى في البرلمانات الديمقراطية الاعتيادية من المساجلات الفارغة المملة والاعتراضات التي لا يراد من معظمها الا اظهار كفاءة المعترضين او وضع العقبات في سبيل المشروعات لاغراض في النفس ، وقد تحصر هذه الطريقة الدكتاتورية في الاحوال القليلة الانتقادات الجوهرية المخلصة الثمينة التي تصدر من النواب الاكفاء الصالحين المستقلين ولكنها تعتاض عنها الاتساق وسرعة الانجاز وهو المطلوب في الدرجة الاولى في عصر الزعازع والعواصف

ويشعر العالم العربي بشيء من الامتعاض وخيبة الامل لمحاولة تركيا الحديثة صرم حبال المجد التي تربطها بتاريخنا المشترك ولكننا نرجو ان تكون هذه البوادر مظهراً اجتماعياً موقتاً من مظاهر النفرة من الماضي القريب فقط واحتجاجاً صاخباً على الجمود العتيق البالي ، ذلك لان الترك هم من صميم الشرقيين ولان الامة الحية ذات التاريخ الحافل بالحوادث اهون عليها ان تنسلخ من بلادها من ان تنسلخ من دواعي مجدها وفخارها



أصلح أشكال الحكم

في العالم العربي

لقد عرضنا المذاهب السياسية بشيء من الافاضة ووضعنا اصحابها في الميزان لنزود جمهور القراء في العالم العربي بخبر الاطوار السياسية العظيمة التي طرأت على الدول والحكومات حتى اذا حانت ساعة العمل وجد الزعماء في الاوساط التي يشتغلون لها شيئاً في القابلية الفردية والتهيؤ العام ، لان البلاء كل البلاء ان يتجه الشعب الى الغاية التي ينشدها ويجهل الطريق الموصلة . وفي وسعنا الآن ان نتساءل ما هو اصلح شكل في الحكم يلائم العالم العربي ؟ اهو الشكل العصامي الديموقراطي ام العظامي الارستوقراطي ، الاستبدادي الاوتوقراطي ام الشوري النقابي ، الشيوعي اللاوطني ام الفاشستي المتطرف في الوطنية ؟ ولو كان العالم العربي على مستوى واحد في الثقافة والاجتماع وفيما يتمتع بهِ من حرية ويمارسه من استقلال لهان الجواب ولكن مستواه متعرج متضرس ، ففيهِ من سما في المدنية حتى كاد يسامت الغرب وفيهِ من لا يزال في الغور كأنهُ من اهل الاعصر الخالية ، وبعضه مستقل استقلالاً تاماً ناجزاً وبعضه الآخر لا يزال في ربقة الاستعمار ، ولكن الخوف من وثبته (وهو على علاته وعلى ما فيهِ من تنابذ وما يعانيه من نقص تنظيم) لم يعد وهماً بل هو خوف من الشيء الواقع المحسوس حتى ان عالماً مشهوراً من علماء التاريخ وهو المستر (اوسكار بروننج) استاذ التاريخ في جامعة (كامبردج) يعد العرب واليابانيين الخصمين اللدودين للتوسع الاوربي [1] ولم تعد الدول الاوربية ذات المصالح السياسية والاقتصادية في الشرق الاوسط تخفي ما يساورها من الهموم من هذه النهضة العربية في حين تخطب الدول الاخرى ود هذه النهضة وتستميلها اليها تقوية لموقفها السياسي الشرقي وتأييداً لنفوذها العام

---

(١) A History of the Modern World, p 840

وفي وسعنا الآن ان نقول بصورة مجملة تنطبق على احوال هذا العالم الفسيح الاجتماعية وعلى الدرجة السياسية التي بلغها ان الشكل النيابي الصحيح القائم على الانتخاب الحر — جهد الطاقة — هو الشكل الذي يجب ان يصر عليهِ الاهلون حيث هم مستقلون استقلالاً مقيداً بالانتداب او الحماية او المعاهدة المصطنعة او غير ذلك من التدخل الاجنبي في شؤونهم، الاستبدادي العادل او النير حيث هم يتمتعون بالاستقلال التام . وقد حملنا على هذه النتيجة الاعتبارات الآتية وهي ان البلدان العربية التي للاجنبي عليها سيطرة متفاوتة لاسباب مختلفة والتي يحاول بطرق الدهاء والادارة والشدة والرخاء ان يستثمرها في آخر الامر لنفسه هي بلدان معرضة لزوال سلطانها القومي وما يجر اليهِ من تخلق اهلها بأخلاق اهل المستعمرات الصرفة ، وكل ذلك نذير الانقراض القومي، بيد ان هذه البلدان لاسباب سياسية اجتماعية ودواع دولية اقتصادية تتمتع بشيء من حق التصرف الداخلي ولو ظاهراً ، ففي مثل هذه الامراض البدهية يتعذر كثيراً على الشعب ان يعمى عن الخطر المحدق به اللهم الا اذا كان من الانحلال وضعف الادراك بحيث لا يرتجى برؤه . لا جرم ان الادراك العام في الامة الراقية — بل فيما هو دونها — شديد التأثر بما له صلة وثيقة بحياتها او مماتها وهو الشعور الدال على درجة وعيها ويصح للزعماء ان يعتمدوا عليه ويتخذوا منهُ سلاحاً ماضياً يحاربون بهِ مرض الاحتلال ولو موقتاً ، وينطبق هذا الكلام خصوصاً على البلدان التي لا تسمح لها احوالها ، بانتهاج المسالك المؤدية الى الاستقلال مباشرة بل هي مضطرة الى التوسل «بالمناورات» السياسية وغير ذلك من الطرق البطيئة الى ان تحين ساعة العمل ، ونحن لم نصل الى هذه النتيجة بطريق النظر بل لدينا عدد من الحوادث التي جرت في السنين الاخيرة في بلدان الاحتلال والحماية والانتداب تحملنا على هذه النتيجة ايضاً، حتى ان قطراً مقموعاً كالقطر الجزائري شغرت فيهِ منذ سنوات بعض المقاعد البلدية التي يجلس عليها الاعضاء بالانتخاب الشعبي فرشحت له الحكومة بعض رجالها ولكن الاهلين على ما انتابهم من ارهاق يعانونهُ منذ قرن كامل اصروا على مرشحهم حتى فازوا بانتخابه فردته الحكومة بما تمحلته من اعذار وأمرت باعادة الانتخاب ولكن الاهلين نجحوا في المرة الثانية ايضاً

***

ولا يعد اخفاق الحكومة هذا شيئاً مذكوراً بجانب اخفاقها في الانتخابات المتكررة التي جرت في سورية ، وحيثما اصر الشعب على اثبات ارادته كانت النتيجة نجاح مرشحيه الا اذا ارتكبت الحكومة الخطيئات الادارية البدهية فأغلقت المجلس مثلاً او اوقفت المرشحين سمعتها تقدم على اعلان افلاس سياستها بهذه الصورة المزرية ، وقد تضطر اذا ما تورطت في

التدخل الى عزل من ورطوها من عمالها او الى نقلهم تبرئة لنفسها كما حدث في انتخابات المجلس النيابي الاخيرة في سورية

ثم ان الاجنبي المحتل يدير شؤون البلاد عادة بواسطة نفر من ابنائها يضمن لهم منافعهم الخاصة ويحقق لهم غاياتهم الشخصية وقد يطلق يدهم يتصرفون في الامور كما يشاؤون ضمن الحدود التي رسمتها مصالحه فيجعلهم سلاحاً يحارب بهم الصادقين المخلصين ، ولكن انى له استغواء سائر الشعب واستجلاب بقية افراده بالرشوة وعددهم يربي كثيراً على وسائل اغرائه ، فلا عجب ان يكون حكم المجموع والحالة هذه اقرب الى الصحة لانه ابعد عن المؤثرات النفعية الذاتية ويصدق فيه القول المأثور « اصوات الخلق اقلام الحق » ، وتكون الطريقة النيابية اذن ترجمان الامة الصادق ومقياس شعورها المضبوط ، ويدفعها تدخل الاجنبي الى زيادة التمسك بمن اولتهم ثقتها . هكذا دلتنا التجارب في البلدان التي تتبعنا شؤونها في السنين الاخيرة ؛ ولا مفر للحاكم الوطني اذا كان مستبداً على عهد الاحتلال من الالتجاء الى المحتلين في آخر الامر مهما حاول الابتعاد عنهم لانه يجدهم عوناً لمصلحته الشخصية وسياجاً يحتمي به لدفع هجمات الخصوم من ابناء البلاد

***

ومن اهم الحوادث التي حدثت اخيراً وفيها ما يؤيد الحكم النيابي في الاحوال التي ذكرناها ان المجلس النيابي الاخير الذي انتخب في سورية كان عدد الاعضاء الوطنيين فيه سبعة عشر فقط والباقون وعددهم يناهز الاثنين والخمسين هم ممن يدعون « معتدلين » وتظن السلطة المحتلة انهم لا يخالفون لها امراً وقد ايدت انتخابهم بروؤس الحراب واطلاق البنادق ، فلما عرضت عليهم في المجلس عقد معاهدة على اساس تجزئة سورية وتقطيع اوصالها لم يستطيعوا مجاراتها بل خيبوا آمالها وسودوا وجه من زعم من عمالها انهم سيكونون اداة عمياء في يدها ، والذي حملهم على هذا الموقف المفاجيء اختمار الرأي العام وشدة وطأته من جهة وخطر التجزئة القتال من جهة اخرى ، ولعل التعديل الاخير الذي احدثه المفوض السامي الفرنسي فيما يدعى « دستور » لبنان من احتفاظه بتعيين نحو ثلث اعضاء المجلس النيابي مع تعيينه رئيساً للجمهورية ذا سلطة واسعة يستمدها من مستشار افرنسي كل ذلك ادراك من حكم اللبنانيين العام ، وان ادعت السلطة انهم يهيمون بحبها

اما اذا كان القطر العربي متمتعاً باستقلاله التام فخير ما يناله ان تتاح له يد مستبدة عادلة تنقذه من الفوضى التي تتخبط فيها اكثر الامم الحاضرة خصوصاً من كان منها مثلنا حديث عهد بالشؤون الدستورية ولم يتجهز بعد ابناؤه بالتربية التي تؤهلهم لمثل هذا الحكم الدقيق ،

واذا كانت المانيا وهي التي تقود الغرب في كثير من مقومات الثقافة والحضارة قد اخفقت في الديموقراطية اخفاقاً معيباً فلا جناح علينا ان نعترف بهذا القصور ونحن لم ندخل حلبة السياسة العربية الا منذ اوائل القرن العشرين ، ولم نمارس الحكم النيابي الا منذ الانقلاب العثماني في سنة ١٩٠٨، وفي الحق اننا في اقطارنا المستقلة لفي اشد الحاجة الى اليد الحازمة المدركة لتسير بنا الى الامام على رغم اهل الرجعى منا كما يسير موسوليني بالايطاليين . وانا اسأل في هذا المقام كل من عانى شؤون الادارة والحكم أيرى لمملكة الحجاز ونجد مجلس نواب من الغطغط ومطير والقفير وحرب ام ملكاً حازماً خبيراً بشؤون البدو كعبد العزيز بن سعود ؟ الا تقضي الديموقراطية في تلك الانحاء الابتدائية بتربع الغوغاء في دست الحكم وانهزام الاختبار والاخصاء والتمرين والحصافة انهزاماً شنيعاً لا يلوي على شيء ؟ ولو كان هذا الملك النابغة مسلحاً بسلاح التربية الحديثة ومشبعاً بروح النهضة التي تسير عليها الامم الحية ما اضاع هذه الفرصة السانحة لالتفاف زعماء العرب حوله واتخاذهم الاستقلال الذي يتمتع بهِ مركزاً لبث الدعاية العربية في انحاء العالم .ومن ادعى دواعي الاسف ان جميع الجهود التي صرفت لاستنهاضه قد اخفقت

***

انني اذكر جيداً اننا لما كنا نعاني حشرجة الموت تحت كابوس السلطان عبد الحميد كنا نظن ان مجرد اعلان الدستور واطلاق حرية الانتخاب وترك المنابر للخطباء يتكلمون كما يشاؤون ينعشنا ويعيدنا الى مهيع الحياة ، وفي شهر تموز — يوليو — من سنة ١٩٠٨ اعلن هذا الدستور بقوة الجيش وبتأثير الاوهام التي تسلطت على السلطان فكان مبدأً انقلاب خطير في جميع بلدان الشرق المتوسط لما عقبه من الثورة في الافكار والاوضاع ، ولا انكر ابداً ان بعض الانتخابات دلت على شيء من حسن الاختيار ولكنها ارسلت بالاجمال الى مجلس النواب اناساً لا يختلفون عن العوام كثيراً ، واصعدت المنابر بعض الخطباء الذين حولوا قضية الدولة السياسية الخطيرة الى البحث في الحجاب وشكل الغطاء الذي يجب ان يسدل على المرأة ، فبينما كانت الدول المعظمة تبحث في بناء الدردنوطات للحروب القادمة وكيف يجب ان يكون طولها وثخانة دروعها كان هؤلاء الخطباء يقيسون الاحزمة التي يجب ان تشد بها اوساط بنات المستقبل وكثافة البراقع التي يجب ان تغطي وجوههن ! والظاهر ان الوطنيين الزائفين في عصر التدجيل مثل العملة الزائفة في عصر التجارات المضطربة يحلون محل الصالحين من ابناء البلاد

***

وعلينا ان نعترف هنا اعترافاً صريحاً وان آلمنا ونبهنا الى ثقل اعبائنا وهو ان شدة التباين في تربيتنا السياسية الاجتماعية وعمق الهوة السحيقة بين افرادنا وعدم سيرنا على منهاج واحد في بيوتنا ومدارسنا ومكاتبنا وانقسامنا الى طبقتين اثنتين متطرفتين عامة وخاصة لا وسط

بينهما كل ذلك يتطلب منا ان يكون امرنا بيد سلطة عادلة نيّرة منا وفينا والينا تحملنا على الاصلاح رغم انوفنا وتجرنا بالقوة في السبل المنتجة وتنحينا عن السبل العقيمة . وانني لأذكر مع الاسى اولئك « الدكتاتوريين » النفعيين من الشرقيين الذين اظهروا في بعض البلدان العربية المحتلة من الجرأة والاستبداد لتأييد مصلحتهم الخاصة ومصلحة الاجنبي من فوقهم ما لو اظهر جزءاً منه فقط زملاؤهم في البلدان العربية المستقلة لمصلحة الشعب لنالوا مرتبة المصلحين المنقذين

والارتقاء نوعان ، نوع هادىء سلس يقوم به مجموع الشعب ويكون للافراد عموماً سهم في احداثه ، ونوع مضطرب جموح تجر الشعب الى مهيعه اقلية حازمة هي الطبقة المختارة . ففي النوع الاول تتوقف الخطط التي تختطها الحكومات في الادارة والسياسة على المرتبة النشوئية التي بلغها الشعب في حياته المشتركة . وتكون طبيعة القوانين التي تسنها مجالسها التشريعية متناسبة مع هذه المرتبة ، وتكون الجماعة التي تؤلف الدولة متجانسة في قرابتها وثقافتها والمثل العليا التي تنشدها ، وفيها نزعة للتبدل والتكيف والتجدد بحسب الطوارىء في ناموس الارتقاء ، فتأتي الديمقراطية في مثل هذه البيئة بأطيب الثمرات خصوصاً في أزمنة السلم العادية ، وعلى العكس من ذلك يكون الارتقاء الجموح الذي يجرّ اليه الشعب جرّاً ولا سيما متى كان افراده متباينين في تربيتهم ، لم يتعارفوا تعارفاً اجتماعيّاً سياسيّاً ولا اطلع الواحد منهم على عقيدة الآخر ولا امتزج به امتزاجاً يمكنه من الفته والفة عاداته ، فالديمقراطية في مثل هذه الحال تصبح كما قال « الموجز في علم الاجتماع » وبالاً على اصحابها فلا تعدو ان تكون ادارة الضابط الصغير متحكماً في اتباعه من الجنود

والبلية كل البلية ان يكون الشعب وان تجانس سواد افراده وتشابهوا في عقيدتهم ومثلهم العليا الاّ ان الجمود قد استحوذ عليهم ، فالديمقراطية في مثل هذه الحال هي تحكيم الاكثرية العظمى الجاهلة من سواد الشعب في النخبة المنتخبة من ابنائه . هنا تسنح الفرصة للذي يجادل في نسيج الحجاب ان يتفوق على الذي يبحث في حديد المدرعة . ووهدة مثل هذه لن ينقذ الشعب منها غير يد الزعيم الحديدية الحازمة

***

فمن الخطل السياسي الاجتماعي العظيم اذن ان يتوهم احد من رجال النهضة في العالم العربي انه في حيز الامكان تأليف دولة عربية مركزية ديمقراطية تضم منذ الآن بين دفتي دستور واحد دمشق والكويت وعنيزة والعسير والمكلا — فهذه بلدان وان جمعت بينها اللغة والعقيدة وتشاركت في كثير من اطوارها التاريخية الاّ ان العادات والتقاليد المحلية واختلاف درجة الثقافة العامة فيها وما الى ذلك من مقومات العقل الاجتماعي الذي لا بدّ منه لتأليف

الوحدة السياسية جعلت شقة الخلاف فيما بينها أبعد من ان يضمها مجلس تشريعي واحد او يلم شتاتها ارادة سلطانية واحدة

وغير نكير ان الدولة العثمانية بسطت سلطانها على جزء كبير من هذه الاقطار اجيالاً تملي عليها شيئاً من ارادتها من وراء البوسفور، لكن الاختبارات المديدة علمتها ان تجعل الادارة فيها من الوجهة العملية على طريقة « اللامركزية » فكانت (صنعاء) كما كانت (حائل) متمتعة باستقلال عملي لا غبار عليه ، بل نحن في سورية والعراق على شدة امتزاجنا بالترك واختلاط سدانا بلحمتهم كانت ادارتنا عند التطبيق بعيدة عن المركزية وان ارتبطت بالاستانة مباشرة . وهذه دروس عملية ثمينة ستكون موضع عناية العاملين في القضية العربية في السنين القادمة

ثم من الجهة الاخرى يستطيع العراق وسورية مثلاً منذ الآن ان يؤلفا دولة مستقلة ذات حوزة سياسية واحدة بالنظر الى التشابه فيما بينهما واشتباك مصالحهما خصوصاً ان العراق من غير سورية قصر بلا باب وسورية من غير العراق باب بلا قصر . ومما يدعو الى التفاؤل ان كبار الرجال في هذين القطرين الشقيقين هم كما كانوا في عهد الملك فيصل على تفاهم واستعداد لتحقيق هذه الامنية الغالية وتقديم المثال العملي الصالح لتقتدي به الاقطار العربية الاخرى



حاجتنا الى التجانس

ليس من مصلحة بلادنا في شيء ان نطلب لها الحكم الديموقراطي قبل ان نحصل على رحى اجتماعية نطحن بها الجماهير العربية فنجعلها متجانسة ونزيل من بينها هذه الفروق التي تجعل وحدة الرأي فيها بعيدة التحقيق ، ومن العبث ان نسوس البلاد بالتعاون والاشتراك والسواد منا يعتقد مثلاً ان الادارة الكاملة هي ادارة القرون الوسطى . والمخرج الوحيد من البلاء الذي نعانيه هو اتحاد كلمة النخبة المنتخبة منا ولم شعثها لتتمكن من جر الدهماء الى الامام بالقوة ، وحسبنا مثالاً نحتذي به الاقليات الفاشستية والنازية والكمالية في بادىء أمرها فهي هي التي انقذت ايطاليا والمانيا وتركيا من الانحلال ومن سلطة المجالس النيابية الجوفاء واضاعتها أثمن الاوقات في القال والقيل على غير جدوى

ولعلّ حكومة الاقليات او حكومة القاهرين ستمثل دور الانتقال من حكومة الغوغاء الى الحكومة الشعبية التي يتغنى بها منذ اجيال روّاد الحكم النيابي الصحيح ، لان الديموقراطية الحقة المشروحة في كتب السياسة والتي قلما احسنت استخدامها الامم هي في التحليل النهائي الحكم الذي ترتضيه العقول الراجحة وتقبله التربية العالية . فتكون حكومة القاهرين والحالة هذه هي الرحى الاجتماعية المنشودة التي تجعل اجتماع كلمة الشعب على الشؤون الطارئة اقرب منالاً ووحدة الرأي اقرب الى التحقيق — حتى بين المذاهب الدينية المتشاكسة — وتصرف جهود الناس على انواعها في سبيل السعادة العامة والهناءة المشتركة . ثم ان الحرية الفردية التي تلازم الادارة الديموقراطية عادةً لا تقتضي في الشعوب الراقية الخبط والخلط والجموح والاشتغال بالسفاسف كما ذكرنا سابقاً بل تعني التعاون يقدمه الفرد بحسب ملكاته ومزاياه . وقد تمثل لنا ذلك على اتمه في الادوار العصيبة التي جازتها انكلترا في الازمة العالمية الحاضرة ، فان حزب العمال لم يظهر كفاءة ولا انسجاماً ولا كان له من الزعماء من قبض على الشؤون بيدٍ من حديد فخسر الثقة التي تمتع بها ونزل عن دست الحكم من غير جلبة ولا ضوضاء ولا قعقعة . ذلك لان الامة الانكليزية اولت المحافظين تأييداً لم يسبق له مثيل حتى كاد يكون اجماعاً فتولوا الحكم والفوا الوزارة القومية الحاضرة على اهون سبيل

ولا مراء ان الوضع النيابي في البلدان التي استعدت له هو اداة تمكن اصحابها من تكوين الزعامة الفردية وهي زعامة لا تسير الشعوب عادة الا وراءها ، وعلى قوتها تتوقف صلابة البناء السياسي جميعاً ، بيد ان هذه الاداة نفسها تجعل الزعماء — على ما يجب ان يتحلوا بهِ من حرية واستقلال في الرأي — خاضعين للرأي العام

ثم ان الفرد من الدهماء عند ما تحجز حريته او يتخيل المظلمة نازلة بهِ يشعر بانحراف الحكومة وضرورة اصلاحها ، ولكنه يعرف في نفسه انه عاجز عن وصف العلاج الشافي ، فاذا لم يكن عائشاً في كنف حكومة نيابية ثار في وجه الاوضاع السياسية للخلاص منها او سقط في شرك الدجالين الاخصائيين في استجلاب العوام او اصبح العوبة بيد أرباب المذاهب السياسية المستحدثة التي تدعي ان لديها الطلسم الشافي من جميع الاوصاب . وبخلاف ذلك لو كانت الحكومة نيابية ديموقراطية فان لمثل هذا الفرد من حق الانتخاب ما يمكنه من استنابة الرجل الاقوى على ايجاد المخرج الذي ينقذه من الضيق . لا جرم ان الحكومة الديموقراطية الصحيحة بالشروط التي اشترطناها هي اقرب الحكومات الى الحيلولة دون الثورة ذلك لانها تجعل الاهلين اجمالاً على اتصال بالسياسة التي تسير عليها الدولة وتجعل لهم علاوة على ذلك شيئاً من السيطرة على هذه السياسة . فلا يجد الشعب نفسه في حالة من الغبن تحمله على الالتجاء الى العنف واستخدام الشدة ، ويكفي لاسقاط حكومة المستر مكدونالد مثلاً أن يقترع مجلس النواب عليها ، ولكن اسقاط موسوليني او هتلر او مصطفى كمال يحتاج الى ثورة ، ذلك ان ايطاليا والمانيا وتركيا ليس فيها مجلس نواب بالمعنى الديموقراطي الاصلي بل اعضاء يرقصون على النغمة التي يدندن بها الدكتاتور . وللديموقراطية شأن آخر خطير وهو ما تفسحه من المجال لارباب المذاهب السياسية والكفاءات الادارية فقد دلّ الاحصاء على ان الاكفاء يجدون الفرص السانحة لاظهار مواهبهم في الحكومات النيابية اكثر مما يجدونها في الحكومات الاستبدادية ، ذلك لان طموح الدكتاتور مثل جمال الحسناء يأبى ان يرى له منافساً

على ان الباب اذا فتح للاكفاء في الديموقراطيات فهو ويا للأسف لا يوصد في وجه الدجالين ايضاً لما في مقدورهم من استجلاب طبقة من النواب لا تختلف عن العامة كثيراً الا في جلوسها على مقاعد النيابة . يستجلبونهم بعزف الانغام المبتذلة التي يطربون لها عادة ، ولا نعرف ونعماً اجتماعيًّا اسيء استعماله في الشرق العربي لغايات سياسية حزبية مثل الدين وحجاب المرأة ، وتكاد تكون كل رجعى قائمة على التظاهر بما يدّعيه خصوم الانتقال من وجوب الدفاع عن العقائد والاعراض ومحاربة البدع التي يزعمون وجودها في الاوضاع المستحدثة . والعامة واشباه العامة من الناس اذا لم ترسخ في اذهانها القواعد الاولى التي يجب ان تتمشى عليها سياسة الدولة ، ولم تتعلم ان تفرق بين الدعايات الباطلة والصيحات الصادقة

سارت على غير هدى وانقادت لكل ناعق، وقد تفعل فيها الترهات فعل السحر في الاقوام الابتدائية

هذا بعض ما للديموقراطية وما عليها ذكرناه بشيء من التفصيل للشأن الكبير الذي له في التطور السياسي العالمي الحاضر، وقد حاول الفاتحون بعد الحرب العظمى ان يحصروا قضية البلدان العربية المسلوخة عن الدولة العثمانية في تزويد الاهلين بالمجالس النيابية ظناً منهم ان « الديموقراطية » التي خاض الرئيس (ويلسن) غمار الحرب لانقاذها من ايدي (الهنس) العسكريين الاتوقراطيين كلمة تسحرنا وتبهر عقولنا، ولكن لو كان لنا اختيار ولم نرغم على وضعنا السياسي الحاضر بقوة الحديد والنار و « هيام » المنتدبين بنا — لفضلنا الف مرة مجلساً نيابيّاً مؤلفاً من رقاصين يدندن لهم الزعيم الوطني القاهر على هذه المجالس النيابية الكريمة. ومع كل اعتراضنا على مثل هذه المجالس النيابية في البلدان العربية فنحن نعترف ان نتائج الانتخاب لم تكن لترضي المندوب السامي في كثير من الاحيان، ولو زادت حرية هذا الانتخاب قليلاً لكان اول قرار يصدره المجلس النيابي الخلاص من المحتلين بقضهم وقضيضهم، ولا يكون مثل هذا القرار مستغرباً لان دفع الموت الاكيد مقدم في البحث على سائر الاعتبارات، ومهما بلغت الدهماء في شعوبنا من الغفلة عن الواجب والاسترسال في سخافات القرون الوسطى فهي شاعرة على التحقيق بالهلاك الذي يحيق بها من الاحتلال والاستعمار

وكيف كان الأمر فيجوز للبلدان العربية التي لم تتجهز بعد بوسائل الانقاذ التي توسلت بها الامم الحية منذ ثورة اميركا في القرن الثامن عشر الى ثورة بولونيا في القرن العشرين ان تشتغل موقتاً بالوضع النيابي و« بالمناورات »البرلمانية الى ان تحين ساعة العمل، وما من شيء يقرب هذه الساعة الخطيرة في تاريخ كل قطر من هذه الاقطار مثل تضافر النخبة المنتخبة من ابنائه لخدمة المصلحة العامة، ثم على هذه النخبة المنتخبة ان تفهم الافراد ان قيمة الواحد منهم تقاس بنشاطه واشتراكه في تحمل التبعة وان من وقف موقفاً سلبيّاً من الامة وعاش كلا على جهودها هو طفيلي اجتماعي بالمعنى الحيوي، وقد انقضى الزمان الذي كان يجوز للفرد فيه ان يمدح على عزلته بل دلنا الاستقصاء العلمي على ان العزلة هذه عرض جوهري من الاعراض الدالة على بعض الامراض العصبية الوبيلة. وقد اجاد الاشتراكيون بقولهم « صوت واحد للعامل الواحد » ليستذنوا من هذا الحظ تلك الخشب المسندة التي لا قيمة لها في القسطاس البشري لانها ليس لها عمل ايجابي في المجتمع

ثم ان المصالح الاجنبية التي طرأت على البلدان العربية مزّقتها وقسمتها على نفسها لتسهيل ابتلاعها ولم تحرم هذه المصالح من نفر من اهل البلاد ايدوها اما لما يضمنون لانفسهم من المنافع الخاصة بهذا التمزيق واما لما في ذهنيتهم من ترهات قروسطية بالية ورثوها ممن استغلوا العقيدة الدينية البريئة، فعلى العاملين ان يسترشدوا بما زرعه (هيجل) في الامة الالمانية من

الطموح الذي سهل بناء الامبراطورية الجرمانية وذلك بما بثه من تلك الروح السامية التي ذهبت بالفوارق العرضية بين اجزائها . وليس بالمتعذر على الباحث ان يبين المنافع التي تجنيها الاقطار العربية من تعاونها وتوحيد اتجاهها لبلوغ غاياتها المنشودة

ولا يفوتنا هنا ان نعتذر عن تأييدنا سياسة اليد القاهرة الحكيمة لادارة البلدان العربية المستقلة ، فهذا الاستبداد الذي نوافق عليه انما هو لاجل الحرية التي ننشدها ، ونحن ننادي بحرية بعض الافراد الممتازين الغالية مؤقتاً في سلامة مجموع الامة من التناحر والفوضى ، ولو كان مجتمعنا في المنزلة السامية التي يتمناها كل مخلص امين ما فضلنا على الديمقراطية شكلاً آخر من اشكال الحكم لادارته ، وقد جاهدنا في سبيل الدستور على العهد العثماني جهاداً يذكره ابناء وطننا ولكن الخيبة التي اصابت البلاد العثمانية من نقص تربيتها السياسية وعدم استعدادها ابدت هذه النتيجة التي وصلنا اليها . ونحن نعترف هنا والاسى آخذ منا مأخذه ان الحكم القاهر يقتضي الشدة ووضع الحواجز والقيود على الافراد ، وغني عن البيان ان الادارة المملوءة بالنواهي والمحرمات وسائر انواع « التابو » او « اللامساس » هي ادارة وضعت في الاصل لعصر غير عصرنا ، وتعني في التحليل النهائي ان المجتمع الذي تطبق عليه مؤلف من افراد لا يعرفون ما لهم وما عليهم ، وان الطبيعة الحيوانية فيهم متغلبة على سائر الطبائع فيجب ان يساقوا بالقوة ويقرعوا بالعصا ، وهذا لعمري اثر من اثر العقائد التي تحسب الانسان متمرداً قد افسدته وهدمت اخلاقه الخطيئة الاولى التي ارتكبها في الجنة فهو والحالة هذه شرير بالطبع . ولو جاز للوالد ان يحسب اهل بيته اشراراً بالفطرة وان تربيتهم يجب ان تبتدىء على هذا الاساس النظري لرجعنا القهقرى الى حالة الاسرة في الاعصر الغابرة

اننا نعترف بكل ذلك ولكن ما العمل وحكم القاهرين هذا هو السبيل الوحيد للنجاة من التفتت والتفسخ والانشقاق ؟ لقد ايدنا الحكم الاستبدادي العادل للقطر العربي المستقل لاننا اهتممنا بانقاذ مجموع الشعب اكثر مما اهتممنا بانقاذ الفرد ، وقد يتبادر الى الذهن ان هنالك تناقضاً لازماً بين مصلحة الفرد ومصلحة المجموع ، حتى ان بعض ارباب المذاهب الفردية افرطوا في اظهار هذا التناقض ، ولكن التتبعات الاجتماعية دلّت اهل البحث على ان الفرد في الحياة المجتمعة المؤلفة تأليفاً صحيحاً يحقق فرديته تحقيقاً اتمّ وذلك بما يكتشف فيها من الفرص الملائمة التي تظهر ميزاته ، يعني ان الفرد الذي يعيش في عزلة لا يجد من المجال لبيان ما امتاز به ومن المشجعات على ملكاته الخاصة شيئاً يعادل الفرد الذي يعيش في المجتمع ، وكلما كانت الفرص سانحة ومتنوّعة في الحياة المشتركة وكان الطلب حثيثاً على بعض المزايا ظهرت هذه المزايا في شخص من يسمى « النابغة » او في شخص « رجل

الساعة » ظهور البضائع المرغوب فيها في الاسواق التجارية . فلا عجب ان تأتينا الازمات والانقلابات وسائر انواع الشدائد بالنبغاء الجدد بل بأشباه النبغاء ومن هم دونهم وذلك للاسواق الجديدة التي فتحت في طلبهم . وقدماً عرف علماء التاريخ ان الثورات تخلق «رجال الساعة » وفي جميع ذلك ما يدلنا على وجوب فتح المجال للافراد في الدولة كي يظهر النبوغ المستتر فيهم . وهذا ما جعل التعليم الزامياً في البلدان الراقية وفتح الابواب على مصاريعها للطلاب ليكون للفرد الواحد من الحظ ما يتيح له الفرص التي تظهر مزاياه الكامنة. قال (كونكلين) انه ليرتعش الواحد منا ان يفكر كيف نجا (اسحق نيوتن) بشق النفس من ان يكون فلاحاً بسيطاً او (فاراداي) من ان يكون مجلداً للكتب مجهولاً او (باستور) من ان يكون دبّاغاً قروياً . ويجب ان يكون في التاريخ الكثيرون من امثالهم في النبوغ ممن فاتتهم الفرص السريعة التي سنحت لهؤلاء . ومن عادتنا ان نظن ان العلماء لم يظهروا الا في فترات متباعدة ولكننا مع ذلك نعلم ان الازمات الكبرى تكشف عن العظماء دائماً . افلا يعني هذا الكلام ان الرجال جاهزون وانما يحتاجون في الظهور على المسرح الى هذا المنبه الجديد ؟ والميزات التي نرثها من الآباء والجدود كافية لمعظمنا بل هي اكثر مما نتصور، وكذلك القابليات الكامنة في صدورنا هي عظيمة ولكنها قلّما تجد لها ميداناً تتجلى فيه[1] » . والعمل المهم الذي تقوم به الحياة الاجتماعية المشتركة لاجل تقوية الفردية هو انها تبحث عن الميزات الشخصية المطلوبة في الاحوال الطارئة على المجتمع كما تبحث الاسواق التجارية عن البضائع التي يكثر عليها طلب التجار ، فالرواج يكون معنوياً كما يكون مادياً ، وقد تتنوع تلك الميزات المرغوب فيها تنوع هذه البضائع، لذلك يجد النبوغ مهما كان نادراً وغريباً هواة « يشترونه » ، والرواج يخلق البضاعة المطلوبة خلقاً ويأتي بها ولو من الصين

لا جرم ان اتساع المجتمع اليوم وتفرعه بالقياس الى ماكان عليه في الماضي والارتقاء الذي تمّ له في البناء الذي يقوم عليه والعلائق الدقيقة التي يتماسك بها كل ذلك لا يزيد فقط في طلب النبغاء بل يلحف كثيراً في تنويع النبوغ الذي يتجلى فيهم

٨ - وحسبنا من هذه التوطئة التي قدمناها ان نلفت الانظار الى خطأ الذين يحاربون الفكرة العربية العامة ويتطرفون في « اقليميتهم » ، ومن ادعى دواعي الاسف ان يكون اكبر عدد منهم — على قلته — في القطر المصري وهو القطر الذي يجني اطيب الثمرات من الفكرة العربية مادياً وادبياً ، وبديهي اننا كلما وسعنا مجتمعنا العربي ونوعنا اقاليمه فتحنا اسواقاً جديدة للنبغاء منا او لمن كانت فيهم قابلية النبوغ كامنة ، وشتان بين من يخدم قطراً فيه ثلاثة ملايين او اربعة ملايين من البشر كسورية او العراق وبين من يخدم عالماً عربياً يمتد من المحيط الى

---

(١) Major Social Problems, p. 145

المحيط ، وكما ان القرية الصغيرة لا تنمي الخبراء من اهل الاختصاء لانهم لا يجدون فيها الزبائن الكافين « لشراء » فنونهم كذلك القطر الصغير يميت النبوغ لانهُ عاجز عن تحمل نبوغهم وتغذيته بالمال والاقبال. ولأ هون على الاقاليم القطبية الجليدية ان تربي الطاووس من ان تنمي (بريدة) او (عنيزة) او (ينبع) المهندس او الكيموي

حكومة الزجر

لقد ايدنا حكومة القاهرين بالمعنى السياسي الاجتماعي الحديث لتسير بالناس الى الامام بالقوة وتحول دون تفتتهم وتطبع في نفوسهم احترام الدولة لكننا لا نرى شراً من اقتصار اعمال الحكومة على زجر الرعية فقط، ولا يسعنا في الختام ان ننهي هذا المقال من غير ان نستنكر الخطط العقيمة البالية التي تسير عليها بعض الحكومات في العالم العربي سواء كانت حكومات مستقلة او زائفة ، فهي من اساسها قائمة على نظرية الزجر فقط بحيث لا يتورع بعضها من ان يتدخل في شؤون الافراد الخاصة ، حتى ان زبانيتها ليكسرون صفائح المقول على رؤوس مستمعيه في زاوية الدار التي يسكنونها، وفي نظرنا ان اعظم تحول طرأ على الحكومات الحديثة هو خروجها من هذا الموقف السلبي — موقف الزجر والحظر و « التابو » و « اللامساس » — الى الموقف الايجابي ، موقف تشجيع الافراد والاخذ بناصرهم ، ويتجلى ذلك حتى في اشد الحكومات الحديثة استعباداً كالفاشستية والنازية . والاكثار من الزجر والتثبيط بدلاً من الاكثار من الارشاد والتشجيع عمل يستند الى فكرة سخيفة فحواها ان تغيير طبائع الافراد محال فواجب الحكومة والحالة هذه ان تحول دون شر الرعية فقط واما السعي لتحسينها فهو عقيم ولا محل له في مناهجها ! ونحن وان اعترفنا بان المدنية لم تغير بعد تغييراً جوهريًّا في طبيعة السواد من الناس في العالم المتمدن ولاسيما في ساعة الغضب والانفعال الا انا من اشد انصار التربية الايجابية ، ولا شيء نسخر منهُ مثل الاعتراف بالعجز عن الاصلاح، ولئن اعجبنا (ابو العلاء المعري) كثيراً برقة شعوره في التبرم من الخلق وتشاؤمه من فساد فطرتهم فقد اعجبنا الاستاذ (توماس هكسلي) اكثر بتفاؤله بالاصلاح وامله بالتغيير حين قال « يمكن عمل الشيء الكثير لتغيير طبيعة الانسان، فالادراك الذي حول الكلب وهو اخو الذئب الى حارس القطمان الامين يجب ان يكون قادراً على عمل شيء لاخضاع الغرائز الوحشية في الانسان المتمدن »[١]

. ومن المؤسف الممض ان نكون في شؤوننا الشرعية والاخلاقية والاجتماعية لا نزال متمسكين بالعتيق في حين ترانا في صناعتنا وعلومنا العملية كما قال الاستاذ (بايندر) على احدث طراز فاذا ما دخلت مصنعاً من المصانع الراقية او مخبراً من المخابر الفنية راعك ما فيه من

(١) Evolution & Ethis, p. 82

المستحدثات لكنك لا تجد اصحابه يختلفون في عقائدهم اختلافاً جليًّا عن زملائهم في القرون الوسطى ، وكم رأينا عاملاً متفنناً او خبيراً من اهل الاخصاء لا تختلف نظريته في الخليقة وتاريخها عما خلفهُ البابليون في سفر التكوين ، وسخافات « العظماء » اشهر من ان تذكر. ومن المهم جدًّا ان يكون للعالم العربي حكوماته الوطنية تعمل بوحي من عندها لان الارتقاء الذي يحصل عليه الشعب بتطوره الداخلي هو الارتقاء الثابت الذي لا يكون عرضة للتقلب السريع. وليت المنتدبين في الشرق وغيرهم من المستعمرين الذين يتظاهرون بالافراط في خدمة المصلحة الشرقية فيتداخلون في كل شيء ينصتون الى قول الاستاذ باينلدر حين قال « لقد دلّ التاريخ على ان الانسان لا يمكن ان يدار من الخارج كائنة ما كانت القوة التي تحاول ذلك . بل هو يدير نفسه بيده وذلك حين يقوم امام عينه مثل اعلى للاحتذاء فيجده مناسباً له ومتصلاً به اتصالاً صحيحاً . وتجذبه الى اخوانه من بني الانسان حاجته الى التكامل بهم ، وتحمله هذه الحاجة على العمل بطريقة تربي فيه ذاتية يحتفظ بها سليمة غير منقوصة »[1]

---

(1) Major Social Problems, p. 156.

الوطنية

الوطنية شعور عميق يحدو صاحبه الى مؤاخاة عدد عظيم من النـاس (هم الامة) يعتقد انهم يشاركونهُ في مثل عليا يقدسها في نفسه وهي تستلزم حقوقاً وواجبات ، وتختلف هذه المثل العليا باختلاف المقاييس الاخلاقية الزمنية والنظرات المعنوية الاعتبارية ولكنها بالاجمال تجمعها كلمة عامة هي الثقافة. وتزداد سرعة الامم التي فيها عروق الحياة نابضة الى الاعتصام بحبل الوطنية المتين على قدر هبوطها في هوّة المصاعب وتعرّضها لعوامل التفتت والاستغلال .

فالامة تتألف اذن من افراد يشعرون كما قال الاستاذ (مكدوجال) [1] بانهم متماسكون تماسكاً طبيعيًّا بروابط لها عندهم من القوة والصدق بحيث يكون في ميسورهم ان يعيشوا بالسعادة والهناءة اذا كانوا معاً ولكنهم يصابون بالضيم اذا ما تفرقوا . وهم يرفضون كل خضوع وانقياد للشعوب التي لا تشاركهم في هذه الروابط . فما هي هذه الروابط يا ترى ؟

هي في نظري قائمة على أساس جوهري مبناهُ التجانس والاتصال وما الى ذلك من اسباب التشابه ، فهي تتطلب التماثل في الاوضاع والعادات والانساب ، والاتصال الزمني واتحاد المصلحة ، هي في عالم الانسان مصداق للمثل الذي يطلق على ذوات الاجنحة « ان الطيور على اشكالها تقع » بل هي مصداق للحديث « الارواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف » ومع كل ما يقف في سبيل الوطنية الصادقة من العقبات وما يعتور زعماءها من المقاومات الداخلية والخارجية فهي كما تنبأت دائرة المعارف في احدى طبعاتها الاولى « تتقدم بسرعة والمرجح ان تكون عاملاً قويًّا في اوربا لمدة اجيال قادمة فتؤدي الى انشاء وحدات سياسية وتعيد الى سالف العهد لغات قد انحطت وتستولد ادبيات مستحدثة »

ولما انتشرت الافكار الاشتراكية المتطرفة واشتدت شوكة الشيوعية عقب الحرب العالمية خيف على الوطنية وظن الناس ان عهد كافور وغاريبالدي وماتسيني وبسمارك ومن حذا حذوهم من اعلام القوميات لم تعد له صلة بزماننا لان الجامعة الوطنية عند اصحاب هذا الظن هي كالجامعة الدينية اصبحت من مخلّفات القرون الوسطى ، ولكن نهضة الطليان والترك والالمان الحديثة وما تبعها من انتشار الافكار الفاشستية الوطنية بصورة فعّالة حتى

---

(1) The Group Mind, p. 136

في بلاد الديمقراطيات العريقة كل ذلك خيّب آمال اللاوطنيين الاندثاريين وقضى — ولو مؤقتاً — على فكرة الذين يزعمون ان الانسان يستطيع ان يتخلى عن تراثه القومي وثقافته الوطنية . وما لم تشترك جميع الامم الراقية اشتراكاً اقتصادياً وسياسياً في هذا الاندثار والتخلي فمن المستحيل ان تتحقق فكرة الاشتراكية الدولية او الاخوة العالمية ، لانهُ من انكر النكر ان تبثّ في سورية او في مصر مثلاً فكرة الاخوة الانسانية وفي فرنسا او انكلترة فكرة تنازع البقاء في آن واحد . ولعلَّ اخفاق عصبة الامم يرجع سببه في الدرجة الاولى الى ان المسيطرين عليها قد اصرّوا على ان تبقى جميع القوة في ايديهم وان يتنازل غيرهم عن جميع اسباب دفاعه ، وهكذا نسوا ان يبدأوا بأنفسهم فينهوها عن غيها ، ويعلموها ما يحاولون ان يعلموهُ غيرها

ونرى روّاد الوطنية الحديثة قد قاوموا بكل ما اوتوه من قوة النظريات الانسانية العالمية التي بثتها الثورة الفرنسية لان مثل هذه النظريات تفتت الشعب فتحوله الى افراد لكي تؤلف منهم فيما بعد خليطاً من الغوغاء . فلا عجب أن يعلن (ماتسيني) حرباً عواناً على اللاوطنيين الارضيين الذين يدعون الناس ان يحب بعضهم بعضاً من غير تفريق في الجنسية ، لانهُ يعد مثل هذه الدعوة عبثاً وقائماً من الاساس على المستحيل عقلاً

وعند (ماتسيني) [1] ان الامة مرتبة وسط بين الفرد من جهة وبين مجموعة الجنس البشري من جهة اخرى ، وفي طاقة المرء ان يفهم امته ويحبها لانها مؤلفة من مخلوقات تشبههُ ، وهي تنطق اللغة التي ينطق بها وتتحلى بالميول الطبيعية التي يتحلى بها ، وقد أدبتها التقاليد التاريخية المشتركة ، وفي الامكان تصويرها في الذهن وحدة وطنية مستقلة . فالامة والحالة هذه مرتبة وسط بين البشرية وبين الفرد . (ترجمة حياة ماتسيني ص ٢٧٣) . وفي وسع المرء ان يحيط بالبشرية وذلك بان يتصورها فسيفساء من أمم كل منها يتألف من افراد متجانسين ، والامم هي رعايا البشرية كما ان الافراد هم رعايا الامة . اما عهد الانسانية فلا يجوز ان يمضيه الافراد بل تمضيه الشعوب الحرة المتساوية ذات الاسماء والاعلام الخاصة والتي تحس بحوزتها المستقلة

وقد مثلت الوطنية كما فهمها بسمارك وماتسيني في القرن التاسع عشر دوراً خطيراً في نشوء الوعي السياسي في اوربا ، ولكن الكتّاب زعموا عقب الحرب العالمية انها لا تصلح لحلّ المعضلات التي استجدت ، فما قولهم دام فضلهم في مساعي الهتلريين في يومنا الحاضر لضم النمسا متجاوزين في ذلك حدود النظرية البسماركية وذاهبين في التطرف الى ابعد منها ؟ اليس التجانس اللغوي والثقافي واتصال البلاد ومصلحتها وتنظيمها السياسي كل ذلك

(١) Human Nature in Politics p. 276.

من القواعد الوطنية التي ساقت النازي الى هذا العمل ؟ ألم تدلنا الوطنية الفرنسية في الغرب وفي الشرق ، في فرساي وفي عصبة الامم ، في المؤتمر الاقتصادي العالمي وفي مؤتمر نزع السلاح ، في بلاد الحماية وفي بلاد الانتداب، على ان قاعدة بسمارك التي تلاها في خطابه سنة ١٨٥٠ لا تزال محترمة تحز مفاصل الامم في سنة ١٩٣٤ وفحواها « ان المبدأ الصحيح الوحيد للخطة التي تسلكها الدولة المعظمة انما هو الانانية السياسية» ألم يدخل الجنرال غورو دمشق الشام في سنة ١٩٢٠ مفتخراً بسحق سورية التي برأسها حليفه ، والتي نالت قبل ذلك ببضعة عشر شهراً تصريحاً مشتركاً من فرنسا وانكلترا بحقها في الاستقلال ، والتي قال عنها الحلفاء انفسهم في عهد عصبة الامم انها اهل له ؟ وأما جميع تلك التفاسير التي فسرت بها هذه الوعود والعهود الشفهية والخطية ، الرسمية وغير الرسمية ، لدخول المستعمرين البلاد فاتحين مغتصبين فهي تفاسير اهل الحيل الشرعية الذين يؤولون اصرح النصوص وأقدس العقود لمصلحتهم الشخصية او مصلحة وكلائهم المادية . وقد سمعت في احد الايام شيخاً اشترته فرنسا بالوظيفة يدعو الناس الى طاعتها في سورية بما تلاه عليهم من نص القرآن « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول واولي الامر منكم »ثم ان القوي يتمتع منذ القدم بحق تفسير الشرائع السماوية والارضية لمصلحته وأما الضعيف فيرفع يديه الى السماء طالباً الرحمة، ولو انهُ بدلاً من ان يرفعها الى السماء لطم بها وجه المنافقين لكان اقرب الى استنزال الرحمة واستدرار البركة

***

كذلك نحن اذا حللنا خطة فرنسا في شمال افريقيا تحليلاً دقيقاً وجدناها قائمة على الفكرة البسماركية ايضاً ، وبدلاً من ان يكون النموذج البروسي في هذه القضية هو الذي يجب ان يهضم غيره ويمثله نرى النموذج الفرنسي اللاتيني هو الذي يحاول « بالدم والحديد » كما قال بسمارك ان يمتص غيره من عناصر العالم العربي . وهذه لعمري وطنية التوسعيين من اهل البسطة السياسية ، وان نجحت طريقتهم في البلدان المتجانسة ذات الثقافة المماثلة فهي محكوم عليها بالاخفاق في البلدان الاخرى ، وحسبنا ان نشير هنا الى ايرلندا والصراع العنيف الذي دام حقباً لكلترتها الى ان سنحت فرصة الحرب العالمية فأعلنت استقلالها المعلوم وهي تقطع اليوم عرى اتصالها ببريطانيا ولا تقبل مع انكلترا غير معاملة الند للند ، وقاعدتنا في تحديد الحلف العربي القادم هي قاعدة ليس فيها دم ولا حديد كقواعد المتغلبين هذه بل قائمة على تجاذب روحي يناسب المستوى العقلي الذي بلغناه ويجمعها قولنا « طاقة الثقافة العربية بأوسع معانيها ان تضم تحت جناحيها جميع العناصر التي اكتسبت التماثل والتجانس بفعلها واما ما لا تتسع لهُ معدتها فيكون خارجاً عن حوزتها »

وقد يعترض علينا معاشر السوريين معترض فيقول : ما بالنا نبحث في الحلف العربي الاكبر ونحن في عقر دارنا مقسمون ممزقون الى دويلات ؟ وهل من الحصافة في شيء ان نحبر المقالات الطوال في وصف (الشوكولاته) وطبخها للذين يموتون من الحاجة الى الخبز على قارعة الطريق ؟ والجواب ليس عسيراً متى عرفنا ان الوعي القومي اذا دبّ في الافراد اصبح خالداً وان الامم الحية واصلة الى غرضها ولو لاقت في سبيل ذلك اضعاف ما لاقى الصربيون واليونانيون والبولنديون

﴿ شأن الوطنية عند المعاصرين ﴾ ومما يدلنا على المقام الرفيع الذي تتمتع به الوطنية الصادقة في الشعوب الحية المعاصرة المسألة الآتية التي لم نمهد لها مثيلاً في الشرق على اقل تقدير وهي ان المحافظة على العقائد الدينية في الاقطار عامة — ولا سيما التي فيها نزعة روحية ظاهرة — امرٌ مرغوب فيهِ يتطلب عناية الذين يقودون الشعب في نهضته السياسية ، وذلك لحاجتهم الى الاستعانة بالرأي العام والتأثير في الدهماء ، لان الخروج على العقائد هو مثل امتهان حرمة التقاليد المقدسة يدعو الى النفرة في سواد الشعب ، والقائد هو في حاجة دائماً الى استرضاء الجنود واستمالتهم والاّ ما حاربوا تحت لوائهِ ، ولكن زعيماً سياسيًّا حربيًّا مثل مصطفى كمال باشا لم يهمل قضية الدين فقط بل حاربها محاربة جبارة قد لا تقل من بعض الوجوه عن محاربة (لنين) لها وضربها في الصميم ، ولم يدخر وسعاً في قلبها من الاساس من غير ان يفقد شيئاً عظيماً من هيبتهِ ، وهو وان احدث لهُ خصومة لا يستهان بها في العالم الاسلامي ، الاّ ان المعجبين بهِ من المسلمين انفسهم الذين يحلونه المحلّ اللائق بهِ من الاعتبار — مع احتفاظهم بعقائدهم الدينية — هم لا يستهان بهم ايضاً ، فكأن عمله الباهر في ميدان الحرب والسياسة قد طغى في نظرهم على سائر الاعتبارات فغفر لهُ ما تقدم من ذنبهِ وما تأخر ، وكأن انقاذ الشعب المستعبد من ربقة الذل ولعنة الاستعمار حدث يجبُّ ما قبله ويمحو ما بعده ، ومما يسترعي الانظار ان الحملة عليهِ في العالم الاسلامي لم تبلغ جزءاً من شأو الحملة على الالحاد البولشفي في العالم النصراني . ولعلّ للدعاية الرأسمالية الواسعة شأناً في هذا المضمار

﴿ تتمة ﴾ : وقصارى القول اننا لا نخطىء اذا قلنا ان الوطنية مثل الاشتراكية — ومثل سائر المذاهب السياسية التي تتناول سعادة الافراد ورفاهيتهم — هي دين له كتبه المقدسة وانبياؤه وشهداؤه وحروبه ، وتزداد الحماسة التي تحفز اهلهِ الى الاقدام وتحملهم على البذل بقدر الخطر الذي يهدد حوزتهم من الدول حولهم . ولا جرم ان تسمو الوطنية في اعين الشرقيين خاصة ويعلو كعبها ، ذلك ان بلدانهم اصبحت هدَفاً يرمى وغنيمة تقتسم ، وما لم يهبوا للدفاع عنها كما هبت الشعوب في القرون الوسطى للدفاع عن العقائد الدينية المقدسة كانت النتيجة كفراً بنعمة الوطن وخلوداً في جحيم الاستعمار

عوامل التجانس

الذي تبنى عليه وحدة الامم

لقد جعلنا التجانس المحور الذي تدور عليه الوحدة السياسية في الامم، فلا امة حيث لا ير تبط الافراد برابطة التشابه والتماثل، ولا نعرف سياسيًا عبّر عن هذا التجانس بقاعدة قريبة من قواعد العلوم الحسية الرياضية مثل بسمارك داهية الالمان فقد جعل القاعدة التي تقوم عليها الامبراطورية الجرمانية ما يأتي وهي: «طاقة النموذج البروسي على اهتضام العناصر الجرمانية الاخرى وتمثيلها لما بينهُ وبينها من اسباب التشابه والاتصال . ونبوّب هذه العوامل على الطريقة الآتية :

(اولاً) احتلال بقعة جغرافية منضمة ، لان شأن القطر الواحد في سبك سكانه امةً هو مثل شأن البيت في سبك اهله اسرةً . فنزول قوم بارض يستنشقون هواءها ويشربون ماءها ويتدفأون بشمسها ويتمتعون بمناظرها ويتعاونون على استخراج خيراتها يقرب شقة الخلاف فيما بينهم ويساعدهم على التجانس في الافكار والاوضاع ؛ ذلك ان اتصال الجمعية البشرية بمحيطها الطبيعي واعتمادها عليهِ هو اتصال مباشر ، وقدماً عرف الناس ان المرء ابن الارض التي ينبت فيها ، واهتمام الامة بان تكون الارض التي تعيش عليها منضمة معروفة الحدود غير متداخلة في غيرها يفسر لنا احتجاج الالمان الصميم على ما احدثتهُ معاهدة (فرساي) من اقامة (المجاز البولوني) بين بروسيا الشرقية وبروسيا الغربية . ومثل هذا الباعث يحمل الارلنديين على مقاومة كل جهود لاقرار دولة (أُلْستر) في شمال جزيرتهم مع كل ما قيل من تلك الفروق الواهية بين اهل الشمال والجنوب ، ونحن اعرف الناس بمن لا يرضى ان يتحد البروتستانت والكاثوليك هناك ، بل ان يبقى الخلاف بينهم على سلطة البابوية الروحية الى الابد ، لاننا خبرنا في سورية من لا يرضى ان يتحد السني والشيعي فضلاً عن المسلم والنصراني . وما تلك الدويلات الخرافية التي احدثتها يد الاستعمار في الوطن الغالي الاّ محاولة لتمزيق شمله بتمزيق وحدة ارضه ، بل ان انشاء الوطن القومي الصهيوني في فلسطين يبغي في جملة ما يبغيهِ من الغايات السياسية اقامة حاجز اجنبي بين اجزاء البلدان العربية لاضعاف صلتها الجغرافية

وكما لا تعيش اسرة من غير بيت تنضم تحت سقفه كذلك لا تعيش امة من غير وطن تأتلف فوق أرضه . وان قواعد الحقوق الدولية الحاضرة كما قال (لورنس) تتخللها فكرة السيادة الارضية الى درجة ان كل هيأة سياسية لم تستقر على بقعة من سطح الارض تملكها وتتصرف فيها تصرفاً مشتركاً لا تستطيع الانتفاع بالقانون الدولي [1] وقد كان اغتصاب الاراضي من اصحابها في ازمنة التاريخ باعثاً من أقوى البواعث على الحرب والانتقام ، ونرى أثر ذلك في

(1) The Principles of International Law p. 58.

البوادي التي لا يظن انها ملك احد عادة اذ يقع العراك فيها لاجل الآبار والمراعي ، وكلما استقرّت الامم واسبطرّ عمرانها ارتبط تاريخها بالارض التي نبتت فيها بحيث تصير سواقيها وانهارها وجبالها واغوارها حتى كثبان رمالها رمزاً لكل عزيز ومقدس ومبجل

(ثانياً) العامل الثاني (القرابة) او (وحدة النسب) :

ان علائق النسب بين الام وابنائها وهي اقدم قرابة عرقية كانت الاساس الذي قامت عليه الرابطة الاجتماعية منذ انبثاق فجر البشر ، ولا تزال العامل الاكبر في تمتين الاخوة في الجماعات الابتدائية . وتنقسم قبائل البدو في ايامنا الى بطون وافخاذ جرياً على هذه القرابة الطبيعية الحيوية بيد ان البحوث المقابلة في الحيوان لا تمنح هذا الاتصال في الاصلاب والابدان غير شأن مؤقت ، فالاشبال مثلاً تتعامل فيما بينها تعامل الاخوة ما دامت تعيش في عرين واحد وترضع من طبي واحد ، ولكن متى اضطرتها مصالحها الفردية الى البحث عن طعامها وما تتطلبهُ اجسامها من المطالب الحيوية بطريقتها الخاصة انقطعت عن الاسرة وغادرت المكان الذي ولدت فيهِ ولم تعد تعرف امها ولا اخوتها بالامس بل اذا صادفت احداً منها عرضاً في الطريق عاملتهُ معاملة العدو المزاحم . ولو بقي هذا المخلوق الذي ندعوه بشراً خلواً من الميزات التي جعلتهُ انساناً — من اللغة والعقيدة والعاطفة والفكرة وسائر الملكات الاجتماعية التي اكتسبها في حجر ابويه وبين اخوته ـ ما اختلفت هذه القرابة فيهِ عن الحيوان اختلافاً بيّناً ، ولكن الذي اكسبها هذا الشأن في الاقوام على اختلافها ـ حتى في الاقوام الراقية المعاصرة ـ كما هو الحال في المانيا النازية اليوم وما صنعتهُ من تمييز الجنس الآري للخلاص من اليهود الساميين ـ هو ان مهد القرابة في حجر الآباء والامهات هو مهد الاتحاد السياسي والاقتصادي والاجتماعي أيضاً ، ففي هذا المهد يتلقن الانسان اللغة ويمارس شؤون الحياة العملية وتتربى فيهِ الملكات الاجتماعية مما يحمله على الظن ان هذه التحف المعنوية الثمينة التي زانت نفسه هي العرض ، وان القرابة الرحمية هي الجوهر ، مع ان الحال على عكس ذلك الى مدى بعيد ، ولا يعني هذا الكلام اننا ننكر بتاتاً شأن الوراثة السلالية القومية ولاسيما في السلالات المتباينة في الوانها بل نريد ان نقول ان البيض ـ خصوصاً الآريين منهم ـ افرطوا في تقويم هذه القرابة بالثمن الغالي كما افرط الانسان في تقويم الماس والياقوت والفيروز وسائر الاحجار الكريمة وان كانت هذه « الجوهرات » عند التحليل النهائي وفي الميزان العقلي المجرد لا تعدو ان تكون احجاراً فقط

على ان الثمن الذي يضعهُ المجتمع للاشياء والاعيان اصطلاحاً هو ثمن شئنا ام أبينا ، ومعرفتنا ان الماس من الوجهة الكيمياوية مثلاً فحم لا تمكننا من شرائهِ بالارطال بل لا يزال يباع بالقراريط وانصافها وارباعها على رغم الصيغة التي تدوّن بها مادته في كتب الكيمياء

لا غرو ان الاقوام الناشئة تبحث عند سعيها لتأليف وحدتها عن عنصر القرابة ايضاً ، وهذا ما يشاهد في شعوب العالم العربي اليوم ، فما نسمعهُ من الضجة حول اصل السوريين والمصريين وسائر سكان افريقيا الشمالية هو ظاهرة من ظواهر هذا السعي الموفق ، فهذه المجموعة لا تكتفي بما بينها من عناصر الاتحاد الاجتماعي الوثيق من لغة وعقيدة وعادة وتاريخ ومصلحة بل تبحث عن تلك الرابطة البيولوجية ايضاً — رابطة الاعراق — فتجدها في الموجات السامية التي طفت من الجزيرة العربية على الانحاء في القرون الخالية وربما كان آخرها الفتح الاسلامي ، وهي ترى كيف انتقلت هذه الدماء الى الاقطار القريبة والبعيدة في آسيا وأفريقيا ، وهذا مما يساعد على تقوية الائتلاف الحاضر وتأييد الرابطة المنشودة وان لم يكن جوهريًا كما يدل تأليف الولايات المتحدة من عناصر متباينة

وغير نكير ان العرب الاقحاح حاولوا بعد الاسلام الاحتفاظ بأنسابهم ولكن دخولهم الامصار واختلاطهم باخوانهم في الدين من العرب والعجم وتزاوجهم كل ذلك ادّى بهم الى اطراح اكثرهذه الأنساب ـ الاّ ما بقي منها متعلقاً ببعض البيوت المقدسة وأشباهها كالبيت الهاشمي والبكري والعمري والعلوي الخ ـ ذلك ان الدين الاسلامي لا يفرق بين اتباعه الاّ بالتقوى ، لاجرم اننا نجد القبائل العربية التي دوّخت فارس والروم اندمجت في البلدان التي فتحتها ، فما كان متيسراً لها من حفظ انسابها وهي نازلة بالبقاع المنقطعة في الجزيرة تعاني شظف العيش وتعجز عن تحمل فرد واحد آخر تزيد اعالته على ما عندها من الموارد الضيقة المحدودة ، اصبح متعذراً بعد نزولها الامصار وامتزاجها بمن اعتنق دينها وقبل ثقافتها . وفي عقيدتي ان كل محاولة لاتخاذ اية قرابة اقليمية خاصة في العالم العربي لتقف دون الروابط الوثيقة التي ذكرناها هي محاولة عقيمة محكوم عليها بالاخفاق في عصر الامم الكبيرة الذي نعيش فيه ولا تستند الى شيء من العلم ، وقد يكون الباعث عليها احقاداً خلفتها القرون الوسطى او اغراضاً استعمارية لايطمئن بالها ما لم تر سكان الشرق العربي ممزقين الى فينيقيين وأشوريين وفرعونيين وبربر وعرب علاوة على تمزيقهم الى ملل ونحل لا يتسع لذكرها هذا المقام . وان تعجب لشيء فعجب ان تستعين قوى التاريخ الاجتماعية بالثقافة العربية منذ اربعة عشر قرناً لتجعل منا وحدة صحيحة فيأبى الممزقون من مستعمرين او متعصبين الاّ ان يستعينوا بقوى السلطة الاوربية السياسية في القرن العشرين ليبلبلونا

لقد اتفق المستثمرون على آلة الهجوم فما بالنا ونحن الذين تنزف دماؤنا نختلف على آلة الدفاع ؟ ومما هو حري بالتدوين اننا احصينا الزعماء النافذين في بعض البلدان التي قام من ابنائها نفر يصيح عالياً بهذه الدعوة الاقليمية « الجاهلية » فوجدنا معظمهم من العرب الاقحاح الذين لا يختلف في نسبهم مؤرخان ولا ينتطح في عروبتهم عنزان ـ ناهيك بتلك العرى

الوثيقة التي لم تغادر كبيراً او صغيراً الاّ ضمته الىهذه الوحدة المقدسة

ثالثاً : ﴿ وحدة اللغة ﴾ نعتقد ان اللغة عامل من اقوى العوامل للتشابه بين الناس ، فقد دلت التتبعات الدقيقة في التدرج الاجتماعي على ان الثقافة العامة هي الاساس المتين الذي يشترك الافراد – كلٌّ بحسب قابليته – في بناء صرح الامة عليه ، ففي حجر القرابة الرحمية يتوارث الخلف عن السلف ثقافة معنعنة واحدة ، وفي رابطة الدين تنتقل العقائد من الواحد الى الآخر وينتقل معها الكثير من مقوّمات الثقافة ، ولكن في الاشتراك اللغوي المبني على التفاهم المباشر توحد هذه الثقافة ويكون الشبه القائم عليها شبهاً روحيًّا وفكريًّا واجتماعيًّا في آن واحد ، ولم يعد المجتمع اسرة ولا فخذاً او بطناً او قبيلة بل اصبح يضم العناصر على انواعها تحت لواءٍ واحد من الثقافة هي ثقافة اللغة في الدرجة الاولى . وقد وجد اهل البحث في الولايات المتحدة حيث يكثر المهاجرون ان اهل اللغة الواحدة هم اقرب الى التفاهم والتضامن على اختلاف الدين والمذهب من اهل العقيدة الدينية الواحدة المختلفين في لغتهم الاّ اذا كان المهاجرون لايزالون في ثقافتهم على طريقة القرون الوسطى . ومن المسائل التي اتعبت الحكومة الاميركية ما اشار اليه « الموجز في علم الاجتماع » بقوله « والصعوبة في اقرار النظام الاجتماعي بين الجماعات المختلفة ذات اللغات المتنوعة والافكار المتنافرة والمشاعر المتباينة هي صعوبة كبيرة جدًّا حتى انها لتلاحظ اليوم في المدن الاميركية الكبرى وما فيها من اهلين غير متجانسين .... واللغة هي وليدة السعي للافصاح عما يخالج النفس من الافكار ، ومن ينقب عن منشأ المجتمع البشري يجد في فعل اللغة وفي ردّ فعلها سبباً من الاسباب الداعية الى تكوين هذا المجتمع ونتيجة من النتائج الناجمة عنه »

ونحن باللغة نصور حالات النفس ، ونرسل على سلكها ادق مشاعرنا الى اعماق قلوب غيرنا وبها نقنع الخصم ونهذب الطبع ونستفز الحمية وننشر العلم ونهدي الضال وننير الطريق ، واللغة رحى اجتماعية تطحن العناصر وتمزج بعضها ببعض ولولاها ما كان اتساق ولا انسجم رأي عام ، فهي هي اساس التشابه الاجتماعي الذي تبنى عليه الوحدة الوطنية وهي هي اداة التنظيم العقلي الذي يكسب الامة ارادة عامة ، وقد احسن ارسطو كل الاحسان بتعريفه الانسان انه حيوان ناطق . قال الاستاذ باينـدر « وطاقة الناس على التكلم بلغة واحدة تعني اشتراكهم في اعمال أُخرى على نمط متشابه وطريقة واحدة ، وتنتقل الملاحظات من الواحد الى الآخر بسبيل الكلام فكان متحتماً ان يعمل التلميذ مثل استاذه على اساس المحاكاة والارشاد . وهكذا يكون اتجاه عقلي متماثل يتجلى في الاعمال المتماثلة في كل دائرة من دوائر الحياة ، فتكون عروة الاتصال في الواقع عروة تطبيع لاعروة طبع ، ولكن هذه الحقيقة لبثت مجهولة زمناً مديداً . فاهتمّ الناس خطأً بالانساب وصلة الارحام بدلاً من ان يوجهوا

عنايتهم شطر العنصر التهذيبي المتجلي في العلائق القائمة بين الناس على الادراك . ولا تزيد قيمة الانساب والاصلاب في الانسان عن قيمتها في الحيوان ، ولكن الباسها حلة من القدر والقيمة جعلها رابطة من الروابط الاجتماعية (١)

رابعاً : ﴿ الوحدة الدينية ﴾ الاخوة الدينية جزء من الثقافة العامة ولها اثر فعال في جمع العناصر المتباينة، وكان ذلك خصوصاً قبلما ظهرت الوطنية الحديثة بشكلها الزمني الشامل ، ولما كان الدين في القرون الوسطى الفارق الاعظم بين الناس ، وكان المجتمع قائماً من الاساس على انواع المعبودات التي يسجدون لها بحيث ينظر الى دين المرء أكثر مما ينظر الى لغته وعاداته وجنسه والاقليم الذي ولد فيه ، فكانت الحروب الخارجية تعلن بين الجماعات لاسباب دينية كما هي الحال في الحروب التي أثارتها النصرانية لتحطيم الوثنية والثورة العالمية التي قام بها الاسلام للتوحيد والتنزيه عن الشرك ، والحروب الصليبية التي شنتها اوربا على بلاد الاسلام بحجة انقاذ القبر المقدس ، وهي ما فتئت تشنها حتى في القرن العشرين كما يستدل من قول اللورد اللنبي عن فتح فلسطين انه آخر حرب صليبية ـ لما كان ذلك كله قائماً على اعتبارات يتعلق معظمها بالايمان وبالعبادة وبالموقف الخاص الذي يقفه المؤمن تجاه معبوده فلا غرو ان يقسم الخلق اجمالاً الى قسمين اثنين لا ثالث لهما قسم المؤمنين وقسم الكفار وان نعتبر ملة الكفر واحدة مهما اختلفت العقائد التي تدين بها ، وان يعامل « المؤمنون » معاملة فيها كل انواع التفضيل ، في حين يحرم الكفار من كثير من الحقوق حتى ما كان منها في بعض الاحيان جوهرياً ، ويبدو الاثر الذي تحدثه هذه النظرية الى عصر متأخر في الكتب التي وضعها بعض المشترعين الاوربيين المتأخرين عن « حقوق الدول » وفيها حصروا التمتع بمزايا هذه الحقوق ومنافعها في العالم النصراني ـ دون العالم الاسلامي مثلاً ـ يعني ان الذي يقول « باسم الاب والابن وروح القدس » يحق له ان يجلس في قاعة الامم واما الذي يقول « باسم الله الرحمن الرحيم » فيبقى خارجاً !

وفي العلوم الاجتماعية الحديثة ان الدين هو احد الروابط التي تربط الناس بعضها ببعض من غير زيادة ولا نقصان ـ فالرأيان المتطرفان وهما رأي من يقول ان الدين لا شأن له اليوم في جمع الناس من جهة ، ورأي من يقول ان الدين هو العامل الوحيد في تأليف الجماعات من جهة اخرى ، كلاهما بعيد عن محجة الصواب ولا يؤيده العلم ، وحسبنا في تأييد ما للرابطة الدينية من قوة في دهاء الناس ان نبين هنا كيف تستغلها السياسية التوسعية لمصلحتها وتستعين بها على الجماعات كما تفعل فرنسا في سورية فاننا نراها هناك احرص على المذهب النصيري والدرزي من النصيريين والدروز أنفسهم . وليس في الاحداث السياسية بعد

(1) Major Social Problems, P. 207

الحرب العظمى حدث بني على الرابطة الدينية ـ في الظاهر ـ مثل الوطن القومي الصهيوني في فلسطين ، فمثل هذه التجربة الجريئة في بلاد لا يدين أهلها باليهودية لا تليق بدولة تعيش في القرن العشرين ، ولو قامت مثل هذه الدعوة في بلاد شرقية متعددة الاديان لرمانا اهل اوربا بكل مذمة ولا دعوا بأننا لانزال على وضمة القرون المظلمة ، وليس في جميع الشرق اليوم دين حرماني ينصب الحواجز حوله عالياً كالصهيونية لأنها اضافت الى الوطنية المتطرفة تعصباً دينيًا متطرفاً .

وهل يوجد في جميع العالم سخيف واحد في طاقته ان يدعي ان مجرد هيام فرنسا بالدرزية وانكلترا باليهودية أدّى الى تأليف دولة الدروز في سورية والوطن القومي الصهيوني في فلسطين؟

وكنا نحسب ان إرلندة في نهضتها الحديثة افهمت الانكليز خطر العبث بالاديان واتخاذها وسيلة للاغراض السياسية المادية ، فزرع البغضاء على هذا النمط لا ينبت غير القلاقل في الاحوال العادية ، واما عند سنوح الفرص ـ في الحروب العامة واشتغال كل فريق بما يضمن له اسباب الحياة ـ فالخطر يتجاوز حدود الشرائع وقواعد الايمان

ونحن وان لم يخامرنا شك في قوة الدين الروحية وانها على جانب عظيم من الخطورة الا ان نهضة الشعوب الحديثة في القرن الماضي وفي هذا القرن — نهضة الترك انفسهم وهم من صميم الشرق ـ حملتنا على لفت انظار القرّاء الى قول الاستاذ (بايندر) وما فيه من الحق الصريح حين وصفها بأنها «تفقد سلطانها حتى بين الشعوب الاكثر جهلاً في آسيا ، لانه لما اريد جمع المسلمين تحت لواء الجهاد المقدس لمقاتلة النصارى لم يطع اتباع النبي تلك الدعوة بل ان الكثيرين منهم قاتلوا خليفتهم على اساس وطنية استفاقت من غفلتها حديثاً . فالعرب مثل المسلمين الهنود اشتبكوا في حرب يقاتلون الترك باعتبارهم طورانيين . وفي يومنا هذا تفوق الوطنية بمداها البعيد وشأنها الخطير سائر روابط الاتصال بين الجماعات »[1]

(خامساً) خضوع مشترك حقبة من الزمن لحكومة نظامية ثابتة !

مهما قيل في الامبراطوريات العظيمة التي تتألف من عناصر متنافرة فان خضوع هذه العناصر لحكومة واحدة مدة من الزمن مديدة يقرّب شقة الخلاف الطبيعي فيما بينها من بعض الوجوه ويجعلها في كثير من امورها على نسق واحد . وقد كانت الامبراطورية النمسوية مثلاً على ذلك في الغرب الى ان مزقتها الحرب العالمية ، وكذلك كان حال الامبراطورية العثمانية ، فان حكومة الترك العثمانيين بعد استقرارها اجيالاً في الاستانة استطاعت ان تخلق من الترك والعرب والكرد والارمن واليونان والالبان على اختلاف الملل والنحل شيئاً من التشابه والاتساق على الرغم من دواعي التنافر وبواعث الاحتكاك . فاذا كان هذا سلطان الادارة المستديمة في سبك العناصر المتنافرة فليت شعري ماذا يكون سلطانها في العناصر

(1) Major Social Problems, p. 209

المتجانسة في طبعها وطبيعتها وثقافتها ؟ ولا مراء ان ذاك الوضع الديني السياسي الذي خلقته القرون الوسطى وهو وضع البابوية في النصرانية والخلافة في الاسلام كان له الاثر الفعّال في سبك (المؤمنين) وطبعهم على غرار واحد . وغير نكير ان البابا كان في بعض الاحيان في وكر كما كان الخليفة في قفص ولكن الوضع الذي مثلاه كان ممتداً الى اقاصي المعمور ، ولئن تجلى هذا الامر الروحي السياسي بأتم مظاهره في القرون الوسطى فذلك لان العقيدة الدينية تناولت حياة البشر في تلك الاجيال من جميع الوجوه فقد عاش الناس يومئذ في الدين واكلوا في الدين وشربوا في الدين وماتوا في الدين وعملوا سائر اعمالهم في الدين كما يتضح من التلاوات والاوراد والشعائر التي كان يقوم بها الفرد منذ ما يصبح في فراشه الى ان يعود اليه في الهزيع الاول من الليل . ويعجز القلم عن تبيان الخدمات الجلى التي أدتها العقيدة الدينية لتنظيم اكثرية عظمى من الناطقين بالعربية تنظيماً روحياً عقلياً اجتماعياً واعدادهم للتفاهم ، لان الشرط الاول في تأسيس الدولة الثابتة هو احداث نواة من التجانس صالحة للارتكاز والتجمع ، ولولا هذه النواة المؤلفة من الاكثرية لادّى التنافر والتشاكس بين العناصر المتكافئة الى الفوضى والتفتت . ومن بعد ما تألفت هذه النواة صار في الميسور الانتقال الى الطور الاجتماعي التالي وهو طور الوحدة السياسية، ففي هذا الطور تتسع اسباب التشابه بحيث تصير الثقافة العامة ــ بصرف النظر عن العقيدة الدينية والمذهبية ــ اساس اجتماع الكلمة ، فيكون للوضع الديني السياسي المزدوج في القرون الوسطى والحالة هذه القدح المعلى في اعداد الشعب على اختلاف ملله ونحله للانتظام الحديث والمضي في طريقة سياسية تضمن للجميع اخوة ومساواة من غير تفريق ، لان وحدة من غير اكثرية أساسية سابقة يقوم عليها البناء السياسي وتلتف حولها الاقليات مع احتفاظها بخصائصها هي وحدة الاحلام ، ويعمل القبط اليوم وهم من صميم النصارى مع اخوانهم المسلمين لرفعة شأن مصر اعمالاً تسجل بمداد الفخر وهي درس بليغ يجب ان يتلى على مسمع من شغلتهم السفاسف القروسطية والتعصبات البالية عن انقاذ بلادهم من مراشف المستنزفين وبراثن المستعمرين

(سادساً) : اشتراك في المصلحة الاقتصادية وتماثل في المهن والحرف وما ينتظرها من ثمرات

(سابعاً) : «اشتراك في تقاليد عامة وفي ذكريات من آلام مرّت وانتصارات تمت وهي تبدو في الاغاني والاساطير والاسماء الغالية لشخصيات عظيمة تتجلى فيها ميزات الامة ومثلها العليا وكذلك في اسماء الامكنة المقدسة حيث الذكرى الوطنية العامة مدفونة في كعبة يحج اليها القوم» وقد قال الاستاذ (رمزي ميور) عن هذا العامل انهُ اقوى العوامل التي تسبك الافراد امة وانهُ لا يمكن الاستغناء عنهُ ، مما يدل على انهُ يرى الوطنية كما يراها سائر الكتّاب المحققين شعوراً داخلياً وقبضاً معنوياً وهذا ما سنزيده ايضاحاً في المقال الآتي

العوامل المعنوية
ووحدة الامم

﴿ الفن والوطنية ﴾ لا ادلّ على ان الوطنية شعور داخلي وفيض معنوي من التفاعل القائم بين الفن وحب الوطن ، فكم من وطنية خاملة ايقظتها عبقرية الشاعر وقومية ذابلة انعشتها ألحان المغنين ، وكم من فن ميت احيته الانتصارات في الحروب وادب صامت انطقته اعمال الابطال المجددين ، والفن من الاصل ميزة وطنية خاصة تتفرد بها الامة بل هو عصارتها والافراز الداخلي من غددها الصُم الذي يوقظ انتباهها الى نفسها وشعورها بحوزتها ، في حين تكون العلوم والمعارف وقفاً على جميع الشعوب ، فترى العامل الميكانيكي في الحجاز مثلاً يتلذذ بدرس السيارة وتفكيكها والاطلاع على سرها كما يتلذذ العامل في سويسرا ولكنهُ لا يرى لذةً في شعر السويسريين كما يراها ابناؤها . ذلك لان الفن نتيجة انفعالات الامة مما اصابها من الاختبارات الخاصة بها على ظهر سفينة الحياة ، فاذا كان البحر هادئاً كان الفن سهلاً سلس القياد والاّ كان هائجاً مضطرباً تتخللهُ الانقلابات والثورات ، فلا عجب والحالة هذه ان يكون كبار اهل الفن من كبار الوطنيين وذلك للمهمة الروحية التي يقومون بها من الافصاح عن الهواجس التي تجول في افئدة الامة التي ينتمون اليها . قال الاستاذ (باينندر) وتتوقف عظمة اهل الفن على طاقتهم ان يقدموا للمجتمع موضوعات طفحت بانفعالاتها انفسهم وان يشرحوها للقوم من وجهة نظرة الشريك المساهم لا من وجهة نظر المشاهد المحايد ، يعني اذا اراد الفنان والاديب ان يفصحا عن مواهبهما خير الافصاح فعليهما ان ينتخبا الموضوعات المعاصرة جهد الطاقة ، وهذا هو سر الفن جميعاً ، وعليهما ان يعرضاها من الوجهة الوطنية لان روح الامة تتطلب الافصاح والتجلي بطريقتها الخاصة واسلوبها الممتاز

وحدث لنا اننا لما كنا في الولايات المتحدة في سنة ١٩٢٤ دعينا الى حفلة اقامتها بعثة هندوكية في احد مسارح نيويورك وفيها شنف مسامعنا اعضاؤها بمنتخبات روحية من اغاني (الفيدا) الشعرية الجيدة مع رقص مقدس غاية في الاحكام كانت تتوسل به الراقصة الى الآلهة الهندوكيين ، وكان الى جانبي عين من اعيان الاميركيين الحريصين على العرب ونهضتهم فقال لي اذا كان عندكم فن من الفنون الجميلة فهاتوه الى هنا لانهُ يكون خير دعاية تبثونها لقضيتكم ولاظهار العرى المعنوية التي تربط افراد امتكم بعضهم ببعض وتدلون الاجانب بواسطته على ما في بلادكم من الذخيرة الروحية الادبية . فاذا كان هذا فعل الفن في ايقاظ اعجاب

الأجنبي بنا فما أحوجنا اليه في ايقاظ اعجابنا بأنفسنا — بوطننا وبجدودنا وبأوضاعنا وتاريخنا
ولما كانت الوطنية في الاصل كما قلنا شعوراً داخلياً متأصلاً في اعماق النفس فهي تحتاج الى الفنان ليفصح عنها ويبرزها بصورتها الفتانة وثوبها القشيب ، وهنا يتجلى فضل اللغة على النهضات الوطنية لانها هي المادة التي يستعين بها الفنانون من أهل الادب . وقد قال أهل التتبع من علماء فلسفة التاريخ ان الامة التي ليس لها شعراء وملحنون وكتاب متأججون وغيرهم من أهل الفن تموت سراعاً ما لم تحصل على ما يعادلهم بطرق اخرى
ونكون قد اغفلنا مسألة جوهرية في بحثنا هذا اذا نحن لم نشر هنا الى بعض المتحجرين منا ممن جعلوا ديدنهم محاربة الفن،وقد يتلمس لهم المرء بعض العذر عند ما كانت ستائر الجهل مسدولة على النهضات الحديثة في ديار الغرب والادوار الخطيرة التي مثلها الفن فيها ، ولكن ما عذرهم اليوم والامم تجمعهم شبكة وثيقة من ثقافة لايتعذر على أحد ان يحيط بمجملاتها . ثم ان هذه الحياة ثقيلة على الرجل الحساس مع كل هذه الفنون الخلابة ، فليت شعري ماذا يكون الحال لو نجح هؤلاء المتحجرون فجردونا منها ؟ ألا يصبح المجتمع حينئذٍ شبيهاً بحلقة درس عقيم او مجلس نواب جامد غلب على اعضائه النعاس ؟
﴿المجد والوطنية﴾ تزداد الامة تصلباً وتماسكاً بقدر ما كان لها من مجد غابر تمت اليه بأنسابها ، فالابطال المتقدمون من افرادها ممن دوخوا الممالك ومصروا الامصار ووطئوا بسنابك الخيل عروش الملوك هم النواة التي تجتمع حولها مشاعر الافراد وتتعاون بواسطتها عقولهم وتخضع لها ارادتهم . وكذلك شأن من كان لها من العلماء المبرزين والمخترعين المتفوقين والفنانين العبقريين وسائر الرجال من افرادها ممن تركوا وراءهم في المجتمع المادي والعقلي والروحي دوياً وأثاروا عاصفة من الدهشة والاعجاب ، وقد كان للخلفاء الراشدين في هذا المضمار ولمن اختاروا من اهل القيادة والزعامة من الأثر في تكوين العرب خاصة والمسلمين عامة ما لا يتطلع الدهر الى محوه . وكذلك الحال في تلك الشموس التي أنارت حندس الليل في القرون الوسطى بعلمها وأدبها وفنها من أبي الطيب المتنبي وابي العلاء المعري وابن رشد وابن تيمية الى ابن خلدون، ومما نورده من الامثلة الحديثة في العالم العربي على شأن الرجل العظيم في تكوين الأمم ان الملك فيصلاً أفاد الجامعة العربية ليس في حياته فقط بل بعد مماته ايضاً . فالمآتم التي اقيمت له في طول البلدان العربية وعرضها وعُددت فيها مناقبه والمثل الاعلى الذي وضعه نصب عينيه أثارت موجة من الانتباه الى القرابة بينها لم يشهد التاريخ مثلها منذ دهور
ولا مراء ان الحضارة العربية التي اسبطرت واخضرَّ عودها في الشام والاندلس ومصر والعراق والفتوحات التي طوقت اوربا من جانبيها الشرقي والغربي ما فتئت موضوع شعرائنا وكتابنا ورواد الاصلاح فينا منذ دبَّ فينا وعينا القومي . ذلك لأن تذكير الامم بمجدها

الغلو بصورة معقولة هو اشبه شيء بتوجيه نظر الفرد الى عظمة آبائه وجدوده يولد الأنفة واحترام النفس والابتعاد عن الذل والمسكنة

(الالم والوطنية) رأينا البلدان المغلوبة على امرها والخاضعة للمصالح الاجنبية والممصوصة بمراشف الاستعمار تشعر بالكثير من الاشتراك في العواطف التي تغلي في صدور ابنائها . فاذا كان وراء هذا العامل السلبي القائم على الكراهية والنفرة من المستثمرين الطفيليين عوامل اخرى ايجابية من العوامل الوطنية التي عرضنا لها ازداد تأثيره فكان من اكبر الدواعي الى توحيد الجبهة ، لا جرم اننا رأينا المحنة التي تعانيها فلسطين من وعد بلفور الجائر مثلاً تحدث في الاقطار العربية الاخرى استياء يبلغ حد المشاركة ، وكذلك الحال في الظهير البربري الذي اعلنته فرنسا في المغرب الأقصى لفصل البربر عن اخوانهم العرب ، وقد امتلأت الصحف السيارة بالاحتجاجات على المستعمرين من أجله وعقدت الاجتماعات في شتى البلدان لاظهار الصخب والسخط مما دلّنا على شدة التماسك بين أبناء العربية . ومما لحظه علماء الاجتماع ان الافراح المشتركة هي مثل الدواعي المؤدية الى الشعور بالمجد تسبغ على الوطنية حلة من الزهو والابهة في حين تلقي عليها الآلام المبرحة ستاراً حالكاً من نكد وغم وتنفث فيها ما دعاه الاستاذ (بايندر) شعوراً تصوفيًّا من حيرة واسرار ، ويصاب أهل الآلام بمرض الاكثار من التشكي قد يبلغ حدّ (الهستريا) في المرأة العصبية مع اقلال من العمل يجعل صاحبه في حكم المقعد ، ولحظنا في بعض الأحيان افراطاً عظيماً جدًّا في التشدق بالعظمة المدفونة تحت الثرى والتمدح بالماضي والافاضة في ذكر محامد الجدود حتى ضاق صدرنا كما يضيق صدر كل احد بالفقير الحافي الذي يجعل ديدنهُ في الحياة التغني بما كان « للمرحوم » جده من الأحذية ! وليس من مصلحة الأمة في شيء ان نجعل المثل الأعلى للنشء الحديث الرضى بالانتساب الى العظماء فقط

اننا نمجد الآباء والجدود ونبني على محامدهم الصحيحة وطنيتنا الناهضة ولكننا لن نعبدهم، ويكون فارغاً من كان خالياً من جميع المزايا الا ما يدعيه من كرم المحتد

ولعلّ الموسيقى العربية وما فيها من أنّات وآهات وبكاء واحزان ورجيع وحنين هي المدرهُ المعبر عن الالم المتأصل في شعوب العالم العربي ، وقد ينحط هذا التوجع في بعض المغنين حتى يصير تخنثاً ويفقد جميع اسباب الرجولة ، ولم يصب فننا الموسيقي بمصيبة اكبر من تلك البدعة المبتذلة الثقيلة المنمنة الباردة التي يكررها المغني في كل محفل وهي «ياليلي» فليت شعري متى يزول الظلام عن الافق فيلمع الشرق بنور الفجر ليصيح المغني «يا نهاري» والالم نافع ما بقي حافزاً للعمل منبهاً لعزة النفس ولكنهُ متى صار اداة للتسول والاستجداء والاستعطاف وعلامة على القنوط فهو حشرجة الصدر ساعة الموت . وقد بقيت الموسيقى

التركية الى السنين الاخيرة على هـذا النمط ولكن الانقلاب السياسي الخطير الذي تناول تركيا من بعد الحرب اخذ يحدث أثراً ظاهراً في ألحانها فلا يمضي زمن طويل حتى تتخللها اصوات شديدة تردد اصوات قمقمة السلاح في صقاريه وكوكصو ويتلألأ منها في صدور سامعيها لمعان ينعكس عن وميض سيوف الغازي وقنابله المتفجرة

وقد عاب الاستاذ (بايندر) على اهل البلدان الضعيفة المرهقة استعمالهم التورية والتمويه في كلامهم وتجنبهم الصراحة حتى في ابسط الامور فلو انك سألت الواحد منهم عن صحة زوجه او عن عمله او عن الحدث السياسي المنتظر اجابك جواباً مطلقاً من كل قيد وربما اصحبه باشارة ذات معنى او بهز الكتف . وبديهي ان مثل هـذا الموقف يحمل الظالم على حسبان المظلوم بليداً او غداراً في حين يتهم المظلومون اسيادهم بكل انواع الجناية ويميلون كما قال (نيتشه) الى التخلق باخلاق العبيد لحماية انفسهم وللاحتفاظ بالبقية الباقية من حرمتهم القومية(١)

وقد لحظنا شيئاً آخر في بعض بلدان العالم العربي غير ما اشار اليه الاستاذ (بايندر) وهو ما يدعو الى الاشمئزاز كثيراً ويستحق أصحابه الاستنكار الشديد لانه يطبع في نفس الاوربي فكرة سيئة عن المشتغلين بالقضايا العامة ، فقد اعتاد بعض ابناء البلاد انهم اذا ظهروا على المسرح امام الجمهور ابدوا من التطرف في الوطنية الشيء الكثير فهم لا يفاوضون مثلاً — اذا كان هنالك حديث مفاوضة — الا اذا التى الاجنبي بقضه وقضيضه في البحر ، ولكنهم متى خلوا بهذا الاجنبي نفسه اظهروا من اللين « والكياسة » ما كانوا يعدونه على المسرح خيانة عظمى في الآخرين ، فالخروف الذي رفضوه في الوليمة أمام المدعوين الآخرين بحجة قلة الغذاء والدسم قبلوا في الخلوة محله كسرة من الخبز ، ومثل هـذا الموقف المداجي المخزي يدعو المحتل الى تجنب الامة والطمع في الافراد يقوم بمساومتهم للحصول على ما يعتقد انه متعذر مع الشعب

﴿ الوطنية تعصب للوطن ﴾ نحن نعترف هنا بمنتهى الصراحة ان التربية الأممية الحرة وما يلازمها من نظرة سمحة عامة وعقيدة تعاونية مشتركة هي تربية لا تتفق والتعصب على انواعه في شيء — سواء في ذلك التعصب الديني والتعصب الجنسي والتعصب الوطني — ولو كانت الامم سمحة لا يفكر بعضها في استثمار بعض وتسخيره لغاياته الحقيرة لفقدت الوطنية ركناً من اعظم الأركان التي تعتمد عليها وهو ركن التعصب . وطالما قلنا ان التعصب الديني في القرون الوسطى كان السور الوحيد الذي يحمي ذمار الجماعات لان الرابطة الدينية كانت اساس ارتكازهم ومبنى حوزتهم وقد حلَّ محلها في القرون الحاضرة عند معظم الامم الراقية التعصب الوطني لان الوطنية اصبحت اساس هذا الارتكاز، فالوطنية بهذا المعنى اذن دين من الاديان .

(1) Major Social Problems p. 213

وقد تصدر من بعض كبار الوطنيين المتصفين بالعلم والنباهة والاخلاق اقوال وأعمال لتمجيد الوطن تكاد تكون في نظر العالم الحكيم السمح هزءًا وسخرية ولا تقل سخافة عن بعض الذين جعلوا دينهم في الحياة وصناعتهم في كسب المعاش الطعن المنكر في الاديان جميعها الاّ الدين الذي وجدوا عليه آباءهم عرضاً ، فمن ذلك ما كان يزعمه قادة السياسة البريطانية من ان الله ارسل انكلترا رحمةً للعالمين ، وكان الامبراطور غليوم يزعم انهُ مرسل من الله على رأس الامة الجرمانية لقيادة العالم ، وما حاربت امة امةً اخرى الاّ اعلنت على رؤوس الاشهاد يوم شهر الحرب ان الله انحاز الى جانبها ، ومن اعجب المظاهر الوطنية السخيفة ان كتب الفرنسيين في تاريخ العلم والأدب والسياسة تنسب كل اختراع او ابتكار او اكتشاف الى رجل من الفرنسيين حتى لو ان فرنسيًّا استبدل بتفاحة (نيوتن) رمانة مثلاً ما خجلوا ان ينسبوا اليهِ ناموس الجاذبية محتجين بأن الرمانة غير التفاحة ! وفي احد الكتب الجرمانية المنتشرة في الأيدي كثيراً عبارة مضحكة عن ميزة اللغة الألمانية وفضلها على غيرها ذكرها الاستاذ (باينندر) وهي « ان الفرنسي يقبع في كلامه كما يقبع الخنزير والانكليزي ينخر من انفه نخراً ولكن الجرماني هو الوحيد الذي يتكلم » وسئل احد المبشرين وهو يستعرض المعجزات والخوارق الواردة في الكتاب المقدس وما لها من الشأن في تأييد دينه عن كرامات الاولياء في الاسلام فقال هذه من عمل الشيطان وأما تلك فمن عمل الرحمن !

لقد رجعت الى نفسي وحللت عقيدتي في التعصب فوجدتها تنحو هذا النحو من الاستهجان وهذا ما يجب ان يتصف به كل من كانت له نزعة علمية مجردة عن الهوى ، بيد انني ويا للاسف مرغم على القول بمنتهى الصراحة ان التعصب الوطني قد يكون العلاج الوحيد الذي ينقذ امتنا من براثن عبدة المادة من المستعمرين المستنزفين ، وانني اصف هذا الدواء على مضض مني كما يصفه كل طبيب غيري يرى مثل هذا الخطر المهلك محدقاً بالمريض الذي يداويه . لا جرم ان الامم المغلوبة على امرها تبالغ في شأن لغتها وعاداتها وتعاليمها وعقائدها وأدبها وفنها وعلمها وجمال بلادها مبالغة تتجاوز المعقول في بعض الاحيان كما ذكرنا سابقاً وتنقب عن المستعمرين بعين مجهرية فتتذكر عيوبهم ومساويهم وتكرّه ابناءها بهم وبالروائح المنبعثة من اوضاعهم لان دواء الأفاعي في نظرها جَـمْـل الرجفة من منظر هذه الافاعي والخوف من انيابها غريزة طبيعية

وكانت كلمتا مؤمن وكافر في عصر التعصب الديني سبب رعشة عند الامم لما يحدث مدلولها في الاذهان من النفرة المستنكرة ، وسترغم الدول الاوربية المستعمرة اهل البلدان المقهورة على جعل كلمة افرنجي في نظرهم سبب رعشة ايضاً لانها تمثل في اذهانهم تلك المغارم والمظالم التي شهدناها بام العين فلا يحق لاحد ان يجادلهم او يجادلنا بها . والبغض المتوارث

يزداد شدة باستمرار الدواعي التي احدثته وينتهي بالانفجار الخطير عند حدوث الشرارة الاولى ﴿ القناعة الاقليمية خطر على الارتقاء ! ﴾ لقد أبدنا في هذه المقالات « الجامعة العربية » تأييداً كلياً وابتعدنا عن السياسة الاقليمية او الموضعية ابتعاداً كبيراً لسبب اجتماعي يعد في المقام الاول وذلك لما عرف عند علماء الاجتماع من ان الارتقاء يسير سيراً حثيثاً متى كان للافراد المتحدين وجهات نظر يختلف بعضها عن بعض ومميزات خاصة متباينة في حد ذاتها ولكنها لم تبلغ في تباينها هذا حد النفرة او ما يدعو الى التفتت بل هي مشدودة برباط الوطنية الوثيق ، فاذا ما طلبنا تنظيم الشعوب العربية وتقريبها بعضها من بعض فلا نعني ابداً اننا نريد طبع افرادها على غرار واحد بل نريد ان يترك للفرد فيها مجال تظهر فيه ميزاته الخاصة ضمن الوحدة العقلية الاجتماعية الشاملة ، والفرد الواحد لا يخرج عن دائرة الجمود التي يأسن فيها ولا يشعر بالحوافز التي تبعثهُ على الحركة والعمل الاّ بالاحتكاك بغيره ممن اختلفت مزاياهم وبرزت خصالهم ، فلو قدّر له ان يعيش دائماً بجانب من هم على شاكلته بحيث يطابقهم ويطابقونه حفراً وتنزيلاً لم يتغير ولم يتغيروا ، وهذا التباين الفردي هو سر الجلاء الذي يكتسبه اهل السياحات ممن يختلطون بالامم الاخرى ويمازجونها ؛ والميزات الفردية الخاصة التي تطبع صاحبها بطابعها الممتاز لا تتيسر الاّ في الامم الكبيرة ، فقد رأينا اهل القرية الصغيرة أكثر تشابهاً واتساقاً فيما بينهم من اهل المدينة الكبيرة لذلك كانوا اقرب الى الجمود والسير في الحياة على نمط واحد حقباً من الزمن

وهذا ما حمل كبار الوطنيين في الامم العظيمة الناشئة على محاربة السياسة الاقليمية وما تؤدي اليه من اقتصار على البقاع الموضعية ، ويكون من الضربة الاجتماعية قاصمة الظهر ان يقتصر زعماء البلدان العربية كل منهم على خدمة القطر المحلي الخاص الذي يعيش فيه ويغفل شأن الخصائص الموجودة في الاقطار الاخرى ، ولقد اصاب الاستاذ (بابندر) المحزّ حين قال « ليس للامم الصغرى او المظلومة حرمة مقدسة وسياستها سياسة وضيعة غالباً تكاد تكون على نسبة مساحة ارضها بالضبط والعطايا التي تتحف بها الانسانية هي مادّة لتسلية الامم الاخرى غالباً »[1] وقد حمله كرهه لمثل هذه الامم الصغيرة على التمسك بأهداب مذهب النشوء وتنازع البقاء وبقاء الانسب فلا رحمة في قلبه لمن ليس في طاقته ان يخلع بقوة ذراعه نير الاستعباد ، والضعيف محكوم عليه بالخضوع والتسخير سواء كان انساناً ام حيواناً ، لاجرم انه يأبى ان يمد يد المساعدة للمقعد الذي لم تنبت له اطراف يقوم عليها ، فليتذكر متسولو الاستقلال وشحاذو الحرية هذا الكلام اللاذع وهذه العبرة البالغة . ثم ان هذا التباين المعقول في الميزات الفردية لا يأتي بالثمرة المطلوبة من التقدم والارتقاء بحيث تتولد من الاحتكاك بين الافراد المتباينين

(1) Major Social Problems, p. 216.

شرارة النهضة الاّ اذا كان هنالك تربية وطنية تتحلى من اساسها بالتسامح الداخلي وسعة الصدر وبعد النظر بحيث تستطيع مع الزمن تعرّف الصالح والطالح من خصائص ابناء العشيرة

﴿ الارادة العامة والوطنية ﴾ وقد تجتمع عوامل التجانس التي ذكرناها جميعاً المادية منها والمعنوية ولكن الجماعة المزدانة بها لا تؤلف الوحدة المنشودة ، وذلك لفقد عامل اجتماعي خطير عليه المعول في توحيد الافراد وهذا العامل هو تنظيم هؤلاء الافراد في داخل الجماعة تنظيماً يجعل لهم رأياً عامّاً وارادة شاملة مرتكزة عليه ، فكل شعب مهما بلغت فيه عوامل التجانس من الظهور لا يحسب وحدة ما لم يفكر تفكيراً واحداً ويجزم جزماً واحداً ويرد ارادة واحدة — ولا عبرة بالشذوذ الذين خرجوا على الجماعة وانشقوا عن الدولة . ويجرنا هذا الكلام الى البحث في الزعامة وضرورة افراد باب لها لأن هذا التنظيم المعنوي الذي جعلناه اس الوحدة هو عمل الزعماء والسرّ الذي تبنى شخصيتهم عليه ، فحيث لا توجد زعامة صحيحة لا يوجد رأي عام خير ولا ارادة عامة صادقة



الزعامة وصفات الزعيم

الزعيم هو الفرد — من الرجال او النساء — الذي يجمع حوله عدداً من المريدين والانصار هم اهل لأن ينشد بواسطتهم غاية عامة ، وهذه الغاية في نظرهم جميعاً ذات شأن حيوي لهم وللمجتمع الذي يعيشون فيه . وبدهي ان مثل هذا التعريف يقتضي ان يكون ثمة اتصال وثيق بين الزعيم والخاصة من أنصاره في فهم هذه الغاية والاحاطة بجوهرها لان كل تنافر بهذا المعنى يوقف دولاب العمل وينتهي بالاخفاق. فوضع ابن سعود او الامام يحيى على رأس المحافظين او الاحرار في انكلترة هو من الأعمال المتنافرة مثل وضع المستر (بلدوين) او المستر (لويد جورج) على رأس الوهابية في نجد او الزيدية في اليمن . وقد يستطيع هذان ان يكيفا نفسيهما بحسب المحيط فيغيران ويبدلان في مظاهرهما الداخلية والخارجية ليطابقا الهيئة التي انتقلا اليها ولكن تنقصهما حينئذ العقيدة وهي من ألزم لوازم الزعيم وأهم شروط نجاحه . فالمتزعم الذى لا يؤمن بالقضية التي يتظاهر بخدمتها هو مثل المتنبيء الذي لا يؤمن بالدين الذي يدعو اليه واقل ما يتهم به التدجيل — والتدجيل والزعامة الصحيحة ضدان لا يلتقيان . على ان هذا الكلام لا يقتضي ان يكون الزعيم وسواد انصاره سواسية في فهم تلك الغاية بل قد يكون البون بينه وبينهم شاسعاً ، فجميع زعماء الشرق مثلاً ينشدون الاستقلال الناجز لبلادهم والشعوب من ورائهم ظهيرة ولكن نوع هذا الاستقلال والغايات الاجتماعية والسياسية والروحية التي يَمُنُّ بها على الناس تختلف كثيراً باختلاف التربية والمستوى العقلي والتهذيبي ، فكم رأينا من يظن ان مجرد اعلان الاستقلال هو الرجوع الى اوضاع القرون الوسطى بتفرعاتها جميعاً حتى ديوان التفتيش لمحاكمة الناس على عقائدهم الدينية .ويكفي ان يكون ثمة خطر يهدد الجماعة لتلتفّ حول من تعتقد ان في مقدوره ان يسير بها في طريق النجاة فتؤيده بقدر القوة الشخصية التي يزدان بها وبقدر شأن الخطر المتوقع . فلا غرو ان يظهر الزعيم على المسرح السياسي متى كانت الحاجة اليه ماسة كما تظهر البضاعة في السوق متى كان الطلب عليها حثيثاً

﴿ الوطنية والزعامة ﴾ : الوطنية هي في الاكثر مسألة الزعامة ، والزعيم هو مدره القوم المعبر عن رغبتهم وتتجلى صورتهم بثوبها القشيب في مرآته الصافية ، فلا بدَّ ان تكون حلقة الاتصال بينهُ وبينهم وثيقة كما قلنا والاّ لم يعد زعيماً لهم لان الذي يسبق الناس كثيراً او يقصر عنهم كثيراً يقطع اواصر الاتصال بهم، ولا خطر على الزعيم مِثلَ ان يتنزل في افكاره تنزلاً مفرطاً لاسترضاء الغوغاء واستجلاب الدهماء لانهُ يعرّض بذلك نفسهُ

لاستخفاف اهل الحل والعقد من العقلاء . على ان هذا الكلام لا يمنع الزعيم ان يكبح جماح تطرفهِ تجنباً لاحداث هوة بينه وبين سواد الشعب بميدة الفور ، بل رأينا جميع الزعماء السابقين لأ وانهم ارتضوا ان يخففوا من غلوائهم قليلاً ويقصروا من خطاهم ليسيروا امام الشعب وعلى اتصالٍ بهِ ، وشتان بين من يخفف خطاه لتستطيع العامة ان تلحق بهِ فتمشي وراءه وبين من يتقهقر فيمشي وراء العامة ! ولما كان الوطن صلة معنوية قائمة على التجانس فمن اوائل وظيفة الزعيم تقريب الناس بعضهم من بعض وازالة تلك الحواجز المصطنعة التي اقامتها المصالح البائدة بينهم من غير ان يفادي بشيء جوهري من شؤون القضية التي ترأس الناس من أجلها ، ولن تسمح الوطنية الحقة لمن اتخذوا من تلك الحواجز البالية جدراناً يؤلفون في داخلها الاقليات التي تهدد سلامة الدولة ان ينظموا حكومة خاصة ضمن الحكومة العامة

وتتكافأ التبعة الملقاة على عاتق الزعيم والخدمة العامة التي في مقدوره ان يسديها لامته . وكم سقطت شعوب وارتفعت اخرى بسبب ما لزعمائها من الخطايا والمزايا ، وقد تسير امة من الامم بخطى واسعة الى الامام فتصاب بموت زعيمها فجأة فتتراجع ، ويتحول انتصارها في ساحة الجهاد الى انكسار . ومن اعظم البلاء ان تلقى مقاليد الامور الى اناس قلت مواهبهم فتعوضوا من نقصهم الذاتي نسباً شريفاً يطنطنون به دائماً ويزعمون انه يغنيهم عن جميع الفضائل النفسية ، ومثل هذا النسب ولا سيما في الملوك يسهل على الطامح تسلم مقاليد الأمور . وقد قابل الاستاذ (بايندر) بهذا المعنى بين الامبراطور غليوم القليل المواهب وما جره على المانيا من النكبات وبين ابرهيم لنكولن رئيس الجمهورية الاميركية المعروف المتحلّي بأعظم المزايا وما اسبغهُ على الولايات المتحدة من النعم الضافية . وقد استطاع ذاك على قلة نبوغهِ ان يستولي على المانيا بانتسابه الى بيت (هوهنزولرن) اللامع والتصاقه بالمجد العريق الذي خلفهُ الملوك السابقون والسمعة الطيبة التي تركوها وراءهم فلم يكن عليهِ عسراً مع شيء من الذكاء والتآمر وحسن التنظيم ان يحل هذا المحل اللألاء من قلب الامة الالمانية النجيبة وان يستر عيوبه ويخفي نقائصه الى ان اظهرتها الحرب العالمية . في حين ان ابرهيم لنكولن لم يصل الى المقام الذي حله في عين امته الا بمواهبه الذاتية التي ازدان بها فهو الذي رفع عماد البيت الذي نشأ فيه وشرف الاسرة التي نزل من اصلابها . وهكذا نرى انهُ اذا كان على المرء ان يباشر عمله صعوداً من الذيل الى القمة فلا بد له ان يكون قوياً متحلياً بطول النفس الذي يمكنهُ من هذا الصعود ، ولكنهُ اذا باشر عمله بالعكس نزولاً من القمة الى الذيل فهو ليس بحاجة الى مثل هذه المزايا ويكفيه مظهرها فقط . ينظر العظامي دائماً الى الماضي ويتطلع الى الآباء والجدود فيزول منهُ الاستقلال والاعتماد على النفس بينما ينظر العصامي حواليه ليجد الوسائل النافعة والسبل المؤدية الى تحقيق اغراضه فتقوى عزيمته

ويشحذ ذهنه . لاجرم ان يكون الزعيم بعد ما قرع دهره وبزَّ خصومه مظهر لجهود متحدة ورأس القوة منظمة متجهة وهو المخل يرفع الاثقال مستمداً طاقته من ارادة الشعب ومستنداً الى عاتقه فاذا ما اخفق فقد يكون السبب واحداً من ثلاثة : شدة العقبة ، او ضعف الارادة العامة ، او سقم المخل نفسه ، وقد تجتمع هذه الاسباب كلها او بعضها

واذا شبهنا الزعيم بالمخل فلا نعني ابداً انهُ مجرد آلة بيد الشعب لرفع الاثقال بل هو آلة ممتازة بقوتها الذاتية المتفوقة وأثرها الباهر في جميع من اتصل بها . وقصارى القول يجب ان يتحلى الزعيم بالخصائص الآتية :

(اولاً) الايمان المطلق بالقضية التي يعالجها فلا يضمر في شأنها شيئاً ويظهر شيئاً آخر كما يعمل المنافقون ، ولا نعرف وضعاً من الاوضاع المقدسة اتخذه المنافقون مطية مثل وضع الدين ، وتأتي بعده الوطنية ، فبانتشارها وبدخولها في الصميم من قلوب الجماعات المضطهدة والمغلوبة على امرها ظهر على المسرح بعض المتزعمين المنافقين الدجالين ممن اتخذوها مطية فساوموا عليها وملأوا بطونهم من موائدها ومحافظهم من نضارها ، ولكن ليس من الصعب على المتتبع ان يفضح الدجل والنفاق لاننا وجدنا من ألزم لوازم الذي يقف موقف المرشد او المصلح او الزعيم من الناس ان يثير احترام الخلص من المتصلين بهِ مباشرة كزوجه واخوته مثلاً وان لم يعتقدوا بصحة دعوته ؛ لان الاخلاص للمبدأ والتفاني فيهِ يحمل المرء على احترام المتحلي به ولو كان خصماً فما بالك وهو القريب العزيز . وان رجلاً يعجز عن اكتساب الحرمة من اهل بيته والمتصلين به اتصالاً وثيقاً لقمين بان لا يكون محترماً في نفسه بالغاً ما بلغ من التظاهر بالخدمة العامة والتفاني في سبيل القوم . (ثانياً) ان يكون رأي الزعيم في المسائل التي تدور عليها قضية الشعب واضحاً كالشمس في رابعة النهار وكل ابهام في موقفه الاساسي يدعو الى اضطراب انصاره وحيرتهم ويتركهم عرضة للدعايات المناقضة والانحياز الى الآراء المخالفة . (ثالثاً) الثبات على المبدأ ، وهذا يقتضي ان يكون الزعيم بعيد النظر متحلياً بقوة العقل ومتسلحاً بالتربية الصحيحة وتحليل ما يطرأ من الطوارىء حتى لا يرتكب من الخطإ ما يضطره الى تغيير رأيه بصورة تلفت الانظار ، ولا يعني هذا الكلام ان الزعيم يجب ألاَّ يخطىء في آرائه ابداً ولا فيما يتوسل به من الوسائل فالخطأ يصح حتى على اكبر الزعماء والقواد اذا كان خطأ معقولاً واما الخطأ المنكر فهو البديهي الظاهر الذي لا يجوز ان يقع فيه العقلاء

والزعيم الذي لا يتمسك بعقيدته تمسك المؤمن بعقيدته الدينية المقدسة ويستعدُّ لبذل الغالي والرخيص في سبيلها يحرم من الثابتين على ولائهِ القائلين بقولهِ ، ويمكن خصومه من تدبير الحملات عليهِ ، ويكون التساهل في العقائد الاساسية التي هي محك النظر ومدار العمل.

تهلكة له ولمن يلوذ به . فالزعيم الاشتراكي الذي يحاول تمشية الحال مع الرأسمالي المحافظ المتطرف يكون مثله كمثل الداعية الى التنزيه والتوحيد المتساهل مع الشرك وعبادة الاصنام ! على ان التصافي بين المتنازعين والتسوية بين المتخالفين هما من الامور الواجبة في كثير من الاحيان — على شرط ألاّ تتناول الشؤون الجوهرية التي هي اصل المذهب ومبنى العقيدة

وعلى كل حال فاذا جاز للزعيم ان يغير رأيه مرّة في شأن من الشؤون المهمة — ولن يجوز ذلك في عقيدة من العقائد الجوهرية — فمن المحال ان يغيره مرتين اثنتين ويبقى محافظاً على سمعته ، فإن هذا الكلام من بعض المتزعمين الذين يلبسون لكل حالة لبوسها ويتقلبون في المبادىء الاساسية تقلب الحرباء ويدورون في العقائد الجوهرية دوران دواليب المطاحن مع الهواء !

ومما لاشك فيه ان عوارض تعرض وعقبات تطرأ تحتم على من بيده زمام المركبة ان يتجنب الصدمة ، ولا غبار على الزعيم في مثل هذه الاحوال والظروف والملابسات التي لا شأن لها في الاساسيات ان يتسامح ويتساهل لان الصلابة في الحق لا تعني العناد المقيم والانكسار على الصخر . ثم ان الكياسة شيء والتشدد الاعمى شيء آخر ، والفظاظة والغلاظة في الطباع تدعو الى الانفضاض من حول الزعماء ولو كانوا في مقام الانبياء ، بل اننا رأينا بعض الانصار من غلاظ الطبع سبب نكبة على الزعيم الذي يوالونه ، وقد يرجع الكثير من الحملات التي تحمل عليه الى الخصومة التي يخلقها في الناس هؤلاء الانصار والاتباع . وتطلق في الانجليزية كلمة Crank على المهووس الذي هو في عقيدته اقرب الى الخَوْلَع او المجنون في امر واحد وقد يردد الكلمة الدالة على هوسه كما يردد ذو الجنة الكلمة التي ارتكز عليها جنونه من غير ان يفكر فيها ، وهذا ممنوع على كل رجل متزن دع عنك الزعماء ، لان الجنون حتى في اعمى الامور لا يدل على رجحان عقل ، واذا جاز لبعض المعتوهين من اهل القرون الوسطى ان يلموا حولهم الانصار بترديد بعض الكلمات الجذابة المقدسة من غير ان يفقهوا معناها فزعامة مثل هذه لا تلم في عصرنا وهو عصر التحليل العقلي غير الحثالة من الناس

وكم رأينا في هذا الشرق من يطمع في الاستيلاء على عقول الناس وليس له من رأس مال سوى الصياح « فليحيي الوطن » ومن خطة سوى « القاء الاعداء بقضهم وقضيضهم في البحر قبل كل عمل » وغني عن البيان ان مثل هذه الخطة تجاه العدو القوي المتمكن لا تعني سوى الفوضوية السياسية وترك كل عمل يرجى من ورائه زحزحة الكابوس والخلاص منهُ تدريجيًّا

وعلى ذكر الخولع والمهووس نقول ان الاستاذ (باينر) قسم العقول الى ثلاثة نماذج فالنموذج الاول هو العقل الذي ليس في مقدوره ان يرى المسألة المعروضة الاّ من ناحية

واحدة فقط ، وهذا هو عقل الرجل البسيط السخيف الاحمق ، والنموذج الثاني هو العقل الذي في طاقته ان يرى ناحيتي المسألة ولكن بالتناوب والتتابع لا في وقت واحد ، والنموذج الثالث يرى النواحي كلها معاً فيزنها بالميزان ويقابل الواحدة منها بالاخرى قبل ان يصل الى حكم نهائي ثابت ، ويدعى هذا النموذج العقل الاستقرائي التأليفي وهو مما اتصف به جميع الزعماء العظام . قال (بايندر) وليس على الزعماء ان يصلوا الى حكم نهائي وثابت فقط بوزن كل وجه من وجوه المسائل ومقارنته بل عليهم ان يطبعوا حكمهم هذا في اهل النموذج الثاني بان يبينوا لهم ان المسألة يجب ان ترى من وجوهها كاملة في آن واحد ، وان يقنعوا اهل النموذج الاول بان القضايا لن تحل بالاقتصار على رؤيتها من جانب واحد . وما من امة لم تتحلَّ بهذا النمط من الزعماء استطاعت ان تعمل اعمالاً عظيمة خالدة

ثم لا بد للجماعة في مجموعها من نسبة كبيرة من اهل النموذج الثاني وهم ممن يخاطبون بالعقل وتسري عليهم الحجج المنطقية ، واما اهل النموذج الاول فانهم يستسلمون عادة من بعد المقاومة والاصرار على وجهة نظرهم ذلك لان براهينهم ليست من مواليد ادمغتهم بل مستعارة غالباً والمرجح انهم يقبلون البرهان الجديد في نهاية الامر على شرط ان يلقى في روعهم ان هذا البرهان انما هو الشيء الذي يدور في خلدهم ويدينون به . (رابعاً) ان يتحلى الزعيم بشخصية باهرة لها شيء من السحر العجيب في ما حولها من الانصار،ولن يتأتى ذلك في مثل هذا العصر الذي نعيش فيه الاّ بالتربية الصحيحة وما تحتاج اليه عادة من فصاحة وبلاغة وحسن بيان . ومقياس هذه التربية البيئة الذهنية التي يعيش فيها الزعيم فاذا كان الصرف والنحو والاعمال الاربعة وشيء من البيان والاصول والفقه كافياً ليتسلح به الرجل في نجد او اليمن فأن هذا السلاح لا يبهر احداً في مصر وسورية والعراق

وعند الاستاذ (بايندر) ان التربية المطلوبة في الزعماء تعني كبر العقل والاستعداد العام للتقدم وترك الحسن في سبيل الحصول على الاحسن . ولما كانت بعض الصناعات كالحقوق والكهنوت مثلاً تقاوم كل تغيير عادة لانها نشأت على اعتبار ما يقرره السلف مقدساً وكان معظم الحكام والزعماء الذين ظهروا على المسرح السياسي هم من اهل هاتين الطبقتين من الناس فلا غرو ان يزرعوا في ذهن المجتمع كلاً منشوداً لحواء ألاّ تغيير ولا تبديل للاوضاع القائمة ، ولما كانوا من اهل الطبقة التي تفردت بالتربية والثقافة غالباً لم يتعذر عليهم ان يطبعوا مقاييسهم الخلقية والاجتماعية في سواد الناس مما ادّى الى شيء من الخنوع وزوال الابتكار في الافراد . ان هذه المحافظة الضيقة تقتضي من الزعيم في القرن العشرين ان يكون مؤمناً بامكان التغيير قائماً بأن المجتمع الذي فيه قابل للتكامل والارتقاء وان لا شيء في العالم مقدسٌ الاّ اذا كان نافعاً للناس

(خامساً) التحلي بالشجاعة الادبية وهي رأس فضائل الزعيم وربما سترت فيهِ عيوباً كثيرة وعادلت بعض المزايا المهمة الناقصة فيهِ ، والشجاعة الادبية في الزعيم للدفاع عن الحق هي مثل شجاعة الجندي في ميدان القتال فكما ان هذا لا يكون اهلاً لحمل البندقية ومكافحة الاعداء الاّ اذا كان صنديداً كذلك ذاك لا يجوز له ان يرفع علم الوطنية ما لم يكن جريئاً في الدفاع عن حقوق الامة في ادق ساعاتها واخطر ازمانها . ولعل الوضوح الجليّ الذي طلبنا ان يكون في رأي الزعيم يرجع الى هذه الشجاعة الادبية لان الزعيم متى كان ضعيفاً في نفسه يحاول تجنب النزال والطعان بالتستر وراء الايهام والابهام والالتجاء الى التقيّة والمواربة

على ان امراً وحداً ليس من شأنهِ الاعلان عنهُ ابداً وهو الخطر المحدق بالامة متى كان ذكره يدعو الى القنوط ، فزرع الامل هو من اوجب الواجبات ، وكم من زعيم من اكبر الزعماء كان يضع في ساعة الخطر الشديد وسائل النجاة في ذهن الشعب امراً سهل التناول قابل التطبيق . والرجل الذي لا يؤمن بقوة الارادة العامة على ازالة الموانع والعقبات ينقصهُ عنصر جوهري من عناصر الزعامة ، ولولا الامل بالنجاح لبطلت وسائل الكفاح



الثورة

اذا ضاق بك ثوبك وأصبح خلقاً أكلت جدّته الايام وذهبت برونقه الطبيعة فزقته وخلعته عن جسدك والقيته في الأرض فأنت في شرعة الألبسة ثائر ، ولك في عالم الحياة الطبيعية أشباه ونظائر فان بعض الحشرات تنمو في غطاء قرني قاس الى ان يضيق بها فتمزقه بانتفاضة فجائية وتخلعه عن بدنها ثم تعود فتفرز غطاء آخر أوسع منهُ ولكنها تنمو ثانية في هذا الثوب الجديد حتى يصير ضيقاً فتخلعهُ كالاول لتكتسي بأوسع منهُ وهكذا تتبدل ثوباً من ثوب الى ان تبلغ رشدها ، وليس كابوس الاوضاع الاجتماعية السياسية والدينية والاخلاقية والاقتصادية متى ضاقت أو هرمت أقل ارهاقاً واضناءً من هذا الثوب أو الغطاء

حدث لي في حدود سنة ١٩٢٨ ان زارني في مصر صحفي من خيرة أبنائنا في الولايات المتحدة وهو الاستاذ حبيب كاتبه فأخذ مني حديثاً لينشره في أميركا عن سورية وحالتها الحاضرة فتطرقنا الى ذكر الثورة السورية الكبرى وأسبابها ودواعيها فرأيت منهُ شيئاً من الوجوم والتردد في ذكرها أو تدوينها فسألتهُ فقال « ان في الولايات المتحدة نفرة منكرة من الثورات جميعها ومن ذكرها وليس من المبالغة في شيء ان أقول لك يكاد يكون (غاندي) معبود الاميركيين لانهُ لا يتوسل الى اغراضهُ بالعنف والشدة » . وغني عن البيان ان مثل هذا الكلام الذي تفضل بهِ الصديق يدل على الذهنية التي يكون عليها الآمن فينسى كيف يكون الخائف، والشبعان فينسى كيف يكون الجوعان ، والحمين فينسى كيف يكون المهدد . فاميركا كانت يوم جرى هذا الحديث تتمتع برأس مال ورخاء ونفوذ لا تشق غباره سائر الدول وهي الدولة الدائنة واوربا المدينة ، وكانت الأموال الأجنبية تتدفق على أسواقها لشراء أسهمها ومحصولاتها والاشتراك في المشروعات الصناعية القائمة في بلادها بينما كانت سورية على شفا الهاوية تتجرد من أموالها ورجالها وتهدد في صميم حياتها وقوميتها ولا يكاد يبلغ الصادر منها الخمس من الوارد اليها ، فلا عجب ان تكون سورية ثائرة وأميركا راضية وان ينفر أبناء هـذه من سماع أحاديث تلك عن الثورات والانقلابات لان الذي يتمتع بالصحة لا يشعر بآلام المرضى . وفي التاريخ ان الملكة ماري انتوانت لما أتاها الشعب المتظلم يشكو فقد الخبز استغربت فقالت لِمَ لا تأكلون الكعك ؟ !

ومن العجيب ان اخواننا الاميركيين الذين ينفرون اليوم من سماع أحاديث الثورات طلباً للحرية والاستقلال كانوا أول من ثار للخلاص من حكم الانكليز مع أنهم أهلهم وعشيرتهم ، وأول

من سنّ قاعدة لاضرائب من غير تمثيل ، ولا يقل اعجابهم بواشنطن واخوانه الميامين من رجال الثورة عن اعجاب الفرنسيين بجان جاك روسو ومن وضع نظرياته في الثورة الفرنسية موضع العمل . وقد رأيت في الاميركيين نفرة خاصة من تلك العادة الصينية الهمجية وهي وضع أرجل البنات في قالب لضغطها وابقائها صغيرة ضمن نطاق من الحديد فكانوا يثيرون شعور التلاميذ الصينيين لتحطيم هذه العادة ورضخ هذه القوالب الضيقة حتى تتمكن الارجل من النموّ الطبيعي ، أفليس عجباً أن يدعوا الى الثورة العلنية دفاعاً عن حجز حرية الارجل وينفروا من الثورة للدفاع عن حرية الجماجم ؟ وهل قالب من الحديد في الارجل طوله وعرضه ووزنه يقاس بالقراريط والدراهم أثقل على الطبع من مدرعة منيخة على الرؤوس طولها وعرضها ووزنها يقاس بمئات الاذرع وألوف القناطير ؟

ولندع الآن المشاعر التي لا ضابط لها وأسباب الحب والبغض القائمة على الاوهام ولنلق نظرة عامة على ما يجري تحت سمعنا وبصرنا في البيئات البسيطة وبين الجماعات الساذجة لان درس الاوضاع في مثل هذه الاحوال يزوّدنا بالملاحظات القيمة

منذ نحو عشر سنوات غزت قبائل نجد بلاد الحجاز وكانت الدعاية التي أثارت الحماسة في هذه القبائل ان أهل الحجاز مشركون مرتدون لأنهم يزورون القبور ويعظمون القباب ويرتكبون من الجرائم المنكرة تدخين التبغ وغير ذلك فبدأت الغارة على مدينة الطائف شنّها الوهابيون فقتلوا النساء والرجال والاطفال وكان من بين القتلى شيوخ شهد الجميع بحرمتهم والعلوم النقلية التي امتازوا بها ، ولكن الغزاة المتشددين المتحمسين لم يرحموا أحداً لان المرتدين في نظرهم ليس لهم أمان ولا تجوز عليهم الرحمة ولا الشفقة ، ومن بعد ما فتحوا البلاد قبضوا على ناصية الحكم فيها بيد حديدية وطبقوا اجتهادهم الديني عليها تطبيقاً دقيقاً فمنعوا زيارة قبور الاولياء وهدموا القباب ودرسوا معالم الآثار وحتموا على الافراد حضور صلاة الجماعة خمس مرات في اليوم فمن تغيب لغير ما عذر نفذت فيه الحدود ومن وجد يحمل لفافة تبغ سيق الى السجن ، أما الفنون الجميلة فقد أصيب الغناء منها خاصة بأعظم الاضطهاد حتى أن مفاتح المقول منع استيرادها منعاً باتاً ومن وجدت في بيته كسرت على رأسه ، ولولا حكمة الملك عبد العزيز بن سعود لقطع علماء نجد اسلاك الهاتف لانها في حسابهم بدعة من عمل الشيطان ، وقد افنعهم بخطئهم في الاجتهاد ان اسمعهم آيات الذكر الحكيم بالتلفون ، واجتماعها هي والشياطين على صعيد واحد مستحيل طبعاً

فلنفرض الآن يا معاشر الغربيين عامّة والاميركيين منكم خاصة ان افراداً من اهل الطائف تعلموا في مدارسكم على الطريقة الحديثة فغضبوا للدماء المهراقة ولم يصبروا على هدم الآثار وحمل الناس على عقيدة خاصة بالقوة وكانوا ممن أولعوا بالفن وقدروا قيمته الاجتماعية فحاولوا

١٣٠

بواسطة التنظيم وبث الدعاية وجمع القوى المتفرقة احداث انقلاب كائنة ما كانت الوسائل المؤدية الى تنفيذه فهل تصمون آذانكم ايضاً عن سماع صياحهم ؟ ام حدوث مثل هذه الفتنة بسبب التعاليم التي تبثونها في بلاد الشرق يرضيكم عن القائمين بها ؟ وليثق اعداء الانتقاض على الغرب واصدقاء الفتنة في بلاد الشرق ان الوضعة التي عليها الأقوام المستعمرة لا تختلف عن الوضعة التي عليهـا اهل الطائف الا في ان الغزاة في الاستعمار اجانب وهمهم الاول استثمار المال واستنزاف الثروة الموضعية واحتكار المرافق على انواعها، واذا ما التفتوا الى شيء من العقيدة والدين فانما يلتفتون الى ما يزرع بذور التفرقة بين الاهلين ويقوي الدواعي المؤدية الى التنافر والتناحر في افرادهم. ومهما قيل عن الربح المادي في الغزوة الوهابية فان الغاية عند مؤسس المذهب هي على التحقيق مثل الغاية في الاسلام معنوية روحية اخلاقية. ولا عبرة مطلقاً بما يدعيه المحتل المستعمر من انه جاء البلاد للأخذ بناصر اهلها وتدريبهم على المدنية وتشجيعهم على الاخذ بأسباب النجاح لأن في افريقيا الشمالية وفي سورية الرد الملجم على مثل هذه الدعاوي الباطلة

«الثورة» «متى كان الشعب مستاءً متنكراً انتهز الفرصة الملائمة فثار في وجه الحكومة» هذه صفوة آراء الكتّاب في القرن السابع عشر في اسباب الثورة ودواعيها، وقد ايدت العلوم السياسية والاقتصادية والاجتماعية هذا الرأي تأييداً كليًّا ولكنها اضافت اليه عظة بالغة وحكمة جامعة فحواها ان الحكومة التي لا تتصل بالشعب اتصالاً وثيقاً يمكنها من فهم الحالة الذهنية التي هو عليها تكون عرضة للثورة والانتقاض. فقد حدثت مثل هذه الثورة لما كان السلطان عبد الحميد يرتع في قصر (يلدز) لاهياً بين الحظايا غافلاً عما يغلي في صدور الرعية من مراجل النقمة ولا يصل الى يده من الاحاديث والأخبار الا ما جادت به قرائح الجواسيس الوقادة. وحدثت مثل هذه الثورة ولكن على عيار اوسع وبدماء اغزر وبانقلاب ابعد مدى لا يعلم نتائجه العالمية احد وذلك لما كان القيصر نقولا الثاني واهل بلاطه يقيمون حاجزاً كثيفاً بينهم وبين الشعب الفقير المتظلم المستعبد ويسدون آذانهم دون صراخ الاحرار في اعماق السجون ومجاهل سيبريا وهم في بهجة ورخاء يستمعون لخزعبلات (راسبوتين) ويحتمون بتمائم القديسين والتعاويذ من الشياطين والادعية من الدجالين المقربين. وعلى مثل هذا الاساس يجوز للقارىء ان يبني رأيه في تفسير الثورة العراقية في سنة ١٩٢٠ يوم كانت دفة السفينة في الرافدين بأيدي رجال من الجيش لا يفقهون الشيء الكثير من الادارة الملكية وما تتطلبه كما قالت (المس بل) من حسن اصغاء الى الرغائب الشعبية الجوهرية. وما الانقلاب الخطير الذي حدث في هذا القطر العربي منذ ذلك الحين الا شاهد عدل كيف يكون ارضاء الشعب في شؤونه الحيوية واستيفاؤه من مطالبه الاساسية مدعاة الى هدوئه وانتشار الوية السلام

في ربوعه . ولو حصل في فلسطين مثلما حصل في العراق من مراعاة السيادة العربية ما تلطخت سمعة بريطانيا السياسية الى هذا الحد ولا حدثت تلك الثورات المحلية . وقس بالثورة العراقية الثورة السورية الكبرى

ومن اهم شروط الثائر في نجاح دعوته الى الانتقاض ألاّ يكتفي بما يرى في الحكومة من منكر واعوجاج بل يتحتم عليه ان يقنع الشعب ايضاً ويستميل اليه الرأي العام استجماعاً للقوى فيقف الجميع جبهة واحدة والاّ ضاعت الجهود عبثاً ولم تثمر الثورة غير الانقلاب المؤقت ، لان الشعب اذا لم يشعر بالمظالم شعوراً صادقاً كانت حركته اقرب الى البرودة والتصنع. ومع اثارة روح الاستياء وزرع بذور الامل لا بدّ ايضاً من تعيين الهدف امام الرماة حتى تجتمع نبالهم فلا تتفرق من غير طائل ، والدهماء من الناس كما قال احد الاجتماعيين يعرفون الشيء الذي لا يريدون واما الشيء الذي يجب ان يريدوا فيتوقف على الزعماء المفكرين — يعني ان سواد الشعب سلبي في غايته والسلبية المجردة لا تأتي بغير الخراب فاذا ما اريد الانتفاع بسيل السلبية الجارف فلا بدّ من وضع الآلة الايجابية عليه وتركيبها بحيث تأخذ من قوة الجريان اعظم قدر مستطاع . وتكون هذه الآلة من صنع الزعيم والخاصّة من العاملين . وقد قلنا عن الغاية التي ينشدها الزعماء لا يجوز ان تكون من مسارح الخيال الشعري المجرد لا تقبل التطبيق ولكنها كذلك لا يجوز ان تكون مبتذلة حقيرة تجعل اصحابها والقائلين بها صغاراً حتى في نظر انفسهم . فطلب دولة عربية مركزية كبرى في الآونة الحاضرة تمتد من الخليج فارس الى بحر الظلمات لا يختلف عن الاقتصار على حكومة تقام في جبل العلويين حياتها ومماتها بجرة قلم من المندوب السامي . الاول خيال يليق بقصص الف ليلة وليلة والثاني اهانة لدم الشهداء الذين ذهبوا الى المشانق باسم القضية العربية العامّة

على ان الاستياء المجرد وتعيين الهدف لا يضمنان الحركة الاّ على شرط واحد هو الامل بالحصول على الاصلاح المنشود لان العبث شبيه بانتطاح الصخر يدعو الى الشلل والقنوط . ومما ارويه بهذه المناسبة عن ثورتنا السورية الكبرى ان بعض الموظفين الاجانب المسؤولين في بيروت حاولوا ان يدفعوا تبعة الاضطراب في البلاد عن عاتقهم باتهام الحكومة الانكليزية بأنها سبب تلك الثورة وان دسائسها وذهبها يلعبان بعقول الثوار ، ولكن فاتهم ان هذه التهمة وان اوجدت لهم بعض الانصار المصدقين في باريس الاّ انها زادت في الحريق لهباً وساعدت العاملين السوريين في ميادين الثورة اذ أخمدت انفاس النافخين في ابواق القنوط من جهة وشددت عزائم الفاترين من جهة اخرى بما توهموه من حرص الانكليز واهتمامهم بالقضية السورية العربية مرة اخرى

وقد سبق لمثل هذه الدعاية ان اثرت اثرها في سورية ايضاً بطريقة احيت الهمم الخامدة ،

فقد حدث في ابريل سنة ١٩٢٢ ان زار (المستر كرين) دمشق الشام على حين غرة — والمستر كرين هو رئيس اللجنة الاميركية التي امت تلك البلاد في صيف سنة ١٩١٩ لاستفتاء اهلها في مصيرهم — فاتخذ العاملون من هذه الزيارة فرصة سانحة ليوهموا الناس ان عناية الولايات المتحدة بقضيتهم قد تجددت وان لهذه الزيارة مغزى سياسياً ذا قيمة دولية خطيرة ، فانتعشت القلوب من بعد تلك الصدمة القاسية التي لاقتها من دخول الجنرال غورو وجيوشه عاصمة الامويين قهراً وضربه الغرامات على الاهلين وتوزيعه الجنود السنغاليين على البيوت ، فتجمهر الخلق على سيارة (المستر كرين) وورائها حين وداعه متظاهرين بشكل ازعج المحتلين كثيراً وآل الى ثورة محلية سفكت فيها الدماء وامتلأت منها السجون ، ولولا وميض من الأمل برق في الافق السياسي يومئذٍ لتأخر فجر النهضة كثيراً

﴿الثورة والديموقراطية الصحيحة﴾ دلّ التتبع على ان الدول التي رسخت قدمها في الطريقة النيابية فاصبحت ديموقراطية حقاً كالدولة البريطانية لا تجد الثورات فيها مرتعاً خصيباً ، وذلك لا لانها مبرأة من كل عيب بعيدة عن مواقع الزلل ولا يشعر ابناؤها بشيء من الغبن الفاحش وخيبة الامل بل لان طريقتهم النيابية الراسخة تمكنهم كما قلنا في الفصول السابقة من الخلاص من هذه الحكومة بطرق الانتخاب القانونية ومن غير التجاء الى العنف والشدة ، ولعل ذلك اعظم ميزة تتحلى بها الطريقة الديموقراطية الصحيحة الموفقة . ومعظم ما قيل من قبل عن غير ذلك من الميزات دلت الوقائع على انهُ فاسد غالباً

واما تلك الدول التي لم ترسخ لهـا قدم في الاصول النيابية كمعظم جمهوريات اميركا المتوسطة واميركا الجنوبية فالدستور فيها يكون بيد الحكومة المتسلطة أُلعوبة تفسره وتنسخه وتمسخه كما يتراءى لها من غير خوف ولا وجل لأن الشعب الذي يجب ان يقوم هذا الدستور على قوته المادية والمعنوية هو شعب لم يختمر له رأي عام ولم تنتظم له ارادة حازمة

ولا يعني هذا الكلام ابداً ان الشعب متى استاء من الحكومة ثار في وجهها وقلبها دائماً بل ان للحكومة من الاجهزة ولاسيما في ايامنا هذه ما يمكنها من منع بوادر الثورة او من قمعها متى وقعت ، ولكن قمع الثورة شيء وقمع الأفكار شيء آخر — تستطيع الحكومة بقوة الحديد والنار ان تمنع هيئة وطنية اخرى ان تحل محلها مهما تذرعت هذه الهيئة بزرع الآمال الوهاجة والاحلام الذهبية البراقة ولكنها لن تستطيع ان تصادم سيل الافكار المستجدة ولا سيما متى كانت مبنية على العلم الصحيح والتجربة المضبوطة ومتفقة مع المصلحة والعاطفة ، فمثل هذا السيل جارف لا تقف في وجهه السدود بالغة ما بلغت من الثخانة والاحكام

وذكر الاستاذ (كونارد جل) ان الفلاحين والعمال المحجوزين في قفص من جهل وفقر لا يثورون في وجه اسيادهم ما لم يكونوا قد تعلموا ان في طاقتهم الوصول الى غرضهم

بالثورة ، فما يستوقف الانظار ان الفلاحين الفرنسيين الذين ثاروا في سنة ١٧٨٩ كانوا اخف حملا من غيرهم من الفلاحين في بعض البلدان الاوربية الاخرى وهؤلاء لم يتوسلوا بشيء لتحرير انفسهم ، لكن الفرنسيين كانوا قد فقهوا شيئاً من الديموقراطية مجهولاً عند غيرهم حفزهم الى العمل ، ولا تقوم ثورة من الثورات ما لم يختمر في عقول الناس حلم او أمل بتحسن في الحياة — او على الاقل تقدير بما يحسب تحسناً فيها — مما يعد هذه العقول للانقلاب المنشود ، والامل لا الخوف هو الذي يحدث الثورات المتكللة بالنجاح (١)

﴿ التنظيم ﴾ الاستياء والامل والغاية التي يضعها الزعيم نصب العيون هي عوامل ثلاثة جوهرية في حدوث الثورات ولكنها لا تحقق الغرض وتأتي بالانقلاب المنشود الا متى دخلت فيها يد التنظيم ، فلتحقيق الثورة لا بد من ايد قوية مارست امزجة الناس وعرفت كيف تستولي على لبهم وتدير دفة السفينة التي يركبونها . وجميع الانقلابات الخطيرة التي قامت في العالم انما قامت بالتنظيم على كف الزعامة القوية . وغني عن البيان ان القوة التي نشير اليها هنا ليست قوة الابدان اذ ليس من الضروري ان يكون الزعيم مصارعاً ، ولا شدة الصياح وانتفاخ الاوداج فالسوقة من أهل الشوارع يمارسونها ويجيدونها خيراً منه ، وانما نريد العقلية الروحية التي ترفع المتحلي بها على هام الرجال . وعلى قدر هذه القوة في الزعامة يكون النجاح في المقاومة

ثم ان الحكومة التي يترتب على الثورة ان تزحزحها عن العرش تتمتع بقوة الجيش في البر والاسطول في البحر واسراب الطائرات في الجو وسائر ما استحدث من آلات الهلاك والدمار على عيار واسع ، وفي قبضة يدها المحاكم والسجون والمرافق الاقتصادية وما يضاف الى ذلك من حثالات نفعيين مأجورين واذناب لا هم لهم الا ان يسبحوا بحمدها آناء الليل واطراف النهار ولو خرب الوطن والساكنوه ونضبت منابع الحياة فيه ، فلا بد للزعامة والحالة هذه من جمع شتات القوى الناشئة عن الاستياء وتنظيمها بحيث يكون في مقدورها ملاقاة هذا العدد العديد المتحصن وزحزحته عن مكانه

هذه هي العوامل بالاجمال من ناحية زعماء الثورة والقائلين بقولهم فإلى أي حد تستطيع الحكومة يا ترى أن تقاومها ؟ وليس الجواب عن ذلك متعذراً اذ قد جرت في الشرق الاوسط ثورات متنوعة تزود الباحث بالاجوبة المقنعة، فحيثما كان الشعب حياً نشيطاً شاعراً بظلاماته مدركاً الغرض الذي ينشده عارفاً رجاله بعيداً عن التوسخ بالاراذل المنحطين ومنظماً تنظيماً يوحد جهوده ويجمل الضربة التي يكيلها تنزل على الرأس المقصود في الساعة المعينة ولا يفسح مجالاً للدجالين الصفقاء ان يندسوا بين أفراده وكانت الحكومة جبانة ضعيفة لا سلطة لها على الجيش والاسطول وسائر منابع القوة وكانت يابسة لا تلين للمقتضيات

الوضاعة الملجئة التي استجدت فالنتيجة الانقلاب السياسي حتماً . بل قد لا تكون الامة على الشيء الكثير من تلك الشمائل ولكن خصمها الجالس على منصة الحكم فيها يكون ضعيفاً جباناً غير مزود بغير الملاحظات التي تزيد وساوسه فتقع الواقعة ويتم الانقلاب بين عشية وضحاها كما حدث في المملكة العثمانية سنة ١٩٠٨ ، فان ثورة محلية دبرها افراد من الجيش في الروملي وكبر من شأنها بعض صغار الموظفين في البرق والبريد فجازت على السلطان عبد الحميد وقواده وانتهت بانقلاب سياسي غاية في الابداع، وزحزحت كابوساً من كوابيس الاستبداد تربع على صدر الامة عشرات السنين فكاد يقطع الانفاس ،وثلت عرشاً من العروش تحكم في رقاب العباد فعلّم الناس الذلّ وعوّدهم الصغار

***

وفي درس الثورة العربية الكبرى والبحث عن اسباب هبوبها وخمودها والنتائج التي تولدت عنها ما ينطبق على هذه الملاحظات التي قدمناها ، فقد ألمعنا الى الانقلاب العثماني في سنة ١٩٠٨ وكان من أهم عواقبه ان اتجه الرأي العام بين فتيان الترك الى تتريك سائر العناصر في الدولة العثمانية خشية ان تتغلب هذه العناصر في آخر الامر على الترك أنفسهم . ولحظ رجال العرب في الاستانة منذ تلك الايام الاولى المبادىء التي يسير عليها مصطفى كمال باشا اليوم من اضطهاد العربية وقطع الصلة بثقافتها وهذا أدّى بطبيعة الحال الى ايقاظ القومية العربية من سباتها العميق وانتباه العرب الى حوزتهم المادية والمعنوية ، فعدّ الترك هذا العمل خروجاً على الدولة وانشقاقاً عنهم حتى اذا اعلنت الحرب العالمية انتهزوها فرصة فأرسلوا الى سورية وهي دماغ النهضة العربية المفكر طاغيتهم احمد جمال باشا وزبانيته ومن انضم اليهم من المأجورين فأتوا في البلدان العربية من الاعمال ما يعيد الى الخاطر ذكريات جنكيز خان وهولاكو خان وتيمورلنك فنصبت المشانق وسيق اليها رجالات العرب الافذاذ باحكام مزورة مصطنعة حتى ان احد الاعلام المرحوم عبد الوهاب بك المليحي كان الحكم الذي صدر عليه بالموت انهُ لا يحب الدولة — يعني يحكم على الناس بالموت والحياة بمجرد الحب والبغض على طريقة ديوان التفتيش في القرون الوسطى !

فأثارت هذه المظالم والمغارم بما بثهُ الزعماء من دعاية استنكاراً عامًّا لان الدم الزكي المهراق كالشاشة الحمراء بيد المستفزين اللاعبين في المنطح يهيج الثيران ويدفعها الى الغضب. أضف الى هذه الجنايات السياسية اعمال الموظفين ولا سيما رجال العسكرية منهم وما كانوا يحدثونهُ في الرعية من المنكرات باسم اعانة الجيش ولو بجمع زجاجات (الكولونيا) وغيرها من العطور . ولم تعدم مثل هذه الفرص السياسية دولة تنتهزها فتكشف عن ساقيها البضتين الناعمتين وتلوّح للعرب بذيلها الحريري الفتان فتفتح في خيالهم أبواب جنة طالما حلموا بها

وظنوا فيها السعادة المنشودة ، وقد عاب على العرب بعض المتنطعين قبولهم المعونة التي عرضتها عليهم الدولة البريطانية وفاتهم ان ظلم السفاحين من الاتحاديين بلغ بالناس درجة ان لو نادتهم دولة (هايتي) او قبائل (نيام نيام) للبوها وهرولوا اليها فما بالك والملوّح اعظم دولة على وجه الارض — هي انكلترة مليكة البحار وقارون المال

اما عيوب الثورة العربية الكبرى فهي كبيرة على نسبتها . فمنها ان الزعامة على ما تحلّت به من وطنية صادقة وعزيمة ثابتة كانت عتيقة بالية في تصوراتها ووسائلها « حميدية » في نزعتها طافحة بالكبرياء على غير اساس تكاد تكون فكرتها ابتدائية ، ومنها ان الرأي العام كان لا يزال في كثير من الانحاء تحت كابوس الفلسفة التي اناخت بكلكلها على عقول القرون الوسطى ، فكان الناس يتأثرون بكلمة خلافة وامامة اكثر مما يتأثرون بكلمة وطن وشعب ، ومنها نقص التربية السياسية .. ومنها .. ومنها .ولكن على التحقيق اعظمها فقد التنظيم بين ابنائها فكانت مقاومتهم للسفاحين اشبه شيء بالاعمال الانعكاسية الفطرية ليس للرأي فيها كبير شأن ، ولم تتجاوز في عيارها الهبّات الموضعية المتقطعة فكانت اذا اشتعلت في جهة بفعل المهيجين لا يعدم الاتحاديون من يساعدهم على اخمادها من ابناء البلاد انفسهم في جهة اخرى ، وقد بقيت بعض الاقطار العربية متعلقة بأهدابهم واهداب خلافتهم الى النفس الاخير وذلك لا قنوطاً من عقلية الملك حسين واستيحاشاً من فوضى البدو وخوفاً من طمعهم الاشعبي الذي لا حدّ له ، او تعمقاً في فهم الخطط الاستعمارية التي تتهددهم من الغرب واحاطة بدسائس الافرنج بل خضوعاً لنظريات عتيقة انقبرت مع القرون الوسطى وزالت بزوال السلطة الاكليريكية السياسية

ومما اذكر هنا من غرائبها ان نحو ثلاثة آلاف اسير من ابناء العراق الاقحاح كانوا اسرى في (سمربور) من بلاد الهند فبث بعض الضباط العرب بينهم فكرة القومية العربية والجهاد في سبيل الاوطان لانقاذ اخوانهم من مظالم جمال باشا في سورية وخليل باشا في العراق فقبلوا الانضمام الى الثورة وفيما هم على الطريق انبث بينهم بعض الافراد المستتركين ففتنوهم عن قوميتهم ولفتوهم عن وطنهم فلما وصلوا الى (جدة) ونزلوا الى البر يتأهبون للذهاب الى ميادين الجهاد نكصوا على اعقابهم فجأة وصاحوا بأعلى اصواتهم يحيون السلطان في القسطنطينية بقولهم « پادشاهم چوق ياشا » فليت (كمال اتاتورك) مطلق العربية والاسلامية والشرقية يصغي الى صياح العرب هذا فيترفق بالبقية الباقية من ابناء الخلفاء العثمانيين واحفادهم ويدفع عنهم وصمة التشرد وذل الحاجة

وهذه الثورة السورية التي اندلع لهيبها في سنة ١٩٢٥ قد اتت من اعمال البطولة ما يسجل لسورية بمداد الفخر لكن البطولة شيء والتنظيم شيء آخر ، فقد الجأتنا سيرة الكابتن

في بيروت الى انتهاز الفرصة المبتسمة (كاربيه) في جبل الدروز وخفة الجنرال (سراي) في بيروت الى انتهاز الفرصة المبتسمة
(كاربيه) في جبل الدروز وخفة الجنرال (سراي) في بيروت الى انتهاز الفرصة المبتسمة
من السخط الناشىء عنهما فباشرنا العمل وخضنا غمار الثورة قبل ان يتم تأليف (حزب
الشعب) ويتم لنا تأليفه تنظيم البلاد من اولها الى آخرها حتى اذا اقتضت الحال ان نضرب
ضربتنا شددنا المطرقة وارخيناها على التوالي بالاوامر المنظمة لتقع الضربة على الرأس المقصود،
فكان اسراعنا الاضطراري هذا سبباً لحرمان الوطن من اقتطاف ثمار جهوده بما يتكافأ
مع البذل الغالي الذي بذله بالمال وبالرجال ، ذلك لان سورية ويا للاسف لم تثر كلها بل الذي
ثار جزء صغير منها وفي اوقات متقطعة

﴿الثورة وقابلية الشعوب لها﴾ وتقسم الاقوام بالنسبة الى الثورة كما قال الاستاذ (كونارد جل)
الى درجات ، فالدرجة الاولى وهي احطها قوم يأكلون الصفع على رؤوسهم وتشن عليهم الغارات
في عقر دورهم ويساقون الى الذل والصغار من مخاطمهم فلا تبدر منهم بادرة بالتذمر بل
تجدهم فرحين بالنير على اعناقهم فرح السيد الحر بالانطلاق حتى ان الذي يستعبدهم لا يرى
حاجة الى استرضائهم بأكثر من الوظائف الحقيرة يمن بها على رجالهم وكسر الخبز يقدمها لابنائهم
وابتسامات الغدر يظهرها لبناتهم ، وهؤلاء كما قال الاستاذ قد بلغوا من الانحطاط انهم
لن يثوروا

و (الدرجة الثانية) قوم حازوا المقدار الكافي من الامل والنشاط للاقدام على الثورة
وعرفوا ان لهم حوزة مادية ومعنوية لا قيام لهم الا بالدفاع عنها والتعلق بأهدابها فثاروا
لكنهم غلبوا على امرهم وقهروا في الميدان فما عليهم الا ان ينتظروا سنوح فرصة اخرى ملائمة
وهذه الفرصة قادمة حتماً اذا هم تذرعوا بالصبر واحتفظوا بقواهم الحيوية

و (الدرجة الثالثة) قوم عرفوا كيف تؤكل الكتف فنظموا ثورتهم واختاروا خير
الاوقات لاعلانها فنجحوا في تنفيذها وفازوا بتحقيق غاياتها وتمكن الشعب من بعدها
ان يسير في الحياة على السبل التي تسير عليها الامم الحية المستقلة

وثمة درجة رابعة هي في نظر الاستاذ ارقى الدرجات واكملها وهي قائمة على التدرج في
الانقلاب والتحول بالطريقة السلمية المجردة من العنف والشدة . وفي وسع الباحث ان
يتصور ان مثل هذه الدرجة هي في حيز الامكان في الشعوب المستقلة ذات التربية السياسية
السمحة في داخليتها الآمنة على حوزتها من التعدي الخارجي الذي يهددها في اقدس مقومات
حياتها واما المستعمرات والمحميات والممتلكات على الطريقة التي رأيناها او سمعنا بها فانتظار
خلاصها بالطريقة النشوئية التدرجية الهادئة معناه منح القوة المحتلة الفرصة المديدة
لامتصاصها وعنبلها . والنجار مهما كان جاهلاً ومنشاره كليلاً فتى منحته الزمن الكافي
فهو واصل الى قطع الدجرة حتماً

ولا مراء أن الحصول على الانقلاب المنشود بالطريقة السلمية — متى كان ممكناً — لا يرغب عنهُ الى الطريقة الثورية الاّ الاحمق ، وهل يترك السهل ويسلك الوعر الاّ مضطر ألجأتهُ الحوادث الى ركوب متن الخطر ؟

ودلّ التتبع في الشؤون الحاضرة على ان معظم الاعتراضات على الثورة كتب في تقبيح الانتقاض على الانظمة الاجتماعية والاقتصادية التي خضعت لها الجمعية البشرية حتى الآن ، وفازت الثورة الشيوعية من هـذه الاعتراضات بالنصيب الاوفر ، فقد حمل عليها النقّاد في بعض البلدان حملة شعواء منكرة تنفيراً للخلق منها ومن زعمائها والقائلين بها ، ونمقت هذه الانتقادات وحبّرت بصورة خاصة في البلدان المتطرفة في رأس ماليتها مما سنبينهُ في ما يلي :

الاعتراضات على الثورة

يرى أهل التتبع التاريخي ان الثائر نوعان اثنان ثائر تحلى بالميزات التي تجعله فوق البيئة التي يعيش فيها وهو مع ذلك ليس منها بالمكانة التي تمكنهُ من العمل النافذ فيها ، وثائر تلطخ بالمعايب والادران التي تجعله دون هذه البيئة ولكنه يطمع ان يحصل بواسطة الثورة على ما يحسبهُ حقـاً له ضائعاً . ومن خير من استوفى هذه الاعتراضات حقها الكاتب الاميركي المعروف في العالم الاسلامي المستر (لوثر وب ستودارد) في كتابه «الثورة على المدنية» فقد سمى النوع الاول من الثوار « الرجل الاعلى » وهو في نظره فرد متفوق ممتاز بما تحلى بهِ من الخصائص ولكنهُ ويا للاسف مضلّـل مخدوع . وسمى النوع الثاني «الرجل الادنى » وهو فرد ليس فيه من بواعث الاحترام والتجلة باعث . قال (ستودارد) فالرجل الاعلى المخدوع هو ظاهرة من الظواهر الغريبة فقد وضعته الطبيعة في مقدمة المدنية وأحلتهُ في الصدر منها الاّ انهُ انضمّ الى اعدائهـا ، ويلوح للقـارىء ان مثل هذا الموقف الغريب لا يحتمل التعليل ولكن ذلك خطأ فالرجل الادنى من المدنية يثور عليهـا لانها ارفع منهُ كما ان الرجل الاعلى يثور عليها لانه أعلى منهـا ، يفعل ذلك اذا ما داخله القنوط من تقدمهـا البطيء وغشيته الرعشة من اخطائها المتكررة ، ومتى ما زعم ان العوامل الباعثة في قلوب الناس على العمل هي ذات العوامل النبيلة السامية التي تجيش في صدره فان أحلامه الذهبية النبيلة الهائمة بطلب الكمال تختصر لها طريقاً قريباً تقطعه الى عصر السعادة المنشود فتنضمّ الى القوى الاجتماعية الثائرة من غير ان تعلم ان غايات هذه القوى تختلف عن غاياتها اختلافاً جوهريّـاً وانهما اتفقتا في الذرائع بعض الاتفاق . وربما كان الرجل الاعلى المخدوع اعظم شخصية محزنة في التاريخ تثير العطف ، فاننا نراه وقد وقع في مأزق الاشرار الاوغاد المبيتين واصبح أداة لتجويز

الخطط المشؤومة وارتفع على الاعناق في أوائل الانقلاب باعتباره زعيماً لا يلبث أن يصل به فوز الثورة ونجاحها الى نهاية فاجعة . وهو عندما يتولاه الذعر من رؤية التوحش عارياً يحاول ان يوقف سيله الجارف ولكنه عبثاً يحاول ، فيصول عليه الرجل الادنى مزمجراً من بعد ما اتخذه درعاً يحتمي بها ويلقيها في الوحل تحت قدميه ، ولكن هذا الرجل الادنى ان عاجلاً أو آجلاً يغلب على أمره فتستجد الضوابط الاخلاقية ويستقر النظام الاجتماعي مرة اخرى ولكنه أي نوع من النظام الاجتماعي يا ترى ؟ فقد يكون هذا الجديد أحط من القديم.

ولا شك انها نادرة تلك الثورات التي هي شر محض ، فطبيعتها الهدامة نفسها تنطوي على معنى ازالة المساوىء القديمة المنتشرة وجرفها للخلاص منها ، ولكن ما هو الثمن ؟ هو الثمن المقوم بالدم الغالي الذي يسفك في الثورة وبالتدمير والهلاك ، وليس ثمة طريقة ذات تكاليف باهظة مرعبة مثل الثورة ، فالخسائر الاجتماعية والانسانية الناشئة عنها مخيفة عادة وكثيراً ما يستحيل تداركها واصلاحها

وفي الفرصة القصيرة التي تسنح للرجل الادنى نجده يعمل عمله ويشفي غلته غير ملتفت الى العواقب مهما كانت خطيرة . أما وهو لا يكره المدنية فقط بل يكره المتمدنين انفسهم ايضاً فتراه يوجه جنونه ويلقي جام غضبه على الافراد كما يلقيه على الاوضاع ، ويكون الرجال الاعلون المتفوقون هدفه الخاص . وفلسفته المستولية على لبه في فهم الحياة هي بالاختصار المساواة دائماً وهو يسعى لتحقيقها بقطع جميع الرؤوس البارزة التي ترتفع عن رأسه ارتفاعاً بيناً . وقد تكون نتيجة هذا « الانتخاب الاجتماعي المعكوس » نقصاً فادحاً في الرجال المتفوقين بحيث يصاب الجنس البشري بفقر في الافراد دائم كما اصيبت اوربا عقب ديوان التفتيش الديني فيصبح عاجزاً عن تزويد المجتمع بالموهبة والنشاط الضروريين لاصلاح ما خربته يد الثورة ، وتكون المدنية قد اصيبت في مثل هذه الاحوال بالضربة القاضية فتتدنى الى أحط مما كانت عليه بصورة دائمة

هذه خلاصة رأي (لوثر وب ستودارد) ومن قال بقوله في الثورات مما ينطبق على الثورة الفرنسية اجمالاً والثورة الشيوعية خاصة ، وفيها ولا شك من الحقائق ما لا يماري فيه أحد ، غير ان هذه الثورات السياسية الاجتماعية الداخلية نوع والثورات لرفع النير الاجنبي الخارجي وانقاذ البلاد من ربقة الاستعمار نوع آخر. واننا ليس في وسعنا ان نتصور أحداً بالغاً ما بلغ من بيع وجدانه وايجار عقيدته يجرؤ على الحط من قدر تلك الجهود الجبارة التي يقوم بها المظلومون للخلاص من ظالميهم ، واذا صح قول (بورك) ان في كل ثورة شيئاً من الشر فلم لا يصح قولنا يا ترى ان في كل ثورة شيئاً من الخير ؟

على ان اعجابنا بالثورة الوطنية واشادتنا بالبطولة القومية لا يمنعاننا أن نعترف هنا ببعض

عيوب للثورة اختبرناها بأنفسنا ورأينا نتائجها بأم العين وهي تحتاج الى الايضاح . فقد يندس بين الرجال العاملين افراد لا قيمة لهم في ميزان الرجولة والاخلاق يتظاهرون بالحرص على المصلحة العامة اكثر منهم وبالبذل في سبيلها اعظم من بذلهم وهم ينقصهم كل شيء من ميزات « الرجل الاعلى » الا الطموح الذي لا ينتهي بهم عند حد ، بل رأينا اسوأ من ذلك ، رأينا الخادم الرقيع العامي في تصوراته المتبذل في حركاته وسكناته ، الذي لا يكاد يؤلف جملة صحيحة التركيب والذي ينخر جمجمته مرض الخُنْزُوانية أو (المجالومانيا) ويُقرّح لسانه مرض البذاءة أو (الكوبرولاليا) لا يحجم أن يحشر نفسه بين العاملين من مجاهدين وعلماء وحكماء وحضوره مجالسهم ، وقد يغضون الطرف عنه خشية سفهه وقلة أدبه ، وفاتهم أن السكوت عن السفه هو مثل الصدقة في غير موضعها تشجيع للاشرار وان ترك الحبل على غارب أمثاله هو فتح المجال لمن يدنس بسوء سمعته ويلطخ بقذارته الاوساط الوطنية التي يجب ان تبقى مقدسة . وغني عن البيان ان الذين هم على هذا النمط هم الذين حملوا الكاتب العبقري الكبير (صموئيل جونسون) على القول « ان الوطنية هي الملجأ الاخير للرجل السافل »(١)

اننا نعترف ان هذا كله عيب في الثورة ولكن ماذا يضير النهضة العظيمة ان يندس فيها الضعفاء ؟ ألم يتظاهر المنافقون في صدر الاسلام بالدخول في الاسلام ؟ وماذا يعيب الشمس ان يشاهد الناظر على وجهها سفعاً اذا كانت هذه السفع لا تحول دون بثها حرارتها المحيية وارسالها أشعتها اللامعة ؟ ثم ان ظهور الطفح على الجلد في بعض الحوادث التي يعطى فيها المصل الشافي من الامراض الخطيرة لا يمنع الطبيب الحاذق من استعمال المصل الواقي من الدفتريا مثلاً

ويضاف الى ما تقدم ان بعض الوصوليين المستفرصين النفعيين الخالين من جميع الوسائل التي تمكنهم من الحصول على الكسب بالطرق المشروعة الشريفة يجدون في الثورة باباً للرزق فينضمون الى صفوفها ولا يزالون ينفخون في نارها ما دامت مصالحهم مضمونة غير مبالين بالمصلحة العامة التي من اجلها اعلنت الثورة ، وشر من هؤلاء على التحقيق قوم يجعلون انفسهم وسطاء بين الثوار والسلطة العاتية لا لمصلحة البلاد وتقريبها من غايتها السامية بل لضمان مقاعد يجلسون عليها ومصالح خاصة يقبضون على ناصيتها وهكذا لا يتعففون ان يتخذوا من اشلاء شهداء الوطن سماداً لاراضيهم ومن دمائهم رياً لبساتينهم

اما اولئك الذين يتحينون اخفاق الثورة للنيل من كرامة الثوار واقصائهم عن حظيرة الوطن فليس في المعجم الذي تعلمناه مفردات تدل على التدني الاخلاقي الذي بلغوه

(١) "Patriotism is the last refuge of a scoundrel." (Remarks, by Samuel Johnson

ومن الاعتراضات التي يوجهها انصار التدرج السلمي الدائم الى الثورة انها تؤدي عادة الى الرجعى ورد الفعل وبرهانهم على ذلك ان ما من حكومة تقف عثرة في سبيل التقدم الا قاومت بالشدة كل انقلاب ، بيد انها اذا لم تبلغ من القوة شأواً يمكنها من سحق الثورة واخماد انفاسها فان عاقبة المقاومة التي تبديها تكون اضرام نار الحقد والقسوة في قلوب الثائرين واخراج الامر من يد المعتدلين والمتئدين الى المتطرفين المتعجلين . ففي اوائل الثورة الفرنسية مثلاً كانت الاضطرابات قليلة غير ان اعلان ملوك اوربا الحرب على فرانسة ادّى الى ظهور حزب « الجيرونديين » الخياليين على مسرح السياسة الفرنسية اولا ، ثم ظهور « اليعقوبيين » القساة الشرسين بعدهم مما كان السبب الاكبر في احداث عصر « الهول » المشهور . بل ان انهيار النظام القائم كافٍ وحده لتخويل اشرس الزعماء الشعبيين اعظم فرصة للاستبداد حتى لو لم تكن ثمت مقاومة محسوسة من الحكومة السابقة . اضف الى شراسة هؤلاءِ الزعماء الحافلة بانواع التحدي ان المصانع والمتاجر في ابّان الشدائد والاهوال تقف فتقل البضائع وترتفع الاسعار ويلوح شبح المجاعة على الآفاق ، وقد لا تؤثر هذه الشدائد في الزعماء القابضين على ناصية الحال ولكنها شديدة الاثر في الدهماء ، فالبؤس والاضطراب والتقلقل تفعل فيهم فعلاً كريهاً لان معظمهم يتوقع من الحكومة ان يتمتع بالأمن والنظام علاوة على سائر تلك الخدمات المطلوبة منها . لا جرم ان هؤلاءِ الدهماء ينقلبون على نافخي بوق الاضطراب ومسببي الاهوال فتنبت الرُجعى وينشط رد الفعل من عقاله ويأخذ الرجعيون في تنظيم امرهم حتى ينالوا التأييد الكافي فتهب ريحهم الصرصر على الثورة وزعمائها فتكتسح من تكتسحه ولا يلبث الموظفون القدماء المطرودون ان يعودوا الى مناصبهم ويعتلوا عروشهم مرة اخرى

***

الى هنا نحن نجاري خصوم الثورة فيما نقلناه عنهم ونعتقد ان براهينهم تنطبق في الاكثر على الازمنة الماضية وعلى الثورات التي ادار دفتها ضعفاء العزيمة قليلو الثقة بانفسهم وبالعاملين معهم امثال (كرنسكي) في روسيا ولكن متى كان على رأس العمل اناس من اهل الحزم والعزم قد قنعت البابهم بوجوب انقاذ امتهم من الصغار ولعنة الاستعمار امثال (جورج واشنطن) في الماضي و(دي ڤاليرا) و (مصطفى اتاتورك) في الحاضر ، او اناس رأوها ينخرها سوس الشقاق الداخلي والمذاهب السياسية البالية امثال (موسوليني) و (هتلر) او اناس آمنوا بالاصلاح العالمي الذي يجلبهُ مذهبهم ويؤدي اليهِ انقلابهم امثال (لنين) و (تروتسكي) فدسائس الظالمين المستكبرين ، وخزعبلات القياصرة والسلاطين ، وشعوذات الدجالين لا تغني فتيلاً

الثورة والتطور العضوي

مهما حاول الكتّاب اظهار البون الشاسع بين الجسم الحيواني او الكتلة العضوية وبين المجتمع الانساني او الجمعية البشرية فان في التشابه بينهما ما يفتق الذهن ويؤدي الى ادق الاستنتاجات الصحيحة . فمن ذلك ان (دارون) بعد ما وضع مذهبه في النشوء والترقي ونشره في الاوساط العلمية ترجحت فكرة النمو البطيء عند علماء الحياة حتى صاروا يزعمون ان كل تدرج انما يتم بتغيير بطيء يطرأ على الكتلة العضوية نباتية كانت ام حيوانية في حقبة من الزمن تحسب بالوف السنين الى ان يتمّ هذا التغيير فيصير ملموساً يؤدي الوظيفة الحيوية المستحدثة التي يتطلبها المحيط الجديد . فاذا صح ان الجمعية البشرية كتلة عضوية او جسم حيواني كما يذهب اهل النظر البيولوجي من الاجتماعيين تنطبق عليه قواعد الحياة فان كل تغيير فيها يحتاج على هذا القياس الى الوف السنين كي يصير ملموساً لذلك تكون الثورة بهذا المعنى ليست عبثاً فقط بل غير ممكنة لان الطفرة كما كانوا يقولون الى اجل قريب محال. ولكن الطفرة صارت في علم الحياة قاعدة من قواعد العلم وما كان محالاً بالامس اصبح لازماً اليوم لان التتبع الدقيق دلّ على ظاهرة في علم الحيوان والنبات من اهم الظواهر وهي حدوث ما يدعى Mutation اي التحول الفجائي وهذا هو الطفرة بعينها وتعريفها ان يحدث في النسل الطبيعي المعتاد من حين الى آخر ولادة مخلوق يختلف عن جنسه في صفة او اكثر اختلافاً عظيماً بيّناً ثم اذا ما توالد هذا المخلوق العجيب يحفظ في نسله تلك الصفات التي ظهرت فيه فجأة . ويجوز لنا ان نعبر عن هذا الحادث الحيوي المفاجىء بالعبارة الاجتماعية السياسية الآتية وهي حدوث ثورة في بناء سلالة هذا المخلوق حوّلتهُ فجأة من حال الى حال

والآن فاذا كانت الجمعية البشرية جسماً حيوانيًّا تنطبق عليهِ قواعد الحياة الاساسية فالثورة فيهِ ليست جائزة فقط بل ضرورية ايضاً لان البيولوجيين كما قلنا يعتدّون بالتغير الفجائي وهو الطفرة كما يعتدون بالتغير البطيء . وكما يحدث الانتقال الفجائي في السلالة من ولادة مولود جديد ذي خصائص مغايرة لسلفه ينقلها بالتوالد الى خلفه، كذلك يحدث الانقلاب الاجتماعي الفجائي من حدوث ثورة تقلب النظام رأساً على عقب وتحتفظ بالتغير الطارىء وتنقله للاجيال القادمة . وعلى لنين وتروتسكي وستالين وكمال اتاتورك وعصمت ان يزوّدوا علمَ السياسة والاجتماع بتجاربهم الثورية الدالة على امكان الطفرة وان الرجعى بالمعنى العلمي مهما كانت عظيمة لن تعود بالروس والترك الى ما يشبه عهد القياصرة من آل رومانوف والخلفاء من بني عثمان

وفي مقدمة البراهين التي يوردها اعداء الثورة والقائلون بعقمها البرهان المأخوذ من الثورة الفرنسية في القرن الثامن عشر، فان الفرنسيين في نظر هؤلاء النقاد قد عادوا الى الشيء

الكثير مما سفك الثوار دماءهم للخلاص منه والقضاء عليه ، ولكن فاتهم ان المبادىء التي اعلنتها تلك الثورة للخلاص من الظالمين على انواعهم تعمل اليوم كالسحر حتى في البلدان الخاضعة للحكم الفرنسي نفسه ، والوطنيون في المستعمرات ينظرون بلهفة وشوق الى انهيار النظام السياسي الجائر المتصرف في اموالهم وارواحهم واقدس مقدساتهم نظرهم الى انهيار (الباستيل) في اليوم الرابع عشر من يوليو سنة ١٧٨٩ ناهيك بتلك الآراء التي بثتها الثورة في كل دولة حية وسلطتها على كل قلب شاعر من ابطال تلك الامتيازات الجائرة التي كانت تتمتع بها الطبقات العظامية وتحقيق حرية اللسان وحرية القلم وحرية الوجدان وتأييد ارادة الشعب . اما اذا اخفقت الثورة في عاجلها وآجلها ولم تأت بالنتيجة الطيبة التي توقعها منها الزعماء فقد تكون العلة كل العلة في الامة نفسها لان الامة اذا كانت عقيمة فقد يضيع سيل ثورتها الغزير في رمالها القاحلة ، والزعيم مهما كان عظيماً يعجز عن احياء الميت من الجماعات كما يعجز الطبيب مهما كان حاذقاً عن احياء الميت من الافراد

***

ومن الاعتراضات التي يوردها اعداء الثورة قولهم ان كل انقلاب تحدثه الثورة بالعنف يمكن الحصول عليه بالطرق السلمية وذلك بمجرد قرار يصدر في مجلس النواب او بتعديل طفيف في دستور البلاد لذلك تكون الشدة وما احدثته من دمار وسفك دماء فضلة زائدة ما اغنى الناس عنها . ولعمري ان في هذا البرهان شيئاً من الوجاهة والحق في البلدان التي تتمتع باستقلالها ولها رأي عام خبير يبدو على ألسنة نوابها المنتخبين انتخاباً حراً وأما حيث يكون الشعب اداة مسخرة لاقرار مطالب الغالب ، وارادته تنمحي بجرة قلم يجرها الحاكم الاجنبي ، او حيث تكون الامة طبقتين اثنتين طبقة الاقلية من الغالبين الانانيين النفعيين الذين استعانوا بالتقاليد العتيقة المحرمة والعقائد التي من شأنها اماتة الطموح واطفاء شعلة النبوغ كما كان الحال في زمن السلطان عبد الحميد في الدولة العثمانية ، وطبقة الاكثرية من المحرومين المسخرين عمالاً حقيرين عند اسيادهم حيث — تكون حالة الشعب كما وصفنا فربما كانت الثورة السبيل الوحيد للنجاة .

ويقول خصوم الثورة ان الثورة مهما عظمت وبلغت من الشدة فليس في وسعها ان تغير الشعب نفسه وانما تغير الدستور والحكومة فقط وهذا كلام يجب ان نتلقاه باحتراس شديد لان تاريخ الانقلاب لا يطابق هذه النظرية دائماً فالاسلام مثلاً كان من بعض الوجوه ثورة دينية اجتماعية سياسية وهو يختلف عن كثير من الاديان الاخرى بميزة جوهرية من الطراز الاول وهذه الميزة هي سرعة انتشاره والانقلاب العملي الذي احدثه ، ومهما تعنت المحافظون من علماء الاجتماع وبالغوا في قيمة التغير البطيء فليس في وسعهم ان ينكروا ان

قصور كسرى وقيصر لم تدكّ فقط بل تغير الناس الذين كانوا يترددون اليها ايضاً في نحو جيل من الزمن

وغير نكير ان بعض العنعنات والتقاليد القديمة بقيت في المملكة الاسلامية الحديثة ولكن نسبتها الى ما استجد وطرأ نسبة ضئيلة على رغم المتظاهرين بالدين الجديد من الشعوبية المضمرين في الباطن البغضاء للعرب والحقد على ابطالهم . وأقل ما يقال في الثورة الآن انها تجربة في مخبر المجتمع البشري ومن التعصب الاحمق ان يحكم المرء على بطلانها قبل التحقق من نتائجها

***

وقد قيل لنا ان الخطأ الاكبر الذي يرتكبه دعاة الثورة انهم لا يفرقون بين الشعب وبين النظام الذي يسير عليه هذا الشعب زاعمين ان مجرد استنان السنة الصالحة يجعل الشعب صالحاً وان المجتمع يمكن دفعه الى الامام برفسة واحدة من الوراء وان التتبع التاريخي دلهم على ان الشريعة متى كانت ارقي من الرأي العام في الشعب لا يمكن تطبيقها وفي الطاقة جعل الشريعة موافقة للرأي العام ولائقة به ولكن ليس في الطاقة عكس ذلك اي جعل الرأي العام على غرار الشريعة ومطابقاً لها، ويذكرون ان السبب الذي يجعل الرأي العام قليل التأثر بتغير الحكومات هو سبب عميق متأصل في طبيعة الانسان ومرتبط بما للعادة من سلطان عليه نافذ بحيث يحول هذا السلطان دون التغيير الفجائي لان كل تقدم في المدنية محسوس ينطوي على تغير في الاخلاق والعادات والتقاليد والمعارف والنظرات وهذا جميعاً لا يتيسر بقفزة واحدة . وأوردوا من البراهين على ذلك ان سن الانظمة الجديدة لا يصير الكسالى مجتهدين ولا النفعيين ايثاريين ولا الجهلاء من حملة العلم ولا الخشناء من اهل التهذيب ولا من نخر اخلاقهم سوس الفساد اعمدة الاصلاح ، وان التغيير الذي يتطلب من الخصائص في الشعب والمزايا في افراده ما هو فوق طاقتهم وأعلى مما يتصفون به ويحملونه في نفوسهم محكوم عليه بالاخفاق

اننا لا ننكر أبداً ان في هذا الاعتراض شيئاً من الحق وجيهاً ولكنه في الاكثر حق ينطبق على الاعصر التي انقضت لا على العصر الذي نعيش فيه وذلك لان وسائل النشر والاقناع وتغيير العقائد وطرائق التعليم وبث الدعايات والمواصلات المعنوية والمادية بانواعها اصبحت الآن من السهولة والتمكن والنفوذ بحيث يتعذر على ارباب المصالح الرجعية ان يسبلوا ستائر اغراضهم على الابصار او ان يضعوا الكمائم في الافواه ليحولوا دون الصياح بالحق ، ولا شك ابداً في ان تطبيق القانون السويسري في الاحوال الشخصية في تركيا الحديثة مثلا هو ثورة شرعية تمت بين عشية وضحاها واذا دام (اتاتورك) قابضاً على ناصية الحال مدة وجيزة من الزمن اخرى فسيتعود الجيل القديم بهذه السرعة الفائقة الزواج الموحد والطلاق المعدل مرغماً، وأما الجيل الجديد فيعد هذه الشرعة المبتدعة تراثاً من الآباء والجدود

وهكذا ينتقل الترك في سنوات معلودة في وضع الزواج — وهو وضع محافظ — انتقالاً اقل ما يقال فيه انه ثورة اجتماعية

من المؤسف جداً ان شجرة الحرية كما قال (توملس جفرسون) يجب ان تنتعش من حين الى آخر بدم الوطنيين والمستبدين وان هذا الدم هو سمادها الطبيعي، ولو فكر الذين يطمعون في استعباد الاقوام واستثمارها ان الجماعات اشد حرصاً على حريتها من الافراد وان الرق الحديث — رق الشعوب والاقوام الراقية — هو اشنع من رق الافراد واضر بمصالح المجتمع واشد خطراً على الحضارة التقلقل الدائم الذي يحدثه فيها ما كانوا اندفعوا في هذه البسطة السياسية المحفوفة بالمهالك

وعلى كل حال فالرجل المتحلي بالشجاعة في البلدان التي تنوء بالمظالم لاتستطيع القوة الغاشمة بالغة ما بلغت من الجور والعسف ان تكممه عن الافصاح عما يجول في نفسه من الهواجس والافكار وعن الثورة التي تضطرم في فؤاده على الاوضاع التي تغله وتغل قومه وتقف عقبة في سبيلهم ، وفي طاقته ان ينادي كما نادينا في اواخر الشهر الماضي في القاهرة في احدى الحفلات فيقول : « ارتفعي يا بنادق ، وقعقعي يا حراب ، وفرقعي يا قنابل ، واهدري عباب البحر ايتها الاساطيل العاتية ، واملأي كبد السماء ايتها الطائرات المستكبرة ، وميدي يا جبال الوطن العزيز بضعاف النفوس من ابنائك ، اما نحن فكما قال (فردريخ نيتشه) في قصيدته الغنائية[1] سنجلس على الرغم من ذلك كله بين فكي التنين ونتربع على انياب الكارثة ونصيح بأعلى اصواتنا وملء افئدتنا فلتعش الحرية وليحيى الاستقلال وليهنأ الوطن المقدس بأبنائه البررة الاوفياء »

(١) German Ecstasy of Song

الدين والثقافة الحاضرة

شأن الدين : ان نظرة واحدة اجمالية في تاريخ الدين تدل على الدور العظيم الذي مثلته العقائد الدينية على مسرح الحياة الاجتماعية ، ولا ادلّ على المقام الرفيع الذي يتبوأه الدين في قلوب الجماعات — حتى في السنين الاخيرة الطافحة بالشكوك والثورات على انواعها — من هذه الغارة الشعواء التي تشنها الحكومات اللادينية على العقائد الدينية المتأصلة في النفوس لعلها تستطيع ان تزحزحها عن مكانها . ومن اللغو ان يحاول كاتب في التاريخ الحطّ من شأن العامل الديني في التطور الاجتماعي وان يقتصر على العوامل الطبيعية وحدها ، واذا وجد ما يبرّر هذا الموقف في القرن الذي نعيش فيهِ فلن نجد له مبرراً في القرون الخالية، لان الدين كما قالت « المعلمة البريطانية » قوة دافعة من اعظم القوى ، فقد الّفت هذه القوة الامم ومزّقتها وجمعت الامبراطوريات وفرّقتها واجازت افظع الاعمال المنكرة واوحشها واقسى العادات واخشها والهمت الخلق أنبل الافعال في البطولة والايثار والاخلاص واحدثت اهول الحروب والثورات والاضطهادات وجلبت للناس الحرية والسعادة والسلام ، وكانت في بعض الايام نصيرة الاستبداد وفي بعضها الآخر محطمة قيود الاستعباد ، وكانت حيناً من الزمن اساساً متيناً لمدنية جديدة لامعة برّاقة ثم كانت للتقدم والعلم والفن خصماً عنيداً وعقبة كؤوداً

البحث العلمي والعقيدة الدينية : اننا على اتم وفاق مع « الموجز في الاجتماع » عند قوله :[1] لا دخل للمباحث المتعلقة باصل الدين في المسألة الآتية وهي : هل كان ثمت وحي استطاع بفضله الانسان ان يعرف ربه ؟ فالبحث العلمي الفلسفي عن اصل الشعور الديني هو غير البحث في قولنا هل اظهر الله ارادته للخلق واطلعهم على مشيئتهِ ؟ ويهمنا كثيراً ان نعرف ما هي الاحوال الطبيعية التي احاطت بالانسان الاول حتى زرعت في نفسه الشعور الديني وساقته الى العبادة وسائر الشعائر الدينية وهنالك شبه اجماع على ان الدين ظاهرة اجتماعية تلازم الجمعية البشرية كما تلازمها الظواهر الاخرى فحيثما تألف مجتمع من الافراد فمن لوازمه الاولية ظهور الاوضاع الاساسية من نظام وحكومة وادارةٍ واقتصاد وعقيدة دينية

وقد اجاد الاستاذ ماثيوس في قوله[2] ومع كل الفروق البديهية التي تميز اديان الناس بعضها عن بعض ، وما لهذه الفروق من قيم متنوعة ، فالدين شيء اكبر من اي دين خاص بعينه ،

(1) Outline of Modern Knowledge, p. 49 (2) Outline of Sociology, p. 252

وهو يضع على بساط البحث قضايا سابقة لكل قضية تنشأ عن التعاليم التي يقول بها اي مذهب من المذاهب

التعصب الديني عقبة في سبيل البحث : ولم تعالج الموضوعات الدينية بالطريقة العلمية المضبوطة الآ في القرن الماضي لان التعصب الديني كان عثرة في سبيل البحث والاستقراء ، يدلك على ذلك ما كان يفعله العلماء حتى اهل الاخصاء منهم عند تصنيفهم الاديان فكانوا يقسمونها الى اديان صحيحة واديان فاسدة غير مدركين ما يعد اليوم بداهة وهو ان الدين ظاهرة اجتماعية تلازم الجمعية البشرية منذ نشأتها الاولى ، وهم يقصدون بالاديان الصحيحة ما وجدوا عليه آباءهم طبعاً وكل ما خالف ذلك فهو فاسد من عمل الشيطان . (ولمكس مولر) العالم الالماني الانكليزي المشهور فضل عظيم في محاربة مثل هذا التصنيف الضيق كما حارب تصنيفاً آخر يشابهه وهو القول ان الاديان قسمان اديان الهامية سماوية واديان وضعية ارضية[1]

ولم ينظر احد الى الاديان فيما اعلم نظرة رحبة سمحة ترى اليد المحجبة وراءها تدير شؤونها وتبعث روحها مثل المتصوفة في الاسلام فقد وقف بعضهم منها موقفاً يجب ان يكون درساً بليغاً حتى للكثيرين ممن يعنون بمثل هذه الامور في اوربا واميركا في العصر الحاضر . وليت بعض السخفاء من المتحمسين الغربيين الذين يستدرون المال من ابناء دينهم « لهداية الوثنيين والمسلمين » او « لنشر النور بين العميان » ينهنهون من غربهم فيقرأوا على ضوء الحقائق التي قرّرها علماء (الدين المقارن) ما قاله ابن العربي وقد توفي سنة ٦٣٨ في قصيدته التي طالما استشهدنا بها على سموّ الشعور الديني عند العرب وجعلناها عنواناً لا للتعمق فقط بل له وللعقيدة والمبدأ ايضاً ، ذلك ان ابن العربي كان من القائلين بوحدة الاديان ويرى جميع المتدينين يعبدون الاله الواحد المتجلي في صورهم وصور جميع المعبودات والقصيدة هي :

لقد كنت قبل اليوم انكر صاحبي ... اذا لم يكن ديني الى دينه داني
وقد صار قلبي قابلاً كل صورة ... فمرعى لغزلان ودير لرهبان
وبيت لاوثان وكعبة طائف ... والواح توراة ومصحف قرآن
ادين بدين الحب انى توجهت ... ركائبه فالحب ديني وايماني

وابن العربي هذا لا حاجة به الى من يذكرهُ من المتشددين الثقيلي الوطأة بأن هنالك في بعض الاديان المنحطة من السخافات والاعمال المنكرة ما لا يجوز ان يتسع لها قلبهُ او يطمئن اليها لبه ، فهذا كله كان معلوماً عنده الاّ انهُ كان في موقفه المستجد اسمى من ان يفوته

(١) Lectures on the Scicuce of Religion p. p. 123 -- 143

المعنى العظيم المتجلي الشامل بانصرافه الى الجزئيات الموضعية الخاصّة . واذا كان الكون في نفسه الحسّاسة الصافية اشبه بقطعة شعرية نفيسة منسجمة فمصراع واحد معوج او بيت واحد فاسد لايحول دون تمتعه بالقصيدة كلها كاملة واعجابه بالفنان المبدع الذي اجاد نظمها واحكم قوافيها ووزنها

وخذ مثالاً آخر على هذه الروح السمحة الرفيعة ما قاله ابن الفارض الحموي المصري المتوفى سنة ٦٣٢ هجرية في تائيته الكبرى :

وان نار بالقرآن محراب مسجد — فما بار بالانجيل هيكل بيعة
وان عبد النار المجوس وما انطفت — كما جاء في الاخبار في الف حجة
فما قصدوا غيري وان كان قصدهم — سواي وان لم يظهروا عقد نية
فلا عبث والخلق لم يخلقوا سدًى — وان لم تكن افعالهم بالسديدة

ولا اعرف احداً من المتقدمين قارب هذه المعاني — وان لم يبلغ شأوها — سوى الانبياء الفيديين من الهنود فقد صاحوا في زمنهم « ان الناس ليدعونه — « اي ليدعون الله » — اندرا او مترا او ڤارونا او اغني وانّ الحكماء ليطلقون عليه الاسماء المتنوعة ، اما هو فليس الاّ واحداً في جميعها »

وسوى (مكسيموس المادوري) لما قال لاغسطين في نحو سنة ٣٩٠ « ان هنالك الهاً واحداً عليّا ليس له ولد وهو الله القدير ابو الجميع، وان قوى هذه الآلهة التي عمّت الخلائق — يشير الى الآلهة الجديدة التي انتشرت في الامبراطورية الرومانية بدخول المؤمنين بها تحت طاعة الرومانيين — هي ما نتجه اليه بالعبادة تحت اسماء مختلفة بالنظر الى جهلنا اسمهُ الحقيقي ، فيحدث اننا اذ نقترب بعبادتنا ونحن منفردون من بعض اجزاء الوجود الالهي نجد اننا انما نعبد من كانت فيه هذه الاشياء جميعها وحدة كاملة »

ومن خير من عرفنا ممن يمثلون هذا الاتجاه البعيد الغور في الأعصر الحاضرة رئيس اعظم مؤسسة وجدت في الشرق للتبشير خوّلها بسعته للتثقيف وهو المرحوم الدكتور هورد بلس رئيس الجامعة الاميركية في بيروت . قال لي « لقد بقيت نصرانيّا ادين بالمسيحية لاعتقادي انها تحوي مثلاً ٧٥ في المئة من الحق في حين اعتقد ان الاسلامية تحوي ٧٠ في المائة فقط واما انت فقد بقيت مسلماً على مثل هذا الاساس لاعتقادك بهذه النسبة ولكن في مصلحة الاسلام ، وخمسة في السبعين هي اختلاف ضئيل في المقدار لا اختلاف في الجوهر »

وعقد المستر « هربرت سبنسر » في كتابه « درس الاجتماع[1] » فصلا شيقاً في التعصب

(١) The Study of Sociology, 293

الديني وتأثير العقيدة المتوارثة العمياء في احكام الناس. قال ان الصامويين — وهم سكان جزائر «ساموا» في المحيط الهادىء — متصفون باللطف والدعة والكرم الحاتمي والرجال والنساء منهم مطبوعون على حب اولادهم، وللشيخوخة في نظرهم حرمة ووقار، ويأبى الواحد منهم ان يدعى خشناً قليل المعروف وتمتاز نساؤهم بالفضيلة والالفة، ولا تعرف عندهم جريمة قتل المواليد، ولاحظ السياح انهم يعاملون المرضى معاملة انسانية كريمة جهد طاقتهم

هذه حال الصامويين اجمالاً، فلننظر ما يقال عن جيرانهم «الفيجيين» اكلة اللحم البشري. فهؤلاء لا يكترثون لحياة الناس ويعيشون في خوف دائم بعضهم من بعض ويحسبون البوق «وهو الغدر» من الشمائل الكريمة، وليس سفك الدم في نظر الفيجي جناية بل شرفاً، فهم يقتلون المقعدين والعجزة والمرضى ونحوثلثي مواليدهم، ومن بقي منهم حيًّا فأول درس يتلقنه ان يضرب امه، ومن خصالهم الحث على الانتقام واثارة الغضب وقتل من كان ادنى منهم مرتبة بمجرد اهماله تأدية السلام على الاصول، وهم يئدون العبيد بجانب القوائم التي يبنى عليها بيت مليكهم، ويذبحون عشرة منهم او اكثر على ظهر ركوة — زورق — جديدة ينزلونها الى الماء تعميداً لها بدمائهم، ويخنقون نساء الامير وحجابه وامناءه عند موته تشريفاً لهم وتكريماً، وعادة اكل اللحم البشري منتشرة عندهم الى حد ان اميراً من امرائهم رثى ابنه فقال في ختام رثائه انهُ لا يحجم عن قتل نسائه واكلهنَّ اذا ما اغضبنه». وهم في بعض الاحيان يشوون فرائسهم البشرية احياء قبل ان يبتلعوهم، وقطع (طانوا) احد امرائهم ذراع ابن عم له ولعق الدم السائل منهُ ثم طبخ هذه الذراع واكلها في حضرتهِ وبعد ذلك قام اليهِ فمزقه ارباً ارباً. أما آلهتهم — وقد وصفوا بأوصافهم وطبعوا على غرارهم — فكانوا يرتكبون هذه الاعمال نفسها، لا جرم انهم يعيشون على ارواح الفرائس التي يفترسها الناس بشيّهم هذه الارواح على النار اولاً، وليست هذه الارواح في الواقع الاَّ «قرائن» الفرائس او نسخة ثانية عنها

ويصف الفيجيون هذه الآلهة بأنها محتالة متكبرة منتقمة تتحارب وتتقاتل ويأكل بعضها بعضاً، ومن اسماء التمجيد التي يكرم بها الآله الفيجي قولهم «الزاني» و «خاطف المرأة» و «آكل الدماغ» و «القاتل»

تلك صفات الصامويين وهذه صفات الفيجيين فاسمع ما يقول هؤلاء عن اولئك

«يرتعش الفيجيون من ذكر الصامويين لانهم ليس لهم دين يدينون بهِ ولا عقيدة بآلهة من امثال الآلهة الفيجية يؤمنون بهِ، وهم لا يعرفون شيئاً من تلك الشعائر الدموية المنتشرة في الجزائر الاخرى، وفي احد الايام اظهر السائح «جكسون» شيئاً من قلة الاحترام لاحد آلهتهم فغضبوا عليهِ ولقبوه (الكافر الابيض)»

قال (سبنسر) وكل من قلب هذه الصفحات يرى الدرس البليغ المستخرج منها، ولا نحتاج الى كبير عناء في تطبيقه على العقائد والمشاعر في الاقوام المتمدنة . ولاشك ان الرجل الفيجي الشرس يرى ان افتراسه فريسة بشرية باسم احد آلهته من اكلة اللحم البشري هو عمل مبرور في حين يرى ان جارة الصاموي الذي لا يقدم قرباناً لهذه الآلهة بل يعدل في معاملته ويحسن الى اخوانه يدل بعمله هذا على ان الدناءة تسير وقلة دينه كتفاً لكتف

اما وقد فسر الفيجي الحقائق على هذا المنوال فهو عاجز عن تصور المجتمع الصاموي تصوراً صحيحاً . وهو بما احدثهُ من الخبط والخلط بين الرذائل والفضائل وفقاً لعقيدته الدينية المستحكمة لا بدَّ ان يرى الخير المتولد عن بعض النظم الاجتماعية شرّاً والشر خيراً

ولا يصعب على الباحث في اي دين من الاديان متى استعرض في ذهنه الحوادث والاشخاص ان يذكر بعض الذينهم في تصلبهم الديني الاعتقادي كجلاميد الصخر وفي سيرتهم العمليـة الاخلاقية لينو العريكة قليلو الاكتراث حتى ليلوح للمتتبع ان ليس ثمت ارتباط وثيق بين العقيدة والاخلاق فكان مجرد الاعتقاد بوجود قوة محجبة يتقرب اليها المؤمن بالركوع والسجود والادعية توصله الى الجنة الموعودة كما يوصل مجرد اسم (بدوح) على الغلاف الرسالة الى اصحابها

وقد اثرت عقيدة الناس بخطورة الايمان الديني وحده واتمام الشعائر والعبادات في الاصول من غير نظر الى الاعمال تأثيراً بليغاً في جميع الاوساط التي عرفناها ، وكنت اسمع في صغري من هذا القبيل مثلاً لا يزال كثير الشيوع للدلالة على قوة العبادة وحدها وهو « صل الفرض ونم بالعرض» يعني متى اديت عدداً من الركعات في يومك معيناً في الاوقات الخمسة فنم قرير العين هادىء البال

وانني لا اعد مثل هذه العقيدة الابتدائية شيئاً مستغرباً في بيئة عامة من بيئات الشرق بل العجيب ان ترسل اوربا واميركا طبقة من خريجي جامعاتها — من اكسفرد وكامبردج وهارفرد وكولومبيا — ليبشروا بالدين فيسيئوا اليه بما يحملون من عقائد لا تختلف في جوهرها كثيراً عن عقائد الفيجيين ، فعند بعضهم مثلاً ان مجرد ايمان بالثالوث ينجي صاحبهُ وان لا دخل للاعمال في مصائر الناس ، وقرأت في منشور وزعهُ بعضهم على البدو في العراق في سنة ١٩٢٧ قولهم : «ايها الموحدون اياكم ان تتكلوا على صالح الاعمال واحذروا ان تعتقدوا انها تدخل عاملها جنة الرب المتعال . ففتشوا عن الشفيع وابحثوا عن صفاته القدسية ترشدوا وآمنوا بالمخلص من الخطايا تهتدوا وان عسر عليكم فهم شيء فاسألوا الذين يقرأون الكتاب كما امركم بذلك القرآن يا اولي الالباب»

انني لما قرأت هذه العبارة المهينة للعمل الصالح لم اتمالك ان قلت في نفسي ما احوج اصحاب

هذا المنشور الى هدي البدو لهم لان اصغر بدوي في العراق يعلم ان دخول الجنة متوقف على العمل الصالح ولو باطعام جائع وايمان خائف . ولو اطلع كاهن بسيط من كهنة البوذية في الشرق على هذا المنشور لحمد لغوتاما بوذا مذهبه « الـكرما » الرائع الذي اصبح اساساً للدين وخلاصته ان مصير المرء في التناسخ الازلي متوقف على عمله او كما جاء في القرآن فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره

اما الحملة على العبادات وحدها من غير صـلاحٍ يؤيدها فللشرق في ذلك مواقف رائعة قال المعري :

ما الدين صوم يذوب الصائمون له ولا صلاة ولا صوف على الجسد
وانما هو ترك الشر مطرحاً ونفضك الصدر من غل ومن حسد

وفي صحيح البخاري «من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة في طعامهِ وشرابه» وتقريع المسيح للفريسيين على تمسكهم بالقشور دون اللباب اشهر من ان يذكر . وحضرت مرة مجلساً للمرحوم عبد القادر بك المؤيد العظم فجاءه رجل يدعي حقاً عليهِ وأخذ يدلي بحججهِ منها انهُ رجل لا يؤخر الصلاة ولا يترك الصيام فأجابهُ بغضب « الصلاة عادة والصوم جلادة »

وقد بيـن الاستاذ « هوبكنس » [1] الضرر الشديد الذي قد يصيب الروح الدينية النبيلة من الاقتصار على الشعائر وغيرها من المظاهر الصورية ، ولما كان الدين ركناً ركيناً للاخلاق فكل ما يحدث فيهِ ضرراً يتناولها بالضرر ايضاً ويعرضها للخطر . وقد ذكر المؤلف من القصص النادرة في هذا الموضوع انهُ رأى في احد الايام امرأة تصلي في احدى الـكنائس اللاتينية وبيدها سبحة لتلاوة الاوراد فركعت بجانبها امرأة غريبة تدل مظاهرها على الثروة والغنى فلاحت من صاحبتنا التفاتة فرأت طرف منديل يخرج من جيب الغنية عرضاً واتفاقاً فاغتنمت هذه الفرصة السانحة ونشلته لأنها لم تستطع مقاومة هذه المحنة في نفسهـا ، واعتقد الاستاذ (هوبكنس) انها لم تأت الكنيسة للسرقة بل دلّته ملامحها على اخلاصها في عبادتها . وبعد ما اتمت سرقتها جدّدت صلاتها بنشاط وحماسة اشد من قبل كأنها شعرت بالشكر والامتنان على ما اصابته من نجاح . وغني عن البيان ان مثل هذه الصلاة كانت عملاً صوريًّا من اعمال الشعائر ويقال ان الرجل من سكان جزيرة صقلية يطعن بالمدية قابضاً عليها باليد الواحدة في حين يقبض على الصليب او الاثر المقدس باليد الاخرى فدينه كما ترى دين الشعائر . وفي شمال الهند طائفة تدعى طائفة (التوجيين) مؤلفة من اخوان يعبدون الهاً يسمى (كالي) ومن عادتهم الدينية المقدسة انهم يخنقون الفرائس البشرية تقرباً لالهتهم وتعبداً وكانوا يحصلون على معاشهم من

(١) Origin & Evolutiun of Religion, p. 270

الاسلاب التي تأتيهم بهذه الطريقة وقد استمروا في شعائرهم الدموية المقدسة هذه الى ان الغتها الحكومة البريطانية حوالي سنة ١٨٤٠

وفي الحملة النجدية الوهابية التي شنت الغارة على شرق الاردن منذ نحو عشر سنوات هجم بدوى من الغطغط في جملة من هجموا على قرية تدعى «أم العمد» ليجاهد في سبيل الله أعداء الدين من المرتدين الذين يجوزون زيارة القبور وطلب الشفاعة من أصحابها ، فرأى امرأة في حجرها ابنها فنادت تستغيث وتطلب الامان ولكن لا أمان للمرتد فذبح الطفل اولاً ثم ذبحها وهو يهلل ويكبر وينشد النشيد المعروف

هبّت هبوب الجنة رائح فين يا باغيها

وكثيراً ما ناقضت بعض الاديان الاخلاق على هذا النمط فملايين « مملينة » ذهبت ضحايا الآلهة وفرائس العبادات . والاغواء كان جزءاً من العقائد الدينية في الهند وهو مع الاسف لا يزال كذلك الى اليوم ، وأخرت اديان اخرى الاخلاق بطرق اكثر حذاقة واشد مهارة فان ادعياء خدمة الدين المتصدرين للكلام بلسانه قد تمسكوا بالقواعد الاخلاقية الهرمة البالية وشووا المتهمين بالزندقة على النار في حفلات عامة يخيم عليها التبجيل والوقار وذلك عملاً بالامر الديني الذي يحرم سفك الدماء ! وقاوموا الافكار الحرة بحرقهم الكتب الاخلاقية والفلسفية التي تنافي العقائد الاخلاقية والسياسية الجامدة المقلدة . وتؤيد في يومنا هذا الاباحية وهي الحب الطليق بين الذكر والانثى تأييداً علنيًّا باسم دين لهُ مئات الملايين من الاتباع فقد جاء في كتاب « رقص شيفا » المطبوع في نيويورك سنة ١٩١٨ — وشيفا هذا هو اله الاصلاح في الثالوث الهندوكي — قوله عن هذه الاباحية « ان لها معنى روحيًّا عميقاً فهي تمثل الاتحاد الصوفي بين المتناهي واللامتناهي »

وعرفت رجلاً من سلك القضاة الشرعيين في سورية توفي منذ سنوات فكان لا يترك صلاة في الضحى ولا صوماً في عاشوراء ولا مالاً ليتيم في المحكمة الشرعية ! ولم يدر في خلده ابداً ان الصلاة يجب ان تنهى عن الفحشاء والمنكر لتكون صلاة صحيحة

***

تعريف الدين : الدين عقيدة داخلية تدل عليها الطريقة التعبدية الخاصة التي تسلكها الجماعات نحو آلهتها وفقاً لتلك العقيدة . وفي امهات المعاجم العلمية ان الدين هو المظهر الخارجي في الشكل او في العمل الذي يدل الناس بواسطته على اقرارهم بوجود اله واحد او آلهة متعددين لهم سلطة على مصير هؤلاء الناس ولهم واجب الطاعة والعبادة والحرمة اللائقة . او هو شعور داخلي واعراب خارجي عن حب وخوف ورهبة من قوة مسيطرة خارقة فوق

البشر ، ويتم هذا الاعراب بالاقرار بالعقيدة او بالقيام بالشعائر او بالسيرة الشخصية التي يسيرها المرء في حياته

وقد دلّ التتبع الدقيق ولا سيما في الاقوام الابتدائية على ان الدين عقيدةً وعملاً انما هو سعي للاحتفاظ بما ثبتت منفعته اجتماعيًّا . ويضرب العلماء[1] المثل على ذلك بالشعائر التي يقوم بها (التوديون) وهم جيل من الناس الابتدائيين يسكنون في آكام « نلجيري » في جنوب الهند وعددهم قليل مبعثر هنا وهنالك ويؤلف لبن الجاموس والبقر وما يستخرج منهُ من المحصول جلّ طعامهم . اما دينهم فيرتكز على هذا الرزق الذي هو ركن معيشتهم وهو الشيء القيم الثمين الذي يهمهم الاحتفاظ بهِ في الدرجة الاولى . فالواجب ان يكون اللبن غزيراً ونقيًّا لذلك كان جميع متعلقاته من بقر وملابن ولبانين ومحالب « وهي ادوات العمل في الالبان » مقدساً ، وان بعض الملابن هي في الواقع معابد يؤمها الناس للعبادة والبانون القائمون على سدانتها هم كهنة

ويتفاوت البقر في قدسيته ، فهنالك البقر العادي يسوسه رجال القرية وصبيانها بالشيء القليل من الاحتفالات ، فيؤخذ اللبن ويمخض أمام كوخ السكن من غير شعائر خاصة تقام له ولا قيود يقيد بها استعماله أو المحصول الناتج منه . على ان الرجال والصبيان يحيون الشمس قبل مباشرتهم البقر وهكذا نرى استخدام الدين للاحتفاظ بهذا الخير الثمين محدوداً . وبخلاف ذلك البقر المقدس والملابن المقدسة فهي تحاط بالشيء الكثير من الرعاية الدينية ، فللعناية بملابن « ألتي » مثلاً وهي أكثر الملابن شعائر ومناسك يقوم اللبان باحتفالات دقيقة محكمة قبل دخول محل عمله المقدس وعليه ان يبقى متبتلاً مادام في هذا العمل، وان يعيش في ملبنته منقطعاً عن الناس انقطاع الراهب في الدير

وعلى الكاهن في كثير من الملابن المقدسة ان يتلو صلاة معينة عندما يشعل مصباحه وذلك قبل مباشرته البقر في الفجر وبعد حلبها، وقبل سوقها الى المرعى ، وعليهِ في جميع هذه الملابن ان يتلو الصلاة في المساء قبل الحلب وبعده وعند ما يزرب البقر المبيت ليلاً . وتتألف صلاة « التوديين » من جزئين اثنين « الاول » المقدمة وهي عبارة عن سرد اسماء كل اسم منها تسبقه كلمة معناها « لاجل » و(الثاني) الجزء الجوهري. اما المقدمة فهي مقدسة ويجب ان تبقى سرية حتى ان الذين عنوا بتدوين خبر (التوديين) لقوا صعاباً جمة في حملهم على ذكرها . وهي في احدى الملابن المعروفة في قرية « كودر » تشمل فيما تشمله الاسماء الآتية وهي اسم القرية والقبيلة والملبنتين الكبيرة والصغيرة والمصباح في الملبنة الاولى ، وزريبتي الجواميس في القرية

---

(1) A Student's Philosophy of Religion, p. 19

وحظيرة العجول ، واسم الجواميس على نوعيها المقدسة والاعتيادية واسم الينبوع في القرية المختص بالملبنة واسم الجاموسة التي يزعمون ان لبنها مصدر هذا الينبوع ، واسم التلال الاربع القريبة من القرية ، واسماء بعض الجواميس التي يعتقدون ان الالهة « تيكرزى » اهدتها في بعض الايام للقبيلة ، واسم العجل الذي كان بحسب اساطير القوم وخرافاتهم السلف الصالح لبعض الجواميس الحاضرة

وبعد ان يردد كاهن الملبنة هذه المقدمة همساً بصوت ضعيف لا يكاد يفسره من يقف بجانبه ينتقل الى الجزء الجوهري من صلاته فيتلوه بجلبة وخشخشة قائلاً : « لتكن حال الجواميس حسنة وليبتعد عنها الاذى والهلاك وشر الحيوانات السامة والوحوش البرية او اضرار الفيضان والنيران وليكن عندها بحبوحة في الماء والكلأ »

أفلا تدل مثل هذه الصلاة على انها سعي جدي للاحتفاظ بخير اجتماعي عميم له شأن عند القبيلة من المقام الاول



آراء الباحثين

في اصل الشعور الديني

ورأسي على حجرها سؤالاً كان يشغل بالي يومئذ
كثيراً ما كنت اسأل والدتي في طفولتي
كما يشغل بالي اليوم وهو « من ابن اتى ابي ؟ »فتقول « من جدك » و« جـدي ؟ » فتقول
« من جد بابا»وهكذا الى ان نصل الى آدم كما هي العادة فاسألها« ومن ابن اتى آدم ؟ » فتقول
على الاصول « خلقهُ الله من التراب » وهنا تحاول كثيراً ان تقطع الحديث ولكنني
ويا للأسف كنت استمر في سؤالي شأن من لم يستفرغ الحقائق المنشودة فاقول لها ببساطة
الاطفال ومن غير وجل «ومن ابن اتى الله ؟ »فتعبس في وجهي حالاً وتقطب جبينها وتقول
« اسكت ... حرام ... كفر ... » فكنت اسكت حقاً ولكن على أمضض وانا خائف ان
اكرر سؤالي حتى لا اغضبها
الاطفال غيري ، وما حب
تمثل هذه الصفحة المقتضبة من طفولتي تاريخ كثير من
الاستقصاء المتسلسل الوارد فيها الاّ ميزة من ميزات العقل البشري وصفة ملازمة له لا تستطيع
الوالدة مهما كانت محبوبة ومحترمة ان تقف في وجههِ . فالسؤال عن اصل الموجودات او عن
سبب حدوثها متأصل في النفس تأصل سائر الخصائص التي لازمت العقل البشري منذ ما انتقل
من البساطة الحيوانية التي كان عليها . واذا صحّت نظرية النشوئيين فيما يقولون من ان سن
الطفولة في الفرد يمثل عصر البشرية في المهد فيكون مثل هذا السؤال الذي ازعج والدتي كثيراً
من الاسئلة التي خطرت للانسان الاول وهو لا يزال في الكهوف والبحيرات والغابات ، وكانت
مساعيهِ يومئذٍ للحصول على الجواب الشافي بمثابة البحوث الاولى في الدين والعمل لتعليل السبب
والمسبب واللازم والملزوم والازل والابد . لا جرم اننا نرى في جميع الاديان المعروفة خبراً
طويلاً مستفيضاً عن بدء الكائنات ومصيرها وعن الجلد والظلمة والغمر وروح الله التي كانت
ترفرف على الماء وعن خلق آدم من التراب وحواء من ضلعه وكذلك الخبر عند المجوس عن
الاثني عشر الفاً من السنين الطوال التي يتصارع فيها اله النور (اهورامازدا) واله الظلمة
(اهوراماان) وعند الهندوكيين عن تلك العشرات من ملايين السنين التي تنتهي بتفاني الخلق
واندثارها في براهما
ان هذه الصفحات الغزيرة المستوفاة عن البدء والمصير هي روح تلك الصفحة الاولى التي
خطرت لي وانا مستند الى حجر والدتي وستخطر للاطفال امثالي ما بقيت لهذا العقل الذي زين

الانسان تلك الخصائص النفسية التي يحق لنا ان ندعوها «السببية» «والتلازمية» «والازلية» «والسرمدية» ، وفي نظري ان مذهب النشوء والترقي ان هو الا محاولة علمية استقرائية بعثها في قلوب العلماء مثل هذا الشعور المتأصل في النفس لتعليل الانسان بالعودة بأصله الى الحيوانات من القردة فما دون الى الحيوانات ذات الخلية الواحدة . بيد ان هذه النظرية تقف وقوف سائر المذاهب والعقائد عند ما نتساءل « ومن اين اتت الحياة لهذه الحيوانات الدنيا ؟ » ومتى وصل العالم حتى من كان دهريًّا بحثاً الى هذا المقام فهو ليس ببعيد كل البعد عن منطقة الدين وما لهُ من ولهٍ في تعليل المبدأ والمصير . وفي الجزء الثاني من كتاب « زاد المعاد في هدي خير العباد » لابن القيم الجوزي (ص ٣٥): « وقال صلى الله عليهِ وسلّم (لا يزال الناس يتساءلون حتى يقول قائلهم هذا الله خلق الخلق فمن خلق الله ؟ فمن وجد من ذلك شيئاً فليستعذ بالله ولينته »

وقرأت في مقتطف مايو الماضي للاستاذ نقولا حدّاد مقالاً طريفاً عن « الزمكان » فيهِ خلاصة النظرية النسبية للاستاذ (أينشتين) في الزمان والمكان فقلت في نفسي هذه هي الضالّة التي انشدها وهذا بيت قصيدي لانهُ يعالج بالطرق الحديثة الفضاء ويضع لهُ حدًّا فلنصغ الى طريقته

قال الاستاذ حدّاد: «لذلك ما نسميهِ فضاء هو فضاء محدود بالمادة ، متناهٍ ، لان المادة متناهية اي ان لها قدراً معيناً والفضاء محدود بها ، لهُ اول ولهُ آخر» ، فقلت في نفسي ان (اينشتين) وجميع شهرته العالمية لم تحل وياللاسف شيئاً من العقدة لانني لا ازال حتى هذه الساعة اسأل بحكم فطرتي وتركيب عقلي واختباري اليومي في الموجودات «ما الذي كان يا ترى قبل اول الفضاء وما الذي يأتي بعد آخره ؟ » ولشد ما كان تعجبي اذ رأيت الاستاذ حدّاداً نفسه يعقب على جميع ما اتى بهِ من البراهين لاثبات ان المكان محدود بجملة واحدة تهدم هذا التحديد وتعود بنا الى المواقف المتحيرة التي وقفها حكماء الهند واليونان والعرب منذ الوف السنين وهي قوله «ولا تسل عما قبل الاول وعما وراء الآخر فهذا مستحيل على العقل البشري تصوره » وهو لا يختلف كثيراً عن قول والدتي ورأسي على ركبتها « اسكت ، . . حرام . . . هذا كفر . . »

ثم اني لم اقصر سؤالي لها على آدم وتسلسله فقط بل كثيراً ما كنت اسألها عن السماء ايضاً وما فوقها وعن الارض وما تحتها فلم يكن ليصعب عليها ان تردّ عليَّ بذكر السبع الطباق وبقرن الثور ولكنني كنت ألاقي منها نفس الاعراض والتقطيب متى جاوزت السماء السابعة الى العرش وقعر الارض الى قرن الثور

فانت ترى ان البحث في المكان واللانهاية مثل البحث في الزمان والازل خاصية من خصائص العقل البشري لا محيد عنها، وقد جال فيها علماء الطبيعة كما جال فيها الحكماء المتقدمون وعلماء الدين، ولعمري ان المستكشفات الحديثة في علم الفلك وما توصلت اليه من تقدير الابعاد بالسنين الضوئية قد ضاعفت حيرتنا من هذا الكون وابهته وجلاله، وكل طالب علم يذكر كيف قضى في فراشه الليلة الاولى التي رصد فيها الافلاك بالمرقب لاول مرة وكيف سبح وهمه ساعتئذ بين الاجرام السماوية محاذياً لها حتى تراءت له حدود اللانهاية فماد خاسراً وهو حسير . ومع كل هذا السلاح العلمي الدقيق الذي نتسلح به اليوم فنحن ازاء هذه المعضلات الزمانية المكانية لسنا بعيدين عن مقام الحيرة الذي بلغهُ اعلام التصوف من رجالنا الماضين ، وبخاصة الحيرة من اللانهاية فقد مثلت هذه الحيرة ادق الادوار وأخطرها في تطوراتنا الدينية ومعتقداتنا الروحية

ولقائل ان يعترض فيقول ان ما ذهبنا اليه من هذه الخصائص العقلية التي مازت الانسان لا ينطبق على الانسان الوحشي الاول فمثل هذه المرتبة الراقية في التفكير تحتاج الى انسجام منطقي لم يبلغه ، وان الطفل ابن الخامسة من ابناء اليوم هو في مقام الحكماء اذا ما قيس بالانسان النيندرتالي مثلاً ، ثم ان الدين قضية اجتماعية من اولها تولدت من اتصال الانسان بأخيه الانسان ولا يكفي في تعليلها الاعتماد على الشعور الفردي مهما كان خطيراً ، وجوابي عن ذلك كله ان الشعور باللانهاية على انواعها ، اللانهاية المكانية التي لاقرار لها واللانهاية الزمانية التي لا منتهى لها ، واللانهاية الطبيعية في القوة التي لا تنضب وظواهرها الجبارة التي يتضاءل عندها الانسان فينقاد لاحترامها وتبجيلها والرهبة منها صاغراً ، كل ذلك كان له اعظم الاثر في تفكيرنا الديني منذ ما جاز ان يطلق على هذا الانسان انه حيوان مفكر

المذهب الاجتماعي الطبيعي في تعليل الدين : ان هذا الذي ذكرناه في تعليل الدين يحتاج ولا شك الى شيء من الارتقاء العقلي قد لا يكون موجوداً في البشر الاول ، لذلك رأينا ان نطلع القراء على خلاصة رأي الاجتماعيين في هذا الباب وكيف عللوا الظواهر الدينية منذ نشأتها الاولى معتمدين في الاكثر على ما كتبهُ الاستاذان (هوبكنس) و (جيدنغز) وعلى ما ورد في « الموجز في علم الاجتماع » :

ان المشاكل المعضلة التي لقيها الانسان في حياته على وجه الارض فولّدت في نفسه الافكار الدينية وما يتعلق بها من أعمال هي مشاكل شديدة التعقد ، والعلائق القائمة بينها دقيقة جداً ، فنرى ان العقل البشري بما بذله من المساعي الجدية للخروج من التيه المرتبك الذي وضعتهُ فيه ظواهر الطبيعة والخلاص من الحيرة المختبطة التي احاطت به من البشر انفسهم قد هيأ التربة

الصالحة التي نمت فيها شجرة الدين ، فيجوز ان يقال اذن ان البشر الاول وهو منتقل حديثاً من المرتبة الحيوانية العجماء بعقل لا يفضل كثيراً عقل الحيوان حلق في هذا الكون فرأى ما فيه من قوى وحشية وبشرية همجية فاعتراه الخوف ولكنهُ لم تتضح له جلية هذا الشيء المخوف، اذ كانت الافكار التي تجول في نفسهِ لا تزال مجموعة صور خليط لم تدخلها بعد عوامل التنسيق والتبويب . بل امتلأ قلبه ذعراً من شيء اطلق عليه العلماء اسم « المرعب الاعظم » او « المبهم » وعنوا به قوة مرعبة محجبة تكتنفها الاسرار وتحيط بها الهواجس تسلطت على لب هذا البشر الوحشي وضايقتهُ ولازمتهُ حتى حملتهُ على اتخاذ اتجاه خاص نحوها فكان يفكر كيف يفسر هذا المرعب الاعظم ويعللهُ ويقوم بمعاملتهِ والتقرب اليهِ ومن هنا ابتدأت فكرة الاسترضاء والاستغفار والعبادة كما يتضح مما يأتي

فالبشر حتى منذ ما كان على الحالة الحيوانية ادرك معنى التفوق او السيادة من جهة والخنوع والخضوع من جهة اخرى ، وتوصل الى فهم بعض الاشياء والاحاطة بمعناها وذلك لفهم الناس من حوله ، وتعلم كيف يعقد أواصر الاتصال بهم ويمشي اموره معهم ، ومن المعقول جداً ان يمتد هذا الفهم وتزداد أواصر الاتصال حتى يتسما فيشملا الظواهر الطبيعية المحيطة بهِ والتي لم يدرك كنهها ولكنهُ حرص على استمالتها اليهِ واسترضائها . لم يدرك البرق والرعد والعاصفة والسيل والشلال مثلاً ولكنهُ توسل بجميع الوسائل التي سبق لهُ ان استعان بها لاسترضاء أخيهِ الانسان لاكتساب عطفها ورضاها . لا جرم انهُ فسّر كل شيء مستغرب مجهول بالمشاعر التي تجول في نفسهِ وتجول في نفس البشر اخوانه وعزا اليها ما عزاهُ اليهم وعامل هذه المجهولات التي اعجزهُ فهمها بنفس الطريقة التي عامل بها اخوانه ومشّى حاله معهم

وعلاوة على ذلك فقد دلّتهُ التجارب على ان الطريقة التي نجحت في اكتسابهِ معونة البشر اخوانه واسترضائهم قد نجحت هي ذاتها في اكتسابهِ معونة الحيوانات واسترضائها . وقد تجلى ذلك له في تدجين بعضها والعمل لتأنيسها. ثم ان الصراع الذي كان قائماً بينهُ وبين الحيوانات البرية قد أرشدهُ حتى قبل مباشرته عمل التدجين هذا الى ان عقول هذه الحيوانات تشبه بعض الشبه عقول الناس ممّن كان عليهِ ان يتصل بهم ويعاملهم . فاذا كان في وسعه ان يعيش مع الناس ويتعامل مع الحيوانات باتباعهِ بعض القواعد وسلوكهِ بعض السبل ، افليس من المعقول ان يستنتج استنتاجاً منطقياً خالياً من الارتباك والتعقيد ان هذه القواعد والسبل نفسها تنجح في فهم واسترضاء اشياء اخرى منتشرة حوله في الكون لا تقل غموضاً وغرابة ؟

وقد احتفظ الانسان بهذا الاتجاه العقلي المنطقي في جميع اعماله وطوال حياته ، واذ كان

جاهلاً ان في الدنيا اسباباً غير شخصية تصدر عن قوى طبيعية عمياء فقد توهم الشخصية في كل سبب مرغماً ونسب الى الظواهر الطبيعية من حوله التي لا دخل للناس فيها ايدي الاشخاص، اذن فما دام السبب الذي يحدث النتيجة شخصاً فالواجب ان يكون شخصاً مثل سائر من عرف من الاشخاص — شخص حب وكره، شخص عطف ونفرة، شخصاً مكوناً من قوة مستترة غامضة، عليه ان يعاملها بطريقة من الطرائق. فاذا كانت هذه القوة ساخطة فالواجب استرضاؤها وتسكين روعها، والطريقة المثلى الوحيدة التي تخطر بالبال هي الطريقة التي يسترضى بها البشر متى كان ساخطاً لذلك تخيل الانسان الطبيعة جميعاً حافلة بالارواح من نحطه، ثم ان شخصيته ذاتها لم تكن اقل غموضاً وتعمية بالنسبة اليه من ظواهر الطبيعة ووقائعها فهو اذا ما صاح سمع صوتاً يهزأ به يتردد من الروابي والغابات وهو الصدى الذي لا يدهش أحداً منا، واذا ما انحنى على البركة ليشرب رأى في اعماقها وجهاً ينظر اليه مثل وجهه او وجه من يكون معهُ من الرفقاء وهو الصورة المنعكسة عن سطح الماء التي لا يكترث لها احد منا واذا ما نام حلم في منامه انهُ يجول ويقوم بشتى الاعمال ولكنهُ عند ما يصحو يجد انهُ لم يغادر البقعة التي نام فيها، وفي بعض الحالات الاخرى يضطجع ثم يقوم ويمشي وهو نائم الى ان يصطدم بشيء من الاشياء فيصحو، اذن فهذه الحوادث الطارئة والاختبارات المتتابعة التي مشى فيها وجال وتكلم هي في منطقه البسيط اختبارات حقيقية وحوادث واقعة لا غبار عليها. فكيف يفسرها؟ كيف يستطيع المرء ان ينام ويمشي في آن واحد من غير ان يغادر مكانه؟ والتعليل الوحيد الذي يخطر لهُ من جميع هذه المشاهدات هو انه شخص مزدوج مؤلف من قرينين — والقرين في العربية هو النفس او هو الشيطان المقرون بالانسان لا يفارقهُ؛ وكلا المعنيين لا يبعد عن معنى الازدواج الذي قصدناه — ففي المنام يبقى احد قرينيه في موضعه والقرين الآخر يتمشى خارجاً؛ ومعنى ذلك في حسابه ان لهُ روحاً وهذه الروح تلازمهُ في صحوه، واما اذا نام او اصيب باغماء او ذهول فانها تغادر جسمه وتروح وتغدو بعيدة عنهُ، وهي محجوبة عن نظره لا يستطيع مهما حاول ان يراها. ولكن اي برهان على وجودها يا ترى أصح وأسد من هذا البرهان المحسوس الملموس؟

ثم انه بسائق العقل البسيط الذي يحمله في رأسه يستنتج ان روحاً تشبهُ هذه الروح تحل في الطبيعة كلها وهذه الروح هي شخص ذو خصائص ذاتية مثله ومثل رفقائه، تحب وتبغض ولها شهوات وانفعالات وعواطف ويساورها الغضب وتشتهي الهدايا والمنح وتصاب بالهوى والوسواس: اذن فهي شيء ينظر المرء اليه بالرهبة والخوف ويعقد معهُ اواصر للصلح والسلم والوئام

ثم هنالك حادثة الحوادث - هنالك الموت وما فيه من غرابة وغموض وابهام ، وقد دلتنا جميع الملاحظات التي جمعناها على أن الشعوب الابتدائية البالغة درجة التفكير في الامور تهتم بالموت ، فالانسان الاول وهو مقيم دائماً في وسط القوى الوحشية التي قضت عليها المدنية فيما بعد او أخضعتها ودجنتها لخدمة البشر قلما مات ميتة طبيعية حتف أنفه ، فاذا كتب له أن يعيش فيموت هذه الميتة فانها تكون حينئذٍ ظاهرة غريبة تفسر على هذا النمط المزدوج القائم على وجودٍ آخر هو الروح المحجوبة أو القرين الخفي

والغالب أنهُ يموت قبل بلوغهِ أرذل العمر وهو سن الشيخوخة البالية اذ يقول انه لا يرى لذة في الحياة بل تكون الحياة على عكس ذلك لا تزال لذيذة حلوة والموت نكبة لا راحة، ولما كانت الوحوش البرية الضارية والبشر الاشد منها توحشاً وشراسة واقفة له بالمرصاد في كل ناحية للانقضاض عليه فالخوف الطبيعي الغريزي من الموت كان ابداً ماثلاً أمام عينيه، ولما أخذ يفكر في هذه الاحوال والاشياء خطر له هذا السؤال بالطبع وهو «ما هو الموت ؟» فهل يجد الجواب الشافي عن هذا السؤال الاّ في تلك الاختبارات التي تشبه الموت كثيراً ؟ لقد نام وأفاق ، ورأى في بعض الاحيان أناساً صرعوا في القتال فأغمي عليهم حيناً من الزمن ثم عادوا الى وعيهم ، ورأى آخرين أصيبوا بغشيان او دهشة وذهول فلما صحوا قصوا على الناس ما رأوا وما سمعوا ، أليس الموت شيئاً مثل النوم والاغماء والذهول الاّ ان غياب الروح فيهِ عن الجسد أطول أمداً ؟ أولا تكون الروح أو القرين في حالة الموت حية في مكان آخر ترى وتسمع وتتلذذ وتعي وتشتهي وتنفعل وتحب وتبغض كما لو كانت في الجسد ؟ ثم تحدث حادثة مشؤومة ليس لها سبب ظاهر ، فليت شعري لم لا يكون ميت من الاموات الساخطين قد أحدثها ؟ فمثل هذا الميت لما كان حيًّا انتقم لنفسهِ ، والآن وهو ميت وقد غضب واغتاظ فالواجب ان يسترضى ويهدأ روعه بنفس الطريقة كما لو كان حيًّا

وربما كان الميت رئيساً كبيراً أو حاكماً للجماعة مطلقاً فيخشى منهُ في موته بقدر ما كان يبجل في حياته وزيادة ، لان المعروف من أمره وهو ميت أقل بكثير مما كان يعرف وهو حي ، لذلك تغلفهُ الموت بالاسرار وحجبهُ بالطلاسم والمعميات فاحاطهُ بالاسباب الداعية إلى الذعر والرهبة ، وهكذا نشأت عبادة السلف أو بمثل هذه الطرق كانت الافكار الدينية الاولى الخالية من الانسجام للاعراب عن نفسها ، وهي أفكار طافحة بالمتناقضات مثل أفكار الرجل الابتدائي أو مثل افكار الطفل الصغير في أوائل تفكيره ، ومغشاة مبهمة «ومتبلة» خليط بعضها فوق بعض تشبه العواطف والانفعالات والاندفاعات المتولدة في نفسهِ من اتصاله بالكون وما فيهِ من أشياء وأشخاص . على ان هذه الافكار هي جهود جهدها لانقاذ الموقف

الكريه بشيء من العمل مهما كان نوعه : هي بوادر تعليل نظري للعالم الذي يعيش فيه ، وهي المحاولات المغلوطة الاولى للحصول على الوسيلة التي يتمكن بها من اخضاعه والتسلط عليه . هي آراء منعكسة عن الجمعية البشرية التي هو جزء منها وعضو فيها ، ولهذه الآراء نظائرها في نفسه وفي نفوس الناس من حوله ممن يتصل بهم ، فالآلهة التي يصطنعها لنفسه يعملها على غراره وغرار اخوانه ولكنها اعظم منهم شأناً وأشد بأساً وأسدُّ حكمةً واكثر ابهاماً وأقل جلاءً

وقصارى رأي الاجتماعيين الطبيعيين في نشوء الاعمال الدينية والعبادات هو ان اتصال الانسان الابتدائي الاول بالطبيعة وبالناس من حوله ادى الى استحداثهما في نفسه فهما من صنعه ويبتدئان من عنده وينعكسان عن تجاربه . وكلما نما الطفل الصغير واضحى على اتصال بالشخصيات الاخرى تعلم ان يكيف نفسه بحسبها وعلى مقتضى الاحوال التي تحيط بها فهو يرى انهُ اذا قام ببعض الاعمال استرضاها وعقد اواصر الوفاق معها وان قام بغيرها أغضبها وأثار حفيظتها ، فهنالك اشياء تستدعي سرورها واخرى تسيئها ، ومن مثل هذه المفاجات الاختبارية الدائمة يتعلم ماذا يعمل لاكتساب رضاء الشخص الآخر . وعلى اساس هذا الاختبار يستخلص لنفسه قاعدة عامة ويختار دستوراً يوافق جميع الناس . والآن وهو يعتقد ان الظواهر الطبيعية يسببها اشخاص فانهُ يتبع في معاملته روح الجبل او روح العاصفة مثلاً نفس الخطة التي يتبعها في معاملة الناس . ويجب ان يكون الاشخاص الذين يحدثون هذه الظواهر ويديرون امرها مثل الاشخاص الذين عرفهم لذلك يتخذ اتجاهاً خاصاً نحوهم ويستميلهم بالهدايا والقرابين ويسكن غضبهم او يكتسب رضاءهم ورعايتهم بالثناء عليهم والتضرع اليهم واقامة الصلاة لتمجيدهم

الدين والنهضة
الاخلاقية الحديثة

﴿ التطور في العقائد والعادات ﴾ : ليس من شأن الاجتماعي اذا ذكر الاديان بصورة مجملة ان يحصر كلامه في الاديان كما نزلت على مؤسسيها لان الشعائر والعقائد والاعمال في الامة على كرّ الزمن قد لا تبقى على صيغتها الاصلية بل ربما ارتقت عن هذه الصيغة او انحطت بحسب العوامل والطوارىء وقلما كانت ثابتة من غير تعديل او تبديل . ويهمنا ان نقرر هنا ان قابلية التطور في العقائد وما يتبعها من العادات المتجلببة بجلباب التقديس قابلية عظمى حتى ان المتتبع ليرى انتقالاً يكاد يكون فجائياً من النقيض الى النقيض باسم العقيدة الواحدة نفسها ، وان « البدعة » التي تضطرب لها افئدة المؤمنين في الجيل الواحد قد تصبح قاعدة من قواعد الايمان في الجيل الآخر ولاسيما اذا قدّر لها رجل مبجل يفتي بان لها اصلاً في النصوص القديمة ، وقد لازم التعصب في المجتمع الازياء خصوصاً لباس الرأس واثار في البلدان الشرقية « حروباً » حامية الوطيس لا تزال لها بقية باقية ، ، وذكر لنا من تقدمنا ان تغيير الاحذية من القديمة الى الحديثة في عاصمة البلدان السورية احدث هياجاً عظيماً كاد ينتهي بفتنة حمراء ، وفي اوائل القرن الحاضر ضمني ورجلاً من كبار الاعيان في بيروت مجلس ذكر المجتمعون فيه حديث الفتوى بلبس القبعة كما نقل لنا عن لسان الشيخ (محمد عبده) يومئذ فارتعش واضطرب وامتقع لونه واظهر من النفرة ما يظهره الترك الكماليون اليوم من رؤية الطربوش على رأس السوري او المصري او العراقي !

ولا يقتصر هذا التطور على الشؤون التي اصبحنا نعدها ثانوية لا يؤبه لها بعد مرور الزمن عليها ، بل يتناول الشؤون التي نعدها اولية ، ولا ادل على ذلك في موضوع العقيدة الدينية من تولد مذهب (التوحيد) في لب البلدان البروتستنتية وتمتعه بالحرمة اللائقة به مع كل ما احدثهُ من التغيير في العقائد التي اعتبرتها الاجيال السالفة جزءاً لا يتجزأ من التعاليم المسيحية ، ورأينا في اميركا من اتباع هذا المذهب الجديد والمؤمنين به من لا يقلون شأناً عن زملائهم واخوانهم الموحدين السابقين امثال (لونجفلو) و (امرسون) و(هوثورن) و(جفرسون) و(لينكون) من الاموات وغيرهم ممن زينوا اسم الولايات المتحدة واعلوا مقامها ، ويقوم مذهبهم فيما يقوم عليهِ من نقد العقائد المتوارثة المنمنمة على وحدانية الخالق وحدانية منزهة

وانكار التثليث، وعلى اخوة البشر وان النجاة تكون بالاعمال لا بمجرد الايمان فقط وان الارتقاء البشري سنة ثابتة الى الابد.

ونرى في الشرق تحت اعيننا تبدلاً اساسيًّا في وضع من الاوضاع المقدسة مثل اخطر الادوار في حياتنا الاجتماعية وهذا الوضع هو الحجاب، فالذين يتمسكون به يغالون في شأنه مغالاة تجعله في مصاف الاركان الجوهرية التي بني عليها الاسلام وقد لا يقل في نظرهم عن اقدس المقدسات، واما اهل السفور فلم يخلعوا الحجاب فقط بل يدعون اليه علناً بقولهم انهُ مخالف للحياة الاسلامية الاولى مخالفة بدهية! وكيفما كان الحال فمرور المرأة المسلمة اليوم سافرةً في اهم شارع من شوارع القاهرة وعلى رأسها القبعة لا يستوقف نظر احدٍ، ولو اقدمت على مثل هذا العمل قبل خمسين او ستين سنة مثلاً ما فازت بالسلامة. والذين يقرأون كتاب (تحرير المرأة) في ايامنا هذه لا يشعرون بشيء من الهزة العنيفة التي احدثها يوم ظهوره، ذلك لانهم رأوا باعينهم من الافراط في العرى ما جعلهم يترحمون على اعتدال قاسم بك امين والسفور الذي دعى اليه.

وفي النازية الالمانية اليوم نزعة اجمعت الكنيسة المحافظة على وسمها بالزندقة والوثنية وغير ذلك من الفاظ الاستنكار، ولكن عالماً خبيراً بالنشوء الاجتماعي قال لي، من يدري ما عسى ان يكون تاريخها في المستقبل؟ وقد يكتب لها ان تنتشر من المانيا الى سائر العالم المسيحي كما انتشر مذهب (لوثر) في القرون الماضية، ولكن من المحقق ان الصهيونيين واقفون اليوم في صف المدافعين عن قواعد الايمان الكنسي وهم اشد حرصاً على مقاومة (هتلر) «وبدعه» من رعاة الكنيسة الانجيلية نفسها.

السخافات الباقية من العقائد الخالية: من اعجب الظواهر الاجتماعية ان يبلغ البشر هذا المقام الرفيع في الارتقاء العقلي وتبقى بعض العقائد والشعائر الابتدائية السخيفة ملازمة له. واذا كان لها في احد الايام الغابرة ما يجوزها فليس لها في يوم الاستنارة العقلية مسوغ ما. واعجب من ذلك ان يدأب بعض «المؤمنين» على التمسك بها وممارستها على رغم جميع المناهضات والمقاومات التي يبديها العقلاء الذين هم اقرب الى فهم الدين والاحاطة بروحه ونصوصه. وقد أثر اشد الاثر في استدامتها وتعلق الناس باهدابها ان بعض كبار الاخصائيين من اهل العلوم والفنون العملية الحسية وائمة الصناعات ممن لم يسبق لهم اي اشتراك في شيء من العلوم الاجتماعية والتاريخية والدينية ما برحوا يحملون بها ويطأطئون رؤوسهم اجلالاً لها وتعظيماً، فتراهم وهم أئمة مبرزون في فروعهم كالاطفال في هذه العلوم. فلا غرو ان يكون لهم من نبوغهم في المنطقة التي اختصوا بها صوت مسموع لدى العامة في منطقة لما تطأها

اقدامهم ، ورأي مطاع في شأن لما يكن من شؤونهم ، لان العامة وباللاسف يظنون ان من اتقن شيئاً فقد اتقن كل شيء ، او من صنع آلة ميكانيكية حافلة بالحيل الدقيقة مثلاً او اخترع دواء ناجعاً لمرض عضال حار فيه الاطباء فان عمله مستمد من منبع عميق لاطاقة للبشر ان يغترفوا منهُ ، فرأيه في السياسة او في الاجتماع او في الدين يجب ان يكون حجة يقارع بها الخصوم . وقد طرأ هذا التحول السريع بتقدم العلوم الحسية وتمتع اصحابها بالمقام الرفيع في المجتمع، وكان هذا المقام عادة وقفاً على المشتغلين بالشؤون العقلية والروحية . وحضرت مرة مجلساً حاول فيهِ احد الذين يتغلّون اسماء الرجال الاخصائيين المشهورين في الفروع التي عانوها ان يبرهن عن سخافة كان يؤمن بهـا امير الماء (نلسن) — وهي انهُ سيموت في يوم معين حققتهُ الايام — على صحة الهواجس « الاثيرية » او الروحية التي تخامر النفوس ، وكذلك استغلّ غيره اسم (باستور) لتأييد بعض الشعائر والعقائد البالية ، وانني افهم كل الفهم ان يكون كلام (نلسن)حجة في القيادة البحرية وكلام (باستور) حجة في الجراثيم ولكنني لا أفهم ابداً كيف يكون كلامهما حجة على صحة الهواجس النفسية والشعائر التقليدية ، ولأقرب الى المعقول ان يستشار (توماس اديسون) في قواعد اللغـة العربية ويهتدى برأي (رونتجن) في تاريخ حياة (توت عنخ امون) من ان يستشار (نلسن) او (باستور)في المشاعر الوجدانية والعقائد الدينية . على ان البلية كانت اعظم والطامة أشد وأحكم لما كان المنتسبون الى العلوم المعنوية يدّعون السيطرة على العلوم المادية والتحكم في اصحابها ، فلهم مثلاً ان يحزوا رقبة العالم الفلكي الذي يجرؤ على القول بكروية الارض ودورانها !

على ان الذي سيبقى عثرةً في سبيل الاقناع بما حدثنا واقامة الدليل على ما بينا هو ان العلوم الاجتماعية اجمالاً ليست من الضبط والإحكام في المقام الذي تتمتع بهِ العلوم الطبيعية فيجوز لكل ثرثار ان يدعي تلك الى اجل واما هذه فحجتها قريبة وحبل التدجيل فيها قصير

ثم ان العقبة الكأداء التي لما يعرف المجتمع كيف يتغلب عليها ويأمن الالتطام بها هي السلطة القاهرة التي تتمتع بها العادة المستحكمة ولا سيما متى كان لها اتصال بالحرمة والشرف واللياقة والمروءة والاباء وغير ذلك من معاني الاعتزاز والسمو، وقد تصبح مثل هذه العادة — على ما قد يكون فيها من الهمجية والفحش والظلم — مقياساً في الاخلاق وكمالاً في العقيدة . وانني لأضرب على ذلك مثلاً من الاقوام التي تعيش عيشة ابتدائية فان اوضاعها البسيطة الخالية من تعقيد الحضارة قد ترشدنا الى فهم الاوضاع الحاضرة في ارقى الاوساط المدنية . قال الاستاذ (هوبكنس) (1) عن علاقة الدين والمادة بالاخلاق إن قانص رؤوس من

(1) Origin & Evolution of Religion, P. 246

جزيرة (بورنيو) فص القصة الآتية التي تدل على تحكم عادات السلف في الخلف وكيف ان الاخلاق انما هي السنة التي درج عليها الآباء والجدود والتي اكتسبوها للفائدة التي استفادتها المشيرة من تطبيقها والسير عليها . قال الصياد : كنت شديد التعلق بمربيتي العجوز ، وقد حان الزمن الذي قال لي والدي فيه : يا ولدي لقد كبرت وباشرت سن الرجولة فهلمَّ واقتل قتيلاً » كما هي العادة في تلك الاصقاع لاثبات الرجولة . قال الصياد « وحكم الشرع عندنا ان النساء العجائز اللاَّت لم يعدنَ يصلحنَ لشيء ان يذبحنَ . فدلني والدي على مربيتي العجوز وكانت جالسة لوحدها وقال لي ، انني صغير السن فلا استطيع ان اقتل رجلاً ولكن يجب ان اتمرن عليها فأعطاني قوسي وسهامي وقال لي هلمَّ وارمها . اما انا فلم ارد قتلها ولكنه اصر علي وقال لا بدَّ من ذلك فرميتها بسهم ولكن طاش فلم يصبها فأدركت هي الموضوع وأخذت في البكاء وانا اخذت في العويل فاغتاظ والدي وامرني ان امتنع عن عويلي واكفكف دمعي واضبط الهدف وذكر لي انهُ من الشر المعيب ألاَّ اقتلها . حينئذٍ اخذت ارميها رمياً متواصلاً ومع انها اعولت فلم التفت الى عويلها وما زلت ارميها حتى قتلتها . وكانت عندي في مقام والدتي ولكنني لم ابال . ثم ان والدي قال لي يا ولدي الآن اصبحت رجلاً صالحاً وقد عملت عمل الرجال وقمت بالحق »

﴿ الاخلاق الايجابية ﴾ حدث عند الاجتماعيين المتأخرين تطور في الاتجاه الاخلاقي لا بد من الاشارة اليه هنا ، وهذا التطور هو الاهتمام بما يسمى « الاخلاق الايجابية » لا الاكتفاء «بالاخلاق السلبية » — يعني اننا كنا في الماضي نعد الكمال في الرجل ان يمتنع فقط عن اتيان بعض الموبقات كالخمر والميسر والزنا وغير ذلك من المحرمات التي لا يشك احد في فضيلة الابتعاد عنها ، وان يسير في حياته سيرة المسكنة والخضوع «والدروشة » وكم رأينا في الحوانيت الابيات الآتية معلقة على الجدران وهي :—

اذا شئت ان تحيا سعيداً من الاذى	وحظك موفور وعرضك صين
لسانك لا تذكر به عورة امرىء	فكلك عورات وللناس السن
وعينك ان ابدت اليك معائباً	فصنها وقل يا عين للناس اعين
وعاشر بمعروف وسامح من اعتدى	وفارق ولكن بالتي هي احسن

لم نعد مثل هذه الاخلاق — على ما فيها من سحر وانسانية — مقياساً للنشاط الاجتماعي ، فهو يتطلب الجرأة والاقدام والعمل لا الانزواء في الزوايا ولا وضع اليدين على الرأس وترديد كلمة « يا لطيف » . والمسكنة وما يتعلق بها من زهد وانقياد وتمشية للحال تروق الامم المستعبدة التي لا ترى سبيلاً الى النجاة الاَّ بالخضوع وعقد الآمال بظهور المهدي او

عودة المسيح او يوم الحساب واما القاعدة الاجتماعية التي يرجى منها الخير العميم فهي الامر بالمعروف كما هي النهي عن المنكر وتلقين القواعد التي تبنى عليها الاستقامة كما هي النقد الصحيح لتقويم الاعوجاج وبث روح العدالة في الافراد كما هي الضرب على ايدي المعتدين حتى لا يتجرأوا على فساد المجتمع ، فترك الحبل على الغارب في مثل هذه الجرائم التي تجترم اجتثاث لاصل من الاصول الجوهرية في الحياة الاجتماعية والسماح عن المعتدي يكاد يجعل المتسامح شريكاً في ارتكاب الجرم ، بل لا بدّ من مقابلة الظلاّم وجهاً لوجه . وحدث في بعض الحركات الوطنية ان أرسل احد الزعماء الى السجن فجاء اليه بعض الاطفال يحملون باقةمن الازهار اظهاراً لاعجابهم به فقال لهم من وراء قضبان الحديد « آه لو وصلت اليكم لقبلت ايديكم الصغيرة ولأخبرتكم انني الى الخناجر احوج مني الى الازهار»

ويعالج اساطين النهضة الاخلاقية في اوربا هذا الموضوع معالجةً دقيقةً ، ومن المفيد جدًّا ان يطلع ابناء العالم العربي على طريقتهم وعلى الغرض الذي يتوخونه من ذكر الاخلاق الايجابية في مقابل الاخلاق السلبية ، ومن خيرة الكتّاب في هذا الباب من الاجتماعيين الاستاذ (بايندر) فيجدر بنا ان ننقل لهم خلاصة منه ننهي بها سلسلتنا هذه [(١)] فقد قال بعنوان « الاخلاق المسيحية القديمة والحديثة » ما مؤداه : ولما كانت النصرانية في الاصل دين المظلومين والمحرومين فقد وقفت بالضرورة موقف الخصم تجاه القويّ المتصف بالاقتدار ، وفي الاحوال والظروف الحافلة بالمتاعب والمشاق يكون الاستسلام وترك المقاومة في كثير من المواقف خير سياسة تنتهج ، ذلك لان الثورة محكوم عليها بالاخفاق ، والتفكير فيها خارج عن الموضوع . فلما اصبحت الكنيسة وضعاً في صميم الدولة اهمل اصحابها هذه الناحية من تعاليمها ، بيد ان هذا الطابع الاولي بقي ملازماً لها ولم ينمح اثره ، فكانت تعدّل وتوسّع بحيث تنطبق على جميع الناس بشكل تواضع وتذلل يتذلله المرء امام الله للذنوب التي ارتكبها . وربما كان هذا العمل ضرورة من الضرورات الملجئة في عصر ساد فيه العنف والشدة فكان من الواجب التوصل بالوسائل المرعبة لارهاب الاشرار كبيرهم وصغيرهم ، فكانت النتيجة ان الكنيسة اهتمت بالضعف والذل والمسكنة والعجز واعتبرت هذه الصفات السلبية وامثالها مطلوبة في المرء مرغوباً فيها وانها في كثير من الاحوال عنصر جوهري في السيرة المسيحية . قال (بايندر) ومع ما يجوز لهذه القيم الكمالية من قيمة مقدرة فهي قيم لا تؤدي الى التقدم في الحياة الا بطريقة سلبية يعني انها تمنع الاحتكاك الاجتماعي ولكنها لا تؤدي الى تحسين الاحوال والظروف ، مع ان هذا التحسين هو الضالة

(١) Major Social Problems, p 165

المنشودة التي ينادي العالم في طلبها ويستغيث للحصول عليها

وتحسين الاحوال كما تملي يتطلب البداءة والتشبث والهجوم والمخاطرة وغير ذلك من معاني الاقدام لا الاستسلام والخضوع . وقد غرس صدر النصرانية هذا الخلق السلبي في المؤمنين في جميع القرون ، وحيثما ابيح انحراف عن هذه الخطة فالنتيجة كانت هلاكاً كما هو الحال في الفرسان الهيكليين وهم فرقة (الداوية) The Templars في ابّان الحروب الصليبية والمؤسسات الاخرى التي انتظمت انتظامهم فان التقوى اضمحلت عندهم وتغلبت عليهم الصفات العسكرية الهجومية

اما في الاعصر الحاضرة فالنتيجة مختلفة عن ذلك اختلافاً بيناً ، فاذا كان ثمت كثيرون لايزالون يؤمنون بالدين فهم قد اغفلوا شأن الفضائل السلبية التي كانت تعد جوهرية في الاعصر السالفة ، وربّوا ما عندهم من تشبث وبداءة واقدام وعالجوا مشاكل الحياة واجبروا الطبيعة بقوة ارادتهم على التسليم بالكنوز المدفونة فيها،فكانت النتيجة من الناحية الاجتماعية شيئاً طريفاً خليقاً باسترعاء الاسماع والانظار

﴿ عواقب الاخلاق الجديدة ﴾ قال (باينذر) : لقد صرف المجددون الهمم لاصلاح الدين بان نفثوا فيه روحاً هجومية وطالبوا الناس بمساهمة نشيطة في الحياة السياسية والصناعية الحاضرة ، وحيثما تمّ شيء من النجاح في هذا الباب حمل المتمسكون بالطريقة الدينية على ما استجد حملة شعواء قائلين انها شرود عن النصرانية الصحيحة ان لم تكن مروقاً وضلالاً ، وكانت الكتب التي تقول بمثل هذه الاصلاحات الجوهرية موضوع اضطهادهم وحرمانهم

وكان من النتائج الاخرى ان انْسَلّ عدد كبير من الرجال من عضوية الكنيسة ممن لم يطيقوا البقاء على الخمول والتقاعس ، فقد ودّوا ان يعملوا شيئاً خليقاً بنشاطهم ولكنهم اجيبوا ان تصدقوا وعودوا المرضى ، وقد ترضي مثل هذه الطريقة الرجل الذي تقوم افكاره على الطريقة الجامدة ويعتقد بان الله راضٍ ان ينظم الشؤون على طريقة تحتفظ بالمرضى والفقراء دائماً . اما الرجل الحديث وطريقته في التفكير متحركة لا جامدة وعقيدته الثابتة التحسن المنتظر في الاشياء فيتساءل في نفسه لِمَ ياترى يوجد بين ظهرانينا هؤلاء المساكين الذينهم في حاجة مستمرة الى مساعدتنا ؟ ومن المحقق عنده ان الخطأ لن يكون من الجانب الالهي ، اذن فهو من الجانب البشري ، من جانب المجتمع او من جانب الفرد ، فلا بد من عمل شيء لاصلاحه يعني يجب ان تلقي على الجاهل دروساً في الصحة والغذاء وان تنبه الجماعة الى التهيؤ والاستعداد اللازم للتفتيش الطبي والنظام الصحي ، اذ لا ضرورة ملجئة تقضي بان يكون ثمة مرضى او فقراء فمتى اقيم نظام في التوزيع عادل فاهل الاسراف وفاقدو

الحيلة وقليلو التدبير فقط يكونون وحدهم من الفقراء ، والواجب يقضي بان يلقنوا ضرورة العمل حتى اذا ما رفضوا السعي في مناكب الارض سيقوا الى المعاهد الخاصة حيث يعزلون عن الناس وتعطى لهم الادوية الناجعة

وكذلك من النتائج التي نتجت السعي لاستدرار الاكف من اتباع الكنيسة العاملين والحصول منهم على الهبات العظيمة لكل عمل يخطر بالبال ، فالذين يدافعون عن النظريات الدينية العتيقة يزعمون ان الرجل المتنازل عن جزء من ثروته لغاية خيرية هو رجل يعمل لخدمة الانسانية ، ولكنهم لا يدركون ان الهبات السمحة هي سبب عظيم في استمرار الشرور الاجتماعية الحاضرة . وقد يكون المرء حريصاً على التبرع بعشر ثروته على شرط ان ينال اذناً ربانياً يحلل لهُ امتلاك الاعشار التسعة الباقية والتصرف فيها ، فلا عجب والحالة هذه ان يكثر التحدث كتابة وخطابة عن الصلاح في الهبات العظيمة وان يصير كثير من الناس صالحين بهذا المعنى

وما دامت الكنائس متعلقة بالنظرية الدينية العتيقة وهي من الاساس نظرية سلبية فلا امل باتخاذ الاجراآت الاصلاحية الجوهرية . لان هذه الكنائس متى تحولت الى ايجابية هجومية ووعظت عن الظلم الصناعي وما اشبهه من الشرور باهتمام خسرت تأييد الرجال الذينهم هدف سهامها وحملاتها ومعنى ذلك بالقلم العريض خسارة فادحة في الموارد التي تعيش منها واغلاق الكثير من المباني الكنسية. والناس قد تعودوا ان ينظروا الى السلبية انها النصرانية فهم يأنفون هذا الاتجاه الجديد الذي لم يألفوه

﴿ الدين ودستور السبب والمسبب ﴾ : وربما كان اصعب شيء على المرء تعلمه هو ادراك دستور السبب والمسبب ادراكاً علمياً . فهذا الدستور معترف بهِ عند جميع الناس من الناحية النظرية فقط لا من الناحية العلمية ، وكان من الجائز تطبيقه تطبيقاً شاملاً اعم لولا الموقف الرسمي الذي تقفه العقيدة الدينية بحيث تجد المخرج من ورطته دائماً والحِلّ من مفعوله الثابت . والغرب منظر في جميع التاريخ مُحيّر هو الخطط التي اختطها الناس لتجنب مفعول هذا الدستور والابتعاد عن منطقة عمله ، واهم ما يدعو الى الاطمئنان وتوقع التحسن في المستقبل هو ان الناس تعلموا — على اقل تقدير — ان جزاء الوزر الذي يزره المرء لا يمكن تجنبه ولا تحميله على عاتق الآخرين ممن لم يرتكبوهُ (ولا تزر وازرة وزر اخرى) ، فدستور تحسين النسل مثلاً انما يعني هذا في دائرة التوالد لا اقل ولا اكثر — يعني ان القذارة الاجتماعية تنتهي بالوراثة الفاسدة حتماً وسريعاً ولا مخرج من هذه الورطة ولا حِلّ من مفعولها الثابت لا بالاوهام ولا بالخرافات . وكذلك دستور الاجور الناقصة او الرخيصة فهو يجري على هذا

النمط — يعني ان محصولها يكون اضعف نوعاً واحط مقداراً من الاجور الوافية ، فالسبب والمسبب متصلان لا يحول بينهما حائل ، وربما كان اهتمام الناس بحوانيت النسج القذرة التي يقيم بها العمال المرهقون للمرض الملتصق بالملابس المصنوعة فيها والخوف من عدواه اضعاف ما تحدثه فيهم تلك المجادلات العتيقة حول اخوة البشر وابوة العزة الالهية

﴿ حاجتنا الى التغيير ﴾ : قال (بايندر) ويتوقف الاثر الاجتماعي الذي يتركه الدين الرسمي في المستقبل على قبوله دستور السبب والمسبب ، فاذاما اغفل الدين هذا الدستور طرد العناصر المفكرة من حظيرة الكنيسة ونفرها من الاشتراك في اعمالها ، كما دلت الحوادث في السنين الاخيرة

ومعظم الخلق هم في حاجة الى الدين وذلك لضعفهم ووهنهم ، واحدى غاياته المعروفة ان يزرع في قلوبهم القوة وفي نفوسهم السعادة ولن يتم ذلك بتعليمهم ان يحملوا تبعة ذنوبهم ونقائصهم على اعناق الآخرين . والطريقة المثلى للاعتبار والدرس الحكيم هي ان يتحمل الفرد وزر عمله . وهذا ينطبق على الفرد كما ينطبق على الجماعة . وتكون المحنة المغرية بارتكاب الشر المرة تلو المرة عظيمة فوق طاقة معظم الناس اذا ما قيل لهم ان هناك طريقة من الطرق لنجاتهم ورفع التبعة عن اعناقهم . وان بعض الناس لا يتعلمون حتى من الاختبار ولا يتعظون حتى من المصيبة فلا شيء يعمل لهم سوى تركهم في مراجل الالم : هذا هو دستور الطبيعة وهو دستور الروح . وما من رجل يحتمر فيبلغ في الاخلاق المقام المحمود الا بالسعي وصرف الجهد فعلينا « ان ننشد السلامة بالخوف والرعشة » ويريدنا الله ان نتعاون معه على رفع المجتمع الى مستوى اعلى مما هو فيه ولن يتم ذلك الا اذا عرفنا واجبنا وساهمنا في تحمل التبعة

اما الاصرار على ضعفنا وذلنا ولفت الانظار الى شرنا ووهننا فيجعلنا دون العمل الواجب علينا انجازه واقل اهلية للقيام به ، لاننا نحن في الاكثر كما نحن بما يقال لنا ، والاشادة بقابليتنا للعمل ، تساعدنا على انماء هذه القابلية فينا لان « من كان عنده فيعطى » واما من كان خلواً فلا حق له وليس هذا دستوراً كيفياً بل هو سنة كل ارتقاء . والنظر الصحيح الصائب في الالوهية هي انها عامل يعمل دائماً وابداً بنشاط مستمر لترقيتنا ورفاهيتنا ، ولا نستطيع ان نضع في ميزان التقدير والاعتبار من شأن الجهود التي تصرفها هذه القوة المعنوية من اجلنا الا على قدر ما نتمثله منها بجهودنا ومساعينا وماعدا ذلك فكلام هراء وثرثرة لاطائل تحتها . ولا ندري اننا عيال الله ما لم نقم بالعمل الذي اختصصنا به ، والمسألة كلها هي مسألة ممارسة عملية واختبار ذاتي لا مسألة نظر وعقيدة ويدلنا الاختبار في اعمالنا على دستور السبب والمسبب في جميع نواحي الحياة بل هو حقيقة الحياة نفسها والحقيقة وحدها هي التي تحررنا من رق العبودية . انتهى

﴿ منطقة الدين ﴾ : لا شيء أضرّ بالدين مثل اخراجه عن حدوده والسير بهِ في فياف وقفار قاحلة لم تكن له موطناً ولا لرحاله محطّاً ، وقد يضيع فيها كما تضيع الصرخة في الوادي، وليس من تمام الاخلاص في شيء اننا اذا أحببنا زيداً من الناس مثلاً ان نقول انهُ مهندس وطبيب ومزارع ومحام ورياضي وفلكي وجيولوجي وجغرافي وكيماوي وغير ذلك من النعوت الفنية وغير الفنية في آن واحد علاوة على ما يتحلى بهِ من سمو الاخلاق ، فلمَ يا ترى نجوز لانفسنا ان نكون اكثر كرماً وتسامحاً في مسائل الدين ؟ وفي الاسلام نصٌّ صريح لمؤبري النحل ان يؤبروه كما دلهم الاختبار لانهم أعلم بدنياهم ، ولان مثل هذه الفنون العملية ليست من الدين في شيء فلمَ نحاول حشرها وحشر غيرها فيهِ يا ترى ؟

ولم تخلُ اوربا نفسها من الافراط والغلوّ في توسيع منطقة الدين مما حمل كثيراً من الكتّاب الغربيين على التفريط ورد الفعل، يدلنا على ذلك ان كاتباً اجتماعيّاً معتدلاً كالاستاذ (دبلي) يدرّس كتابه في بعض الجامعات الدينية والمعاهد الاخلاقية يقول في هذا الصدد [1] « ان ما اشتهر بهِ الوضع الديني من البقاء والاستمرار تاريخيّاً على رغم الحوادث يتجلى لنا متى نظرنا بعين الاعتبار الى المصالح المتعددة التي شملها ، فهو باعتبارهِ فلسفةً قد استحدث لنفسهِ نظرية كونية عالمية غرضها بيان وحدة جميع الاشياء في آله واحد او آلهة متعددين هم خلقوا الكائنات واداروا امورها وزرعوا فيها الحياة وارشدوها لبلوغ غاية معينة ، وباعتبارهِ علماً قال انهُ بواسطة الوحي قد حصل على الدساتير الجوهرية التي تسيطر على المعارف ، حتى انهُ طالب الناس في بعض الايام ان يطبقوا العلم على هذا الوحي الذي أتى بهِ ، واستنّ في الاخلاق سنناً ليسيروا عليها قائلاً انهُ بعمله هذا انما يعمل بسلطة الهية ، وأبدى حقهُ ايضاً في املاء القواعد العملية في الشؤون الاقتصادية والمنزلية والسياسية والتهذيبية وان لهُ ان يدير الطرائق التي تجري عليها . وبدهي ان مثل هذه الدعاوى العظيمة والسلطات الجسيمة لا تسلم بها العوامل الاخرى في المجتمع دائماً » ، ذلك لان الفلسفة والعلم يدافعان عن حقهما في اذاعة النتائج التي وصلا اليها حتى لو كانت هذه النتائج مناقضة للاصول اللاهوتية ، وكذلك علم الاخلاق الاجتماعي فقد اخذ يطبع الكنيسة بطابعهِ فيما يتناول السيرة الاجتماعية ، ولم تعد الاصول التهذيبية التعليمية ترضى الخضوع للقواعد الايمانية ، ونرى الكنيسة والحكومة تفترقان والقانون المدني يدير الاسرة، واما الحركة الاقتصادية فهي كثيرة التشعب وشديدة التعقد بحيث لا تستطيع الكنيسة التسلط عليها . فالكنيسة مضطرة في مثل

---

(1) Sociology, p. 143.

هذه الاحوال الملجئة اما ان تصبح مناقضة للعصر الذي تعيش فيه متأخرة عنهُ واما ان تعمل لغاية في النفس أسمى وأرفع بعيدةً عن الصغائر والخطيات المملة ساعية للقيام بالواجب مرةً ثانية باعتبارها هداية منزلةً تهدي المشاعر الكمالية العليا التي تغلي في صدر الانسان »

ولما حمل (برنارد شو) على «الكتاب المقدس» حمل على ما يدعيه اصحابه فيه من الدعاوي الطويلة العريضة الفنية وغير الفنية الخارجة عن منطقة الدين كما اسلفنا ولكنه قال وهو محق في قوله[1] « ان هذا الكتاب وان عُدّ بالمقاييس العلمية مهجوراً من سائر النواحي الا انه من ناحية واحدة يحتفظ بقيمته وذلك باعتباره سجلاً لنشوء الفكرة الالهية» — فكرة اول سمي سماه الانسان المتمدن لتعليل مصدر الكائنات والحكمة من وجودها

وفي الحق ان هذه الفكرة هي مركز الثقل في جميع الثقافة التي مرّت عليها العصور وعليها يرتكز الدين في جهاده المتواصل الثابت وهي هي التي جعلت هذا البون الشاسع بين الانسان والحيوان ، والفرد بالغاً ما بلغ من العلوم المادية واوسع ما احاط من سننها ودساتيرها لا يكون قد ازدان بالموهبة الانسانية الجوهرية اذا هو لم يتساءل في نفسه من اين اتى والى اين ذاهب ، وسيبقى هذا السؤال عاملاً من اقوى العوامل في الحث على التتبع والتدقيق وكشف المخبآت ، وربما رجع اليه الفضل الاكبر من الناحية التاريخية في ايجاد العلوم واستحداث الفنون وتوجيه الانظار الى الحكمة . ويعلو الدين او ينحط بقدر التنزيه الذي تتحلى به تعاليمه . وما دام هذا السؤال موضوع الدين الاساسي فالدين طود ثابت ما زعزعته في الماضي الثورة الفرنسية ولا تزعزعه في الحاضر الثورة الكمالية ، وانما الخطر عليه كل الخطر هو الخروج به عن المنطقة التي خلق ليعمل فيها ، واستثمار النفعيين والجهلاء الاحتكاريين للنفوذ الذي يتمتع به . ثم اذا صدر مثل هذا السؤال عن قلب يلتهب شوقاً الى ادراك كنه الحقيقة والاحاطة بأسرارها فهو يدل على ان نفس صاحبه ليست حيوانية بهيمية بل هي نفس تزدان بالاخلاق والاخلاص ايضاً وهذا ما يجدُّ الاجتماعيون ليجعلوه من جوهر الدين ، ونحن لا ننكر ابداً ان اهل التتبع يميلون اليوم الى الفصل بين الاخلاق والدين من الوجهة العلمية ولكن العمليين من الاجتماعيين يستعينون بالدين لتقويم الاخلاق ، ذلك لان الاتصال بينهما اتصال وثيق ، وجميع الاديان الراقية الكبرى طافحة بالحث على مكارم الاخلاق ، والدين الذي لا يجعل الاخلاق الصحيحة غرضاً من اغراضه الجوهرية لا يهم الجمعية البشرية الاحتفاظ به

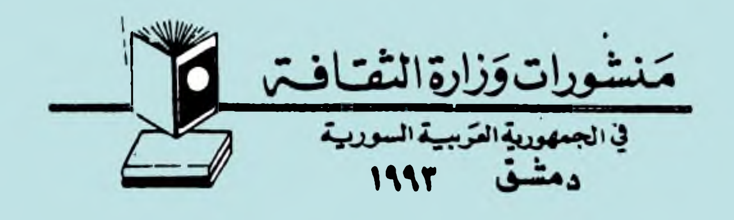
ودلنا تاريخ الاديان الراقية على ان الالوهية تجلت في النفوس من الناحية العقلية

(1) The Adventure of the Black Girl in her Search for God, p. 69.

حكمةواستقصاء ، ومن الناحية الفنية جلالاً وجمالاً ، ومن الناحية الروحية طهارةً واخلاقاً، فلا غرو ان يكون لها هذا السلطان الباهر وهذه القوة الساحرة،ولا يزال الاتقياء في كل عصر ومصر يشاطرون الكاهنة (بيثيا) لما قالت في مكهن (دلفي) في بلاد اليونان منذ عشرات القرون « ايها الغريب اذا كنت طاهر النفس فادخل معبد الله القدوس مكتفياً بلمس ماء التطهير ، فالتطهير سهل على الصالحين ولكن البحر المحيط جميعه بأنهاره عاجز عن غسل الادران من الرجل الشرير »

فصول الكتاب

٣٠٠٠ ط٢ / ٥ / ١٩٩٣


مَنشورات وَزارة الثقافة
في الجمهورية العَربية السورية
دمشق ١٩٩٣